صبحي فحماوي
الاسكندرية 2050
رواية
الفارابي
الفارابي

الاسكندرية 2050

صبحي فحماوي

الاسكندرية 2050

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: الاسكندرية 2050
المؤلف: صبحي فحماوي
fahmawis@gmail.com
www.sfahmawi.com
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2009
ISBN: 978-9953-71-464-6

- عندما دنت ساعة ولادة الجميلة مورا - التي تحولت إلى شجرة وارفة الظلال- فانشق لحاؤها ، وخرج الوليد أدونيس من جذعها ، وأسرعت الحوريات بالتقاطه، وغسله بدموع أمه، ووضعه فوق العشب. وكان أدونيس جميلاً جداً يشبه إله النباتات.

(الشاعر الروماني أوفيد)

- "لو نقدر أن نعيش على عبير الأرض، فنكتفي بالنور كالنبات.... وليس دمنا سوى عصارة أعدت منذ الأزل، غذاءً لشجر السماء.... فأنا كرمة مثلك، وستُجمع ثماري وتُحمل إلى المعصرة."

(جبران خليل جبران - النبي)

- ولاذ النيل بأذيال الفرار، وخبأ رأسه في الصحراء. وإذ اعتاد أن يقذف بمياهه عن طريق سبعة مصبات، فلم يبق سوى سبعة مجار جافة.

(توماس بلفينش- عصر الأساطير)

- إن انهيار عالم عتيق، وشيك بالفعل. إن شيئاً سيحدث على نطاق واسع. العالم يريد أن يجدد نفسه.

(هرمان هيسّه- دميان)

إهداء

إلى

18 شارع قنوات،

حي باكوس-الإسكندرية.

شبكة المخابرات الخاصة!

الزمان: 25 - 9 - 2051.

المكان: عكا.

نحن شبكة إنتاج، متخصصة بالتجسس على عباد الله، منذ لحظة الولادة، وحتى لحظة الوفاة. وبناء على معلومة تقول: "إن المُحتضَر يتهالك على سريره خلال الساعة الأخيرة من عمره، فيتذكر كل الذي مضى، ويستعيد ذكرياته من المهد إلى اللحد، فتمر الأحداث كلها مضغوطة في مخيلته بسرعة مذهلة، يتذكر فيها كل شيء، وكأنه يعيشه الآن." فإن عملنا يقوم على تسجيل رقمي، لكل ما يدور بخلد الإنسان في تلك اللحظات الفاصلة.

لقد انتهى عصر الرومانسية، التي تتغنى بنسمة الهواء على خد المحبوب. لو نكشف عن الفضائح والأسرار السابحة أمام أعيننا، والتي تلوِّث نسمة الهواء، فقد يُجن العاقل، وتجهض كل ذات حمل حملها. هذا إذا بقيت حتى الآن عاقلة تحمل حملها في بطنها!

إن نسمة الهواء التي كانت تشرح الصدر يا عزيزي، نراها

الآن أمام أعيننا تنغل دوداً حياً يسعى! نقصد أنها تنغل آهات وصرخات، ومعلومات وأسراراً، ورسائل، وشيفرات عسكرية، وعلوماً ووثائق خطيرة، وخيانات، وأغاني وأفلاماً، وصوراً مختلفة ألوانها، وموسيقى وأصواتاً ما أنزل الله بها من سلطان.

كل التأملات والأفكار، والأسرار الدفينة بداخلك، وأحقادك على الآخرين وعلى الحكام الظالمين، والخطط المستقبلية، التي يطبخونها داخل مواخيرهم، والتي لا تخطر على بالك، وكل من يضرط في آخر الدنيا، تدخل ذبذبات ضراطه في أذنيك المستقبِلتين لأي شيء يصدر من هذه الشريحة الكمبيوترية المدمجة! لقد كشفنا عنك سترك، وسجلنا كل ذلك في اللوح المحفوظ!

صحيح أنها فضائح وهموم وعذابات، تنزل على كاهل المتلقي، فتكاد تُذهِب عقله، ولكنّ هناك وضوحاً في الرؤيا. لقد أزلنا طاقية الإخفاء عن الأسرار. والسر لم يعد سراً، وهناك تخصص في الاستقبال، فهذه الأجهزة تحلل المعلومات السياسية وتصنفها، وتلك العلمية، وتلك الفنية.. وتخصصات لا أول لها ولا...

تستطيع القول إننا أجهزة مخابرات خاصة في عصر الخصخصة، حيث تقف أجهزة المخابرات الحكومية عاجزة عن الوصول إلى ألف باء المعلومات التي تسجلها مؤسساتنا

الخاصة على أقراصها الحساسة، ولذلك فهم يعتمدون علينا في كشف المستور!

لقد تميزنا في رصد الأفكار التي تدور في خلد الخارجين على القانون، والمعارضين، واستحلابها وتسجيلها، وكشف زيف المنافقين، ونجحنا في نبش عقولهم من الداخل، دون أن نقترب منهم، وسجلنا كل ما يدور في أذهانهم من أفكار وأطماع ومؤامرات، وخروج على الإطار العام!

ونحن المنفذين لهذه الأعمال البشعة الممتعة، رغم أنها تتنافى مع الحرية الإنسانية، لا نتورع عن رصد تحركات الحكومات الموجّهة ضد رأس المال المسيطر. نعم نتجسس على الحكومات لمصلحة الأشخاص. فما داموا يدفعون، نقول لهم: "حاضر". نحن ببساطة شركة فنية مرخّصة للتنصت، تنفِّذ ولا تناقش!

وبناء على طلب السيد برهان، قمنا بتسجيل ما يدور بخلد أبيه مشهور شاهر الشهري من تفكير، خلال الساعة الأخيرة من حياته، وهو ينازع سكرات الموت هنا في عكا. ولهذا شبكنا سماعة على رأس المهندس مشهور، لا لتُسمِعه آيات من القرآن الكريم بينما هو يُحتضر، بل لتتنصت، وتشفط منه ما يدور بخلده في هذه اللحظات الحاسمة.

المُحتضَر مشهور شاهر الشهري يتمدد منقبضاً على سرير جناحه الخاص، الذي جهزته له ابنته سمر، منذ عودته للتقاعد والاسترخاء، وقضاء بقية عمره بين أسباطه في مدينة

عكا، ينازع في الرمق الأخير الباقي له بين الحياة والموت، فيحس وكأن السماء تلتصق بالأرض، وهو مكبوس ما بينهما، ويتنفس من خرم إبرة! يحاول أن يستمتع بآخر شعاع ضوء كوني، تلتقطه بقايا حواسِّه المتخلِّية عنه، والهاربة من خدمته. ولكن عقله - آخر حصونه - ما يزال يعمل بتسارع عجيب.

وما نشفطه من ذكريات وأفكار وخيالات ماضية في ذهن الرجل، ونسجله على قرص مدمج، مدهش حقاً، تستطيع أن تسمعه بسهولة ويسر على جهازك الخلوي. فتفضل يا عم، اسمع، أو اقرأ ما سجلناه وحرّرناه، ودقّقناه وقدّمناه، على شاكلة رواية مدهشة، استطعنا أن نوثِّقها ونبوبها، ونرتبها طباعياً، ونترجمها إلى كل اللغات الناطقة، في الشريحة المدمجة التالية:

الزمن الأصفر!

يا إلهي ما أبهاك أيتها البجعة البيضاء الجميلة، الطافية فوق بحر أزرق، أيتها الجنّة المضطجعة على رمال شاطىء من ذهب! ما أشهاك يا أجمل الجميلات، وقد ضمّخك عطر البرتقال، حتى لقد تُيِّمت بحبك النسمات. ما أنقاك وموج البحر يغسل قدميك، ويرشق ماءه المالح الذي يرغي ويزبد في حوضك، متسلقاً ساقيك العاريتين، يدلكهما صباح مساء، فتبدين فيه ساحرة الحوريات، وصدرك العامر موج البحر، يعلو ويهبط، وصفحات أمواجك المتصاعدة هبوطاً، تشكل تضاريس أجساد نساء الإسكندرية السمينات النحيلات الشقراوات السمراوات الكاسيات العاريات الحاملات بأيديهن أوراق البردي بأسماء الله الحسنى.

أيتها الحبيبة المراوغة، اللئيمة المغرورة، وأنت تتنكرين لي، وتديرين وجهك تيهاً وكبرياء، ولا تحلمين بي، ولا تسألين عني، رغم أني أحبك، وأنقر بابك، ولا من مجيب!

"نحن ملتقيان مفترقان ؛ فأنت المقيمة هنا، راحلة بالقلب معي، وأنا الراحل عنك، مقيم بالشوق إلى جوارك." هذا ما قاله أنطونيو لكليوبترا وهو يعانقها ويتابع أشعاره:

"حين يتعانق عاشقان متحابان مثلنا، فلن يجد العالم لنا نظيراً. وإني أُشهد الأرض على غرامنا، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا. كنت تعلمين حق العلم أن قلبي مشدود إليك بحبال شداد، وأن سلطانك على روحي مكين، فإن أومأت إليّ، صدعت بأمرك، ولو عصيت كل شيء!" أنطونيو مستمتع بحب كليوبترا الخاضعة له، وأما أنا فخاضع لغرامك المتحكّم فيّ أيتها الإسكندرية!

كم سنة مضت وأنا غائب عنك! يقولون: "إن البعد جفاء"، وأنا والله لم أجفُ، ولكن الزمان جفا! تنقّلتُ في ربوع الكرة الأرضية، (لم تبق زاوية بجسم جميلة، إلا ومرت فوقها عرباتي)، ولكن الجميلات عندي، لسن جميلات نزار، بل هن عجائب الدنيا السبعمائة، فلقد طفتُ الدنيا كلها، ابتداء من شلالات النرويج، المنفلتة من بين يدي الله، لتسقط بين غابات داكنة الاخضرار، عبقة الروائح النباتية والطحالبية، ووديان معلقة في السماء، وسَبَتني غيوم تطير في قيعان المحيطات، وتهتُ في صحاري الرمال المحروقة، حيث تسبح الثعابين في أنهارها الباطنية، واستمتعتُ بجمال الحدائق الأندلسية العربية، التي سباها الفرنسيون، وغيروا اسمها، كما يُغيِّرون اسم عائلة الفتاة بعد زواجها، فصارت حدائق فرنسية، وطاردتُ البهارات والعطور والتوابل في طريق الحرير، التي سار فيها العرب المسلمون باتجاه الهند الصينية، وتبخرْتُ مع شلالات خط الاستواء،

ذات الروائح الشبقة في غابات إفريقيا، فَنَبَتُّ شجرةَ مانجا، نهودها الصبيّة دانية في دلتا مصر أم الدنيا. وقذفتني تسونامي الشرق الأقصى إلى سور الصين العظيم، واحتفلت مع الفيتناميين المتحررين من استعباد اليورانيوم المنضّب، فإذا بي أعيش الحفلة اللاحقة على رمال الوطن العربي، المُنَفّض من نفطه الذهبي الأسود. وتجمدتُ لأكون تمثالاً في جليد ألاسكا. وقفزت من برج برلين الدوّار، إلى برج إيفل الواقف في السماء كالرجل المُحدِّق، إلى برج بيزا المائل، ومن تمثال الحرية المنفلتة من عقالها، إلى برجي مركز التجارة العالمي، واللذين "لأمر ما جدع قصير أنفه!"

تنقلت بين كل هذه العجائب وغيرها، فما وجدت مثلك يا اسكندرية في البلاد! وأرجو أن لا تؤاخذيني، فأنا ابن المائة سنة من العمر، قد بدأت أُخرِّف. هل هذا هو عمر الخَرَف؟ لا أعتقد ذلك. فلقد عاشت جدتي أنيسة مائة وعشرين سنة، وكانت " تقرط" الفول المُحمّص بأسنانها التي لم تعرف طبيباً مداوياً! معنى ذلك أنني ما زلت أحتفظ بقواي العقلية، ولكنني عندما أختلي بالمرآة، وأحدق في عينيها، أتنهّد وأعترف لنفسي القابعة في داخلها:

"أنت أيها الخِتيار المُعَتّق، مُخرفِن"!

لم تكن تتصور أيها العجوز أن تعود إلى الإسكندرية عام 2050، بعد أكثر من ثمانين عاماً من مجيئك الأول للدراسة الجامعية! ولكنك تعود متلهفاً لرؤية ابنك **برهان**، ومشتاقاً

لاحتضانه ولشم رائحته، وقلقاً على الفحوصات الطبية لحفيدك الأخضر كنعان، في مستشفى (شنغهاي - الإسكندرية)، الذي ذكرَهُ لك قائلاً: "هذا الفرع (الأوروبي العربي الأفريقي) لمدينة شنغهاي الطبية الدولية للأمراض الباطنية، معظم عملياته الاستشارية والجراحية تتم عن بُعد، بواسطة أجهزة الكمبيوتر. وحتى الإبر الصينية فيه تنغرس بتوجيهات من المركز! "

مائة عام وعام من العمر المُبَدّد. كأنك دخلت هذا العالم من باب، وخرجت منه من الباب الآخر! لم تكن تدرك أنك ستعيش، حتى تصل إلى هذا (الزمن الأخضر)!

كانوا يقولون: "سيأتي على الناس (زمن أصفر)، تهب فيه رياح صفراء، تصبغ الكون كله باللون الأصفر، فتصير فيه الشوارع صفراء، والبيوت صفراء، والأشجار صفراء، والوجوه صفراء، ويهجم أهل يأجوج ومأجوج، صفر اللون، فيُحَوِّلون كل شيء إلى اللون الأصفر! كل هذا تفهمته، ولو في عالم الخيال. وأما أن يكون حفيدك رائداً لزمن أخضر حقيقي، فهذا هو ما لم يخطر لك على بال!

ها هي الطائرة الهيدروجينية (إيرباص 636) تقلك من دبي، فتشاهد من شباكها الصغير بحاراً زرقاء، وصحاري شاحبة، وفي الجو غيوماً بيضاء متسارعة، وأبخرة تغطي الفضاء من حولها، سرعان ما ترتفع شاقة مدى الجاذبية الأرضية، إلى الفضاء غير الرحب. طائرات جديدة تنفلت من

مدى الجاذبية الأرضية، مثل انطلاق الأقمار الصناعية، لتقطع المسافة بين دبي ومطار الإسكندرية الدولي خلال أربعين دقيقة فقط، كما يقول قائدها الآلي.

والطائرة بأبخرة أطعمة ركابها، ومشروباتهم المختلفة الروائح، وعطورهم الفواحة العبير، ممزوجة بروائح فسائهم، تتبدد سريعاً بفعل أجهزة الشفط الفاعلة، تقترب بك من الإسكندرية، بينما شاشات كمبيوترها تُصوِّر وتعرض لك في بث مباشر، مشاهد منطقة الدلتا المعتدى عليها من البحر الدافق، والذي يغمر أرضاً كانت زراعية خضراء، ويكاد يصل إلى **سد البحيرة**، الذي شيدوه حديثاً فوق تفرع ذيلي النيل، اللذَين كانا ضحلين، فحصروهما لاستغلال كل قطرة كانت تختلط سدى مع ماء البحر!

تتقدم الطائرة بجرأة جسور، فوق منطقة البحيرة، وتقترب من شاطىء **أبو قير**(*) الرجل الصبّاغ الحسود الحقود الكسول، والذي ليس له صاحب، سوى ذلك الرجل الطيب (أبو صير)، والذي صاحَبَه في رحلة الغربة، والبحث عن لقمة العيش، فساعده هذا الأخير، وعطف عليه، وأطعمه وآواه، ولكن سبحان الله، "خيراً تفعل، شراً تلقى"! فلقد عانى صاحبه **أبو صير** منه الأمرّات، وليس الأمرّين - على

(*) (أبو قير) المؤلف يكتب الكنية مرفوعة - كما تحكى- بهدف تبسيط اللغة العربية.

ذمة ألف ليلة وليلة- ولكن جشعه قتله، فأعاد أبو صير جثة رفيقه اللعين (أبو قير) معه، ودفنه بعفونته في هذا المكان. وبعد عمر طويل، مات طيب الذِّكر؛ أبو صير، فدُفن إلى جوار (أبو قير).

ولكن التاريخ لا يسجل سوى الشر، فلم يحفظ كرم (أبو صير)، بل حفظ لؤم (أبو قير) وبشاعته، فخلّده مُسَمِّياً الشاطىء الجميل باسمه. ولا أحد في الاسكندرية الآن يحتفظ بذكرى حلوة، أو حتى يعرف شيئاً عن الرجل الطيب (أبو صير). معظمهم يحبون اللعين (أبو قير)! حتى أنت أيها الفاني، هل تكره (أبو قير)؟ بالطبع لا، فأنت تحبها، وتتمنى أن تعود، لتتنسم هواءها الشرقي اللطيف، الحامل معه رائحة ثمار مزارع الجوافا الشهية، وتغرق تغرق في بحرها الهادىء الخجول.

شيء عجيب أن الإنسان لا يخلِّد الطيبين! وإذا لم تعجبك تخاريفي هذه، حدّق جيداً في التاريخ، تجد أن أهم الشخصيات التي تم تخليدها هم السفاحون والمدمِّرون، ابتداءً من الشيطان الرجيم، الذي اشتُهر أكثر من كل الملائكة - ويا للمهزلة - فإن أبشع قتَلة التاريخ نالوا جائزة نوبل، بسبب شدّة قتلهم وبطشهم، وأي جائزة منهن؟ إنها جائزة نوبل "للسلام"! والله لو كانت جائزة نوبل للحرب، كأن يخصصوا لهم - مثلاً- جائزة اسمها (جائزة زيوس) إله الحرب، لكان ذلك ممكناً، وأما أن يأخذها أولئك القتلة

"للسلام" فيا سلام!

ها هي شواطىء المعمورة، وقصر المنتزه، تظهر على شاشتك، مشبوكة مع مدينة الإسكندرية في معمار واحد. وقد كانت أيام صباك متباعدة، تفصل بينها أراضٍ زراعية. وعلى الجهة الأخرى بحيرة مريوط، ومنطقة الملاحات، التي كانت رياحها تذرُّ الملح في العيون، فتبدو على شاشتك، وكأن شيئاً لم يكن! قالوا إنهم قد جففوها، وها أنت تراها مزروعة بالمشاريع المعمارية، وملونة بالحدائق، وفرِحة بالمتنزهات، ومتلألئة بأبراجها البلورية الساحرة. وعلى البعد، ترى مساحات واسعة شاسعة من تشوهات سكنية، لبيوت صفيحية صدئة، متراصة مترامية، في نهايات منطقة البحيرة، يبدو أنها لبقايا الفلاحين والعمال، المتآكلين المعجونين بنفايات مدينة العولمة، والذين لفظتهم وأقصتهم حرية رأس المال، وطردتهم إلى صحاري موحشة بعيدة، وكأنك أمام بانوراما معمارية متنافرة الصور!

وأما المدينة المدللة، المضطجعة شبه عارية بكل أبعادها على رمال الشاطىء، وكلك شوق لأن تغمر وجهك في ثناياها، وتهبط فيها، وتشم رائحة رطوبة جسدها المنساب شرقاً، والهارب غرباً، كجناحي طائر رخ كبير، يصل الشرق بالغرب!

تعلن المضيفة الكمبيوترية للطائرة الهيدروجينية، ذات الأجنحة الأربعة، اقتراب هبوطها، وأنت تمد يدك، فتتناول

حبة دواء مقوٍّ للأعصاب، وتبتلع حبة إكسير الحياة، بينما الناس يتهيأون للوصول، وأحزمة الأمان تنطلق من عقالها ذاتياً، دون أن تشاورنا، فتُزنِّرنا نحن الركاب. وبالونات الهواء الأَمنيّة تنتفخ، فتحتضن أجسادنا لحمايتها من جميع الجهات. تهبط الطائرة، المجهزة بوسائل الأمان والسلامة العامة، وتدرج بنعومة ويسر على أرض مطار الإسكندرية الدولي، فتشعر بأمان الالتصاق بأمِّنا الأرض. الله ما أجمل هذا المطار الجديد!

كنت قد وصلت أول مرّة إلى الإسكندرية عبر مطار القاهرة، في خريف عام 1966، وعمرك سبعة عشر ربيعاً. أول مرة تركب فيها طائرة، كانت من نوع (دي سي3) بمحركين، تعرج بركابها السابحين المترجرجين فوق وما بين وتحت الغيوم. لم تكن تأبه لهزهزات الطائرة المُقلعة من مطار قلنديا في القدس، ولم تحلم أصلاً بأن تركب طائرة ذات يوم، ولم تسمع من قبل إلا بتلك الطائرات التي كانت عائدة متهالكة من انتصارات الحرب العالمية الثانية، والتي لم يبق لديها شغل، فأهدوها لمن لا يخاف الله، فكانت تتسلى بقصف قوافل الفلسطينيين المهجّرين عام 1948، الحاملين أطفالهم بأسنانهم، وهم هاربون من حمم براكين الاحتلال الغاشم، مثل القطط التي تنقل صغارها بأسنانها من مكان الخطر. وبين روائح القتلى المجندلين، أم لطفل رضيع، أطفأتها طلقة قناص، فأردتها قتيلة على قارعة الطريق، والدم

ينزف متخثراً من جيوبها المخردقة، والذباب يدوي على جثتها النازفة، بينما يبقى رضيعها ملتصقاً بها، ويداه متشبثتان بثديها الذي بَرَد، وهو يرضع رضعته الأخيرة التي لم يكملها بعد!

الطائرات المشوهة بدماء الضحايا، تلاعبهم (الاستغمّاية)، ثم تفاجئهم من خلف جبل، وتتمرجل عليهم، فتقصفهم وهم هاربون في الوديان، لتزيد من ذعرهم، وتتعجل التخلص منهم، بإخراجهم من حدود فلسطين الخضراء، إلى الصحاري العربية، ذات الرمال المتحركة!

حب في الرياح القارسة!

هذه الطائرة الهيدروجينية المرفهة، المصنوعة من الورق الخفيف المقوى بنفس صلابة المعادن، تحت سر كون ذرة الكربون الموجودة في الحديد الصلب، هي نفس الكربون- بشكل أو بآخر- الموجود في الورق، تختلف عن تلك الطائرة المعدنية الثقيلة المغامرة (دي سي 3) حيث كانت تجلس إلى جوارك يومها سيدة أوروبية تقرأ كتابها، فتشاهدك مرتبكاً وقلقاً. ولدى الوقوف للخروج من تلك الطائرة، تصافحها مودعاً، فتشم على يدك رائحة عطرها النسائي المثير!

"دونت ويرك هارد." تقول لك باسمة: "لا تعمل بمشقة، فإنك مهما تفعل، فلن تكون الرقم واحد في العالم، ولذلك أرح نفسك، ودع القلق، وابدأ الحياة!" لا تعرف لماذا تقول لك هذا! هل لأنها تحبك، فتتمنى لك العمر المديد، والجهد الهادىء، والتمتع بحياة سعيدة، أم لأنها تريد أن تثبط عطاءك، وتبقيك عربياً متخلفاً عن ركب الحضارة الراكض بسرعة جنونية؟ ليتك سمعت كلامها، وأرحت نفسك من شقاء هذا العمر السريع النضوب! ليتك لعبت وفرحت، رغم المُنَغِّصات!

ولكن كيف تفرح وأنت ابن النكبة الفلسطينية الغابرة؟ كيف تفرح وقد ولدت شقياً داخل خيمة تنفث وهج حرارة الصيف اللاهبة، وتنثُّ رذاذ أمطار الشتاء المتلاحقة، تبرعت بها الجهات الرحيمة المتوحشة الحضارية الديمقراطية العظمى؟

كيف تفرح، وقد عشت طفولة مغمسة بالطين اللزج، تنعجن به في ليالي الشتاء القارسة، وأنت تلعب تحت المطر، بقدمين طفلتين لبنيتين حافيتين، فتحاول التخلص من الطين، بسحب رجلك الغارقة بتثاقل من هنا، لتغرسها هناك، فتجرح قدمَك زجاجةٌ مكسورةٌ، مدفونة في طين قارعة الطريق، أو ينغرس مسمار حديد صدىء في لحمها الطري، أو تزرقُّ قدماك المنتفختان كقطعتي جبنة عكاوية بفعل البرد القارس، ومع ذلك تستمران تائهتين في دنيا الآلام، والمخاط الأصفر المنبعج من أنفك المحمر برائحة عفونة مريضة لا يجد غير الذباب يحتويه، فتمسحه بذراعك؟

كيف تفرح وعذاب العصارات الهاضمة لمعدتك يُسَخِّر أمك زكية، لتدفع لك صحناً فيه حبة بندورة خضراء، مخللة برائحة النشادر، تتوجها طبقة بيضاء من الفطريات المتخصصة بأعمال التخليل، فتأكلها باللهفة والنهم، مع رغيف خبز اقترضَته من جارتكم أم موسى، واعدةً إياها بسداد القرض عندما تخبز؟

كيف تفرح وقد قضيت طفولة كسيرة بائسة، تسير ثابت

العزم في درب المّلايات، تحمل المياه بسطلين ثقيلين من بطن الوادي، وتنقلهما بمشقّة، وتحمُّل مسؤولية إلى الجبل، لتروي بهما نباتات بندورة وبصل وباذنجان وملوخية، كان قد زرعها أبوك في أرض مشاع، وسخّر أطفاله للعمل الشاق فيها، كي يطعمكم من جوع، ويحميكم من خوف؟

تسير في "شارع الضباب" وأنت تحمل الماء الثقيل، ليس الماء الثقيل الذي تستخدمه الإمبراطورية الفالتة من عقالها، لصنع قنابل نووية صغيرة، ترميها على قارعة الطريق، كألعاب طفولية، ليلتقطها الأطفال الأشقياء مثلك، فتنفجر في وجوههم، ثم تتهم من لم يمت منهم بالإرهاب، بل كان وزن سطلي مياه الري ثقيلاً، ولا قدرة لديك على حملهما، ولكن مُكرهٌ أنت لا بطل، فتسير بهما وأنت تشعر بكتفيك الطريتين تنخلعان من مفصليهما، وعضلات ذراعيك اللبنيتين تتمزق، فلا تعود تقوى على المقاومة!

كيف تفرح، وقد قضيت بادرة مراهقتك، مرافقاً لحماركم الأبيض المتضخم بحجم البغل، تنقل عليه - بأوامر والدك المشددة - مستلزمات الزراعة، وتحرث الأرض، وتدرس أكوام القمح الذي جمعتموه على البيدر، فتوفرون مؤونة السنة كلها، ولا تعودون تحتاجون أرغفة جارتكم أم موسى، ولا أم عيسى، ولا حتى أم محمد؟

مع أذان الفجر، يوقظك أبوك بالقوة، فتقوم وكأنك وحيد في هذه الدنيا، آدم بلا حواء. هل كان آدم مراهقاً عندما نزل

إلى الأرض برفقة حواء، أم كان رجلاً بالغاً عاقلاً، عارفاً ما له، وما عليه؟ وهل صحيح أن آدم وحواء كانا قد نزلا إلى الأرض بمركبة فضائية من تلك الأطباق الطائرة التي يتحدثون عنها، قادمين من كوكب آخر، ونظراً لخلل فني في مركبتهما، علقا على الأرض، فلم يستطيعا العودة إلى كوكبهما البعيد، فقعدا على هذا الكوكب، ملومَين محسورَين، وبقي أحفادهما حتى يومنا هذا ينفخون، مُعقّدين، مكتئبين، مكفهرّي الوجوه، ولا يشعرون بالسعادة مهما امتلكوا، بسبب غربتهم عن وطنهم الأم في المكان البعيد؟

تقوم من نومك، وكأنك آدم القادم من كوكب بعيد! وهل فلسطين كوكب آخر بعيد عن الأرض، وأنت قادم منها وحيداً؟ وهل تحطم طبقك الطائر هنا، فيعاملونك يا غريب الدار...؟

تقوم فجراً باتجاه الزريبة، فتشاهد جحشك يبول على روثه الذي تتدخل روائحه النشادرية المتخمرة من أنفك إلى تشعبات رئتيك وأنت تُصبِّح عليه، ثم تخرج القوي الأمين، وترافقه إلى طريق الأشغال الشاقة! ولأنك بلا رفيق، تجدك تتحدث معه، وتشكو له همومك، فينظر إليك متفهماً موقفك، وتضحك معه ساخراً من هذه الحياة الخرافة المجنونة، فلا تجد سواه متضامناً معك ومع الشعب الفلسطيني! تمسك بلجامه، وتسير معه بنفس مهزومة، بكل ثقة وثبات! هل سبق وأن شعرت بنفس مهزومة تسير بكل ثقة وثبات؟

تسير برفقة جحشك العزيز، بصفته الرفيق الأكبر، تحدثه، تسري له عما في قلبك من محبة مكبوتة. يعطس في وجهك، (أبرررررا!) فيرشُّك برذاذ لعابه الرغوي، ورائحة التبن المخمّر بين شدقيه. لو كان إنساناً، لغضبت وزمجرت ثائراً عليه، ولكن رذاذه نظيف! على الأقل، هو لا يلوِّث فمه باستغابة الناس وأكل لحومهم، ولذلك فعطسته، عطسة ابن حلال! يحدثك عن همومه، فتغضب لشدة تعبه، ولكنك تتقاتل معه إذا حاد عن الطريق، ثم تفرح معه إذا شاهد حمارة جميلة مارّة، فعاد خلفها من حيث أتى، ليعبِّر لها عن حبه وهيامه. وإذا شاهدك والدك تتركه ينفلت من عقاله، فإنه يجحظك، فتمسكه من لجامه، وتثنيه عن الغي والطيش، وتسأله مبتسماً:

" ألا تستحي على دمك، وأنت حمار كبير قد البغل؟"

لم تفهم يومها لماذا كنت تفرح للحب، حتى لو كان بين حمار وأتان، ربما لأنك لا تحس به بين الناس. فالناس لا يحبون بعضهم بعضاً. إنهم يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، وأما حمارك الطيب هذا، فلا يسفك الدماء، بل يحب أتانه! كنت تراقبه وهو يكسر الحواجز، وكأنه في سباق فروسية القفز على الحواجز، كي يصل إلى خدرها، فيعانقها بلهفة، ويحكُّ رقبته برقبتها وهي تبتسم، ويستمتع للحظات وهو يسعدها، وهي تسترخي أمامه تتشدق. من قال إن الحمار لا يعرف الحب فهو لا...

منذ ذلك اليوم تصلّب عودك على الخوف من درب

البنات. "درب البنات شوك!" تقول لك جدتك أنيسة. وأما أمك زكية، فلم تكن تتكلم أو تنطق شيئاً، (صمٌّ بكمٌ، لا يفقهون، ولا يعلمون!) بلى لقد كانت زكيّة ذكيّة، وتفهم الحب والحياة، شعرت بذلك عندما قالت لك ذات يوم مثلاً شعبياً بجهالة. لم يسمعها والدك آنذاك، لأنه لو سمعها، لشطبها من سجلات الدنيا، واعتبرها في خبر كان! يومها قالت:

"اللي بدّه يبوسني، بيعرف راس خدِّي وين." ففهمت منها أنها كانت تعرف الحب والبوس. ولكنها لم تكن تعرف أن القُبلة قد انتقلت من رأس الخد، إلى الشفتين، وإلى مناطق أخرى غير مصرح بذكرها! كانت لديها معرفة، مع وقف الإفتاء، فلقد حددوا لنا سيدنا المفتي رسمياً، ولا يفتي إلا المفتي، الذي يُفَتتنا بفت فتاواه!

والدتك زكية لا تتدخل لأنها (لا تأكل الفَتّ، قد اللّط!) وأبوك يضربها (عالباردة والساخنة!) فصارت- تحت التعليمات المشددة- مبرمجة تلقائياً؛ تصحو من الأذان، فتعجن العجين، وتطفىء السراج المُدَخِّن، وتقتصد في كاز السراج، رغم أن سعر النفط لم يكن غالياً في تلك الأيام. كان برميل النفط بخمسين سنتاً. الله أكبر! البرميل الكبير بنصف دولار؟ صحيح أن تجار نفطنا العرب "مُرّون" في التجارة، وطالعون لأجدادهم، تجار ألف ليلة وليلة، الذين

كانوا يركبون البحار، ويصارعون الجان، ويسخِّرون الرُّخّ في السماء، وبالرغم من تكرُّر ضياعهم، وتقطُّع المحيطات بهم، إلا أنهم يعودون كاسبين غانمين الجواهر والألماس من قيعان البحار. يعودون وقد نشروا إسلامنا بالتجارة والمحبة في بلاد الشرق والغرب، وليس بالحرب القذرة التي تخوضها الإمبراطورية الفالتة من عقالها ضد إسلامنا. وبصدقهم وأمانتهم وتقاهم، اعتنق الأندونيسيون والماليزيون الإسلام، الذي يحض على إطعام المسكين، والذي يقول- بعكس مقولة الرأسمالية المتوحشة - إن المُلك لله. شتان ما بينهم وبين تجار نفطنا العرب "العظماء"، الذين يبيعونه ويبيعوننا بالرخيص، وأحياناً تفتح أنابيب نفطنا العظمى، فتعبىء لهم قلوبهم ببحور من النفط الأسود مجاناً، دون عدادات، لعلهم يطفحون! رجال "غانمون"! ليس هذا ما قالته إذاعة صوت العرب من القاهرة. ولكنها قالت: " نفط العرب للعرب، يا بنشعله لهب!" ثم قالت: "ارفعوا رؤوسكم يا عرب". فلم يرفع أحد رأسه! حتى أنت أيها (اللاجىء) المحاصر من جميع الجهات، لم ترفع رأسك أمام زملائك الطلاب القرويين "الوطنيين" في مدرسة الفاضلية الثانوية في طولكرم، وهم يتوجهون ليتغدوا في مطعم الثور، المُطل على ساحة سفريات المدينة. " اليوم سنأكل صينية لحم كفتة بالبندورة". يقول أحدهم. "آه ما أشهى رائحتها بالبندورة!"

" الكفتة بالطحينة أشهى"، يعترض آخر. "فرائحتها ترد الروح، خاصة عندما تخرج ساخنة ناراً من الفرن!" وبعد محاورات ومداولات، يدخلون مطعم الثور، متفقين على أن يكون نصف الصينية بالطحينة، ونصفها الآخر بالبندورة. وأما أنت أيها المُبهم، فلا تجد أمامك سوى أن تلبس طاقية الإخفاء، وتخلع بعيداً عنهم، متسرباً إلى خلف المطاعم والمحلات التجارية، بحركة من يقتفي أثر الرائحة المنبعثة من مراوح تهوية المطابخ، التي تتكاثف على شفراتها شحوم سوداء وهي تنفث إلى الشارع سموم دخانها وأبخرتها، ساحباً رغيفك الذي طوته لك أمك وحشته بين كتبك داخل حقيبتك الكرتونية، وأنت تصل إلى بقايا بائع يقف على ناصية الشارع بصاج فلافله المتقلقل فوق نصب حديدي صدىء، وبزيته القطراني السواد، الذي يغلي منذ نصف قرن، وتشتري ثلاث حبات فلافل بنصف قرش، فتمعسها على الرغيف، ثم تلفُّه هكذا.. وقبل أن تجلس على حافة الرصيف، تلتقط كرتونة تائهة في غبار الشارع، فتضعها تحتك، ليس احتراماً لمؤخرتك العزيزة، بل كيلا يتسخ بنطالك بفضلات الزيت الشحمي المحروق المتساقط على الرصيف، وتقعد تنهشه بشغف الجوع، لا بشراهة اللذّة، متزفراً برائحة مرجل زيت الفلافل الذي يغلي، ويطرطش الأرض!

كيف تفرح وقد كان أبوك يعطيك قرشين كل يوم –

مصروفك اليومي- وأنت ذاهب من المخيم إلى المدرسة، لتدفع نصف قرش لحافلة (طبالو) في الذهاب، ونصف قرش في الإياب، إلا أنك كنت توفر القرش، وتذهب مسافة أربعة كيلومترات سيراً على قدميك المتهالكتين، وتعود أربعة كيلومترات كما جئت. وكل ذلك، لتوفر ما تشتري به مجلة العربي أو مجلة الآداب في نهاية الشهر، وتحضر فيلماً لعبد الحليم حافظ، وزبيدة ثروت، فتتعرف على الحب، ولكن مع وقف التنفيذ، فتتعقد من جديد!

تستمع إلى أحاديث زملائك الطلاب المدنيين وهم يتغزلون بالبنات الجميلات، ويحكون قصص الحب والغرام، بينما أنت وحدك تفكر، كم أنت قميء وأنت لاجيء تعيش بلا حب!

تشاهد تلك الطالبة السائرة أمامك تحت زخات مطر غزير، من المخيم إلى مدرستها في طولكرم، وبينما مظلتك السوداء تحميك من المطر، رحت تفكر برحمة تلك المسكينة، السائرة بلا مظلة ولا معطف ولا حتى سترة تحمي جسدها الملفوف بثوبها المدرسي الأخضر! المطر الشديد البرودة كالرصاص يخترق جسدها النحيل، ولكنها مستمرة تتأرجح في سيرها، مثل عسكري منضبط يسير إلى الأمام داخل حقل ألغام، تحت الأوامر الحربية المشددة! أنت لا تعرف حتى اسمها، وبرغم هذا تجدك تقترب منها، وتعرض

عليها أن تسير إلى جوارك تحت المظلة، فتجفل الطالبة وتبتعد خائفة، وتستمر في سيرها تحت المطر الغزير! تشعر بعنادها، ولكنك تشفق عليها، فتعطيها مظلتك، بينما تبقى أنت مكشوفاً تحت المطر الشرس. تضحي بنفسك من أجلها، رغم رفضها الاقتراب منك. تشعر أن الفتاة لا ترغب في معاندتك، ولكنها تخاف من المجتمع الذي لا يرحم. فإذا بلّغ أحدهم، وقال: " كانت فلانة تسير مع مشهور في طريق طولكرم، " فإن الدنيا ستقوم ولا تقعد! ذلك لأن الناس القاعدين بلا شغل ولا عمل - وهم كُثر- لا يجدون شيئاً يفعلونه سوى القال والقيل.. و(يا بنت قولي لأختك) فالفضيحة ستدمر البنت. و(غُلب وستيرة، ولا غلب وفضيحة!) تأخذ البنت المظلة، لأنها تكاد تموت من شدة البرد، والماء يتدخل في كل شؤونها الداخلية، فيَسحُّ برداً وصقيعاً على جسدها المغدور، فلا تملك أكثر من أن تشعرها بمودتك ورحمتك. تبحث عن العطف والحب الإنساني الذي لا يمنحك إياه أحد، فتحاول أن تتذوقه، وتتعامل به، وتمنحه إلى قارعة الطريق.

ومثل البحارة الأندلسيين العرب، الذين كانوا يواجهون أخطار عواصف المحيط الأطلسي، بحثاً عن طريق بحرية غربية إلى الهند، ورغم وصولهم إلى شواطىء بلاد المايا، التي صار اسمها سانت أوغستين فيما بعد، وبنائهم قصوراً

هناك مثل قصر زريدة، وتشييد مساجد على الشاطىء، فإنهم لم يحققوا اعتراف كتب التاريخ المزوّرة بمغامراتهم الثاقبة في اكتشاف العالم الجديد.

وهكذا أنت، فبالرغم من تجمد خلايا جسدك وأنت تضحي بمظلتك، لم تعترف الطالبة المنقوعة بماء المطر البارد بحبك، فأدركتَ أن ليس للحب مكان في هذه الرياح القارسة!

أفعى أم جرس!

هل ينجح جيل كنعان الأخضر في ليِّ أذرعة شرور الإنسان ضد أخيه الإنسان؟ هل أنت في حلم، أم في علم محقق؟

تقارن هذا المطار السكندري المدهش الذي تنزل فيه مع مطار القاهرة الذي نزلت فيه أول مرّة، وقرأت يومها ما هو مكتوب فوق مدخله: "ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ." فارتحت لما تقرأ. وبعد صف طويل أمام حاجز الأمن، ختمت جواز سفرك، وحملت حقيبة أغراضك البنية الكرتونية، ذات الزوايا المعدنية، فلم تعرف طريق الخروج من المطار، ولا مكان ركوب سيارة أجرة، تقلك إلى مدينة القاهرة. خرجت يومها تائهاً في الزحام، فوجَّهك أحد سائقي الأجرة لتركب سيارته الصغيرة السوداء، المكوّرة مثل سلحفاة. يدير السائق مفتاح محركها، فلا يشتغل، فيخرج منها، ويحاول دفعها بكل ما أوتي من قوة ضعيفة، فلا تتنحنح السيارة! يلاحظ شرطي استماتتها في المحطة، فيتكرّم بدفع العربة، بينما نحن في داخلها، فيشتغل محركها! ما هذا؟ شرطي، ويخدمك بأن يدفع لك سيارتك! أنت متعود

على مقولة: " الشرطة ورطة! " ولكن هذا الشرطي في خدمة الشعب! تخجل من الرجل الكريم، ولا تعرف بماذا تجازيه! كنت قد سمعت أن التفاح الشامي عزيز في مصر المشهورة بالمانجا والجوافة والبرتقال الشهي. فتخرج يدك من شباك الصرصار الأسود، ماداً نحوه تفاحة حمراء. يفرح الشرطي بها، ويشم رائحتها العطرية فيشكرك، وتمضي بك السيارة إلى فندق لا تذكر اسمه! قد يكون اسمه فندق القاهرة. وقبل أن تهمد في غرفتك المنعشة، تفتح حقيبة أغراضك، فإذا بها ليست لك، إنها من الخارج الحقيبة الكرتونية البُنِّية نفسها، المدعمة بزوايا معدنية، والملاحظ أن معظم حقائب الركاب هي من هذا النوع. يبدو أنه لا أحد معك في الطائرة يستخدم حقيبة سامسونايت أو سامسونغ.. وحتى العم سام نفسه كان محجوباً عن مصر في تلك الأيام! ولكن الحقيبة الكرتونية ليست نفسها من الداخل، فملابسك وأغراضك غير هذه الأغراض! ماذا تفعل تجاه هذه الغلطة؟ ليس أمامك سوى أن تهاتف استعلامات الفندق. ترفع السماعة بحذر، وتعرض مشكلتك على موظف الاستقبال، فيقول لك: "سأوصلك باستعلامات المطار."

تتصل بموظف حقائب المطار، فيتفهم مشكلتك، ويعدك بالحل السريع. وما هي سوى ساعة وبعض ساعة، إلا وصاحب الحقيبة المبدّلة يحضر حقيبتك، ويأخذ حقيبته، والأمور تسير ببساطة لم تتوقعها.

تطل من شرفة غرفتك الفندقية العالية، فتدهش لهذه العمارات القاهرية المتفاوتة الأطوال والأحجام. تراقب هذه الحشود من المشاة، التي لم تكن تتوقع غزارتها. ولد في السابعة عشرة من العمر، ينتقل من المخيم إلى القاهرة مرّة واحدة! من سراج كاز يضنُّ بالنور حتى على من حوله، ومن ليل مخيف ليس فيه ضوء قمر.. تمد يدك في ليل المخيم البهيم، فلا تراها! لم تنقطع خطوط الشبكة الكهربائية، ولم يحصل عطل في المولِّد كي تسوَدّ الدنيا في وجوهنا، فلا توجد أصلاً في المخيم شبكة كهرباء كي تُقطع! طرقات ترابية متعرجة ضيقة بين صخور معتمة! لا يعترضك وأنت تسير فيها سوى هذه الأفعى أم قرون، أو تلك الأفعى أم جرس، فتكهربك وهي تنساب بدل التيار الكهربائي، مطارِدةً فأراً يركض مرعوباً، فيختفيان تحت أجمة نباتات صبارات شوكية عالية، تُسوِّر بيت كل لاجىء! حالة شوكية للدفاع عن النفس!

لا يملك أي لاجىء سيارة، كي يطالب بشق طريق، أو مجرد تجريف طريق دون تعبيدها، ليصل بها إلى بيته، فالطرقات الصخرية الضيقة داخل المخيم التِفافِية، ومنذ ذلك التاريخ والطرقات الالتفافية تتطور، وتنتشر وتتضخم أوداجها، وتتَلَيّف في ربوع الوطن، مثل مرض تليُّف الكبد، فتصير فلسطين كلها مصابة بمرض تليُّف الطرقات الالتفافية، تعربد فيها الأفاعي أمهات قرون، والأفاعي أمهات أجراس! (ولَفّتّك، ما لَفّتّك. أطعمتك خرا ستّك. ستّك البطباطة.

قعدت عالبلاطة!) لماذا تضحك عليّ وأنا أُحتَضَر؟ هكذا كانوا يغنون لنا نحن اللاجئين، لنفرح بطفولتنا!

تنتقل من تلك العتمة الالتفافية مباشرة إلى كهرباء تقلب الليل نهاراً، ونيل مثل البحر، ومدينة غير عادية، إنها قاهرة صوت العرب!

كان أبي يجمعنا تحت اللحاف، ويفتح المذياع بخفوت على صوت العرب من القاهرة، كي لا يسمعنا أحد، فنسمع خطب جمال عبد الناصر سراً، ونبتهج بانتصاراته في بورسعيد! فينتشي أبي صائحاً:

"يا إلهي، مصر تهزم عدوان بريطانيا العظمى، ومعها فرنسا وإسرائيل! وأخيراً جاء دورنا في تحقيق الانتصارات بعد عهود من النكسات المتتالية!"

أبي المحزون دائماً بكآبة النكبة، كان يفرح ويبتهج وهو يشاهد صور القائد العربي العملاق في مجلة المصور ومجلة آخر ساعة، المعروضة خارج مكتبة السفاريني في طولكرم، فنتصفحها ولا نشتريها، نظراً لعدم توافر السيولة النقدية، وهو الذي لا يقرأ، يُملّي نظره من الزعيم الذي يقف بعظمة وكبرياء وفخامة، مثل باقي قادة خلق الله، إلى جوار خروتشوف، فوق جسم السد العالي، ويقول لك: " انظر! انظر! أليس لنا يوم نفرح فيه، ونشعر أن لنا قائداً يرفع رأسنا، وهو يقف كتفاً لكتف مع قادة العالم، وليس....!"

كنتَ تفرح بعبد الحليم حافظ وهو يغني:

"قلنا حنبني، وآدي احنا بنينا السد العالي، ويا استعمار بنيناه بإدينا، السد العالي!"

وبالنسبة إليك شخصياً، فلولا سماح عبد الناصر للطلبة العرب بالدراسة في مصر، دون تمييز عن إخوانهم الطلبة المصريين، لما استطعت أيها اللاجىء دخول الجامعات من أصلها، فعندما درّست ابنك برهان فيما بعد في ألمانيا، دفعت عليه الشيء الفلاني، حتى تخَرّج، وصار مهندس وراثة، وبذكاء منهم، شغّلوه معهم هناك، كي يحرموه من العودة وخدمة بلده. ولكن أي بلد يخدم؟ فأين هي مختبرات الهندسة الوراثية في كل أصقاع الوطن العربي الكبير، من المحيط الـ. . .إلى الخليج الـ. . .؟! فمثل هذا الخرِّيج الضالّ عند العرب، قد يشغلونه في أحسن الأحوال، معلم مدرسة صف خامس ابتدائي في قرية النفوخ الغربي. وأين تقع النفوخ الغربي؟ فأنت لا تعرف الشرقي ولا الغربي! (رُح يا شيخ!)

درب البنات شوك!

بينما تهبط الطائرة الهيدروجينية بكل خفة وهدوء في مطار الإسكندرية الحديث، تشاهد من علٍ عدداً كثيراً من الطائرات الورقية ينتشر في أرض مطار مترامي الأطراف. كانت الطائرات الورقية أيام طفولتنا مجرد أوراق مربوطة بخيوط، نلعب بها ونطيرها في الهواء، وأما اليوم فالطائرات العملاقة صارت ورقية، ولكن بصلابة الفولاذ.. وأنت لا تفكر في المطار، ولا في كيفية تقوية ذرة الكربون في الورق كي يصير بمتانة ذرة الكربون في الفولاذ، ولا في خفة وزن الورق الذي تصنع منه الطائرات الحديثة بدل المعادن، بهدف تقنين استهلاك معادن الصلب التقليدية، التي لم تعد متوافرة في العالم، ولا يهمك الآن ما يطورونه لتخفيف وزن المركبات وعلى رأسها الطائرات، لتَمنح خفتُها بساطةً في الصناعة، وسرعةً في الطيران، وتوفيراً في الطاقة، بقدر ما تفكر في لقاء **برهان وكنعان الأخضر** الصغير بفارغ الصبر.

ترى هل تنجح عملية التخضير هذه، فيسيطر **الحيوان الأخضر** على هذا الكون الحيواني المتوحش؟ هل تشاهد مرحلة انتقالية جديدة، بعد **الإنسان الأول**، الذي تحضّر

فانتقل إلى مرحلة الإنسان الثاني، وها هو بعد أن توحشت حضارته، ودمرت الأرض، تراه يتشكل بتكوينه الأخضر، فتشهد مرحلة الإنسان الثالث الأخضر؟

عندما كان برهان صغيراً، كنت تقرأ له كتاب (النبي) لجبران خليل جبران، وما زلت تذكر بعض عباراته التي تقول: "لو نقدر أن نعيش على عبير الأرض، فنكتفي بالنور كالنبات. ." وكانت تدهشك عبارة " وليس دمنا سوى عصارة، أعدت منذ الأزل، غذاءً لشجر السماء. . "وتستوقفك عبارة " أنا كرمة مثلك، وستُجمع ثماري وتُحمل إلى المعصرة. . " وتعشق جبرانِ الذي يغسلك بعصير العنب وهو يقول: "يا ليتكم تنشدون بعضكم ككروم العنب، ثم تعودون حاملين عطر الأرض في طيات أثوابكم. " ثم يختم بقوله: "ولكن هذه تمنيات لم تحن ساعتها بعد. " يبدو أن الفكرة قد عششت في ذهن برهان منذ الصغر، وحان وقتها الآن، فأنتج ولده الأخضر كنعان.

لا شك أن حفيدك يحظى برعاية أبيه، وأن مؤسسات عملاقة تجري خلفه، لتنشئه بأفضل ما يمكن، وتقدمه إلى هذا الكون المتحول إلى الخضرة.

تقارن تعاستك مع رعايته، عندما كنت في سنّه، فعند دفع رسوم المدرسة، كان المحاسب يقول: "لا تأخذوا منهم رسوماً، لأن وكالة الغوث تدفع رسوم هؤلاء الـ. . من منكم لاجىء، كي نسلمه كتب المدرسة بالمجان؟"

ينادي بأعلى صوته، أمام كل الطلاب المصطفين صباحاً في ساحة المدرسة، فلا ترفع رأسك، كي لا تُعرِّي فضيحة نفسك، رغم أن صوت العرب من القاهرة يصيح كل صباح مثل ديك ألف وليلة: "ارفعوا رؤوسكم يا عرب!" وكنت يومها تتساءل: هل العرب لا يرفعون رؤوسهم، لأنهم لاجئون؟ وهل يرحل العرب بخيامهم من عسف رمال إلى غبار فضاء، لأنهم لاجئون؟ وهل يركض العرب في متاهة خيام ميسون الكلبية التي قالت: (لبيت تعصف الأرياح فيه...) لأنهم لاجئون؟

أنت لاجئ مستضعف، مستكين بظلِّ ذُلِّ وكالة الغوث، التي أخذت منك الوطن، ولحقت بك، لتعطيك خبزك، كفاف يومك، بينما من يدّعون وراثة يوسف، يودعونك في غيابة الجب! لا أحد يرأف بحالك، سوى ذلك الذي شرّدك من وطنك، وجعلك أحد نمور زكريا تامر في اليوم العاشر.

وأنت تستغرب هذه اللعبة القذرة، التي يلعبها القط مع الفأر، فبعد أن ينقض عليه ويحطم مجاذيفه، يستمتع بملاعبته السادية، فيتركه يفلت من بين يديه.. حركات دراماتيكية مذهلة.. ملهاة سوداء..أنت لا تعرف لماذا يتركه وهو طوع بنانه، بينما يركض"المسكين" على الأرض هارباً من قدره المحتوم، قبل أن يلحق به "المجرمُ" ويُعِيدَ التقاطه وعضعضته، ثم يتركه ليستمتع بآخر بصيص ضوء حياة، قبل أن يتناوله ويزدرده. وهكذا تلحق بك الجهات المانحة، وأنت تركض أمامها مذعوراً!

لم يكن في عشرينيات وأربعينيات القرن العشرين تلفازات

ولا مراسلو صحف، كي يصوروا تعذيب وقتل الفلسطينيين المقاومين لاقتلاعهم من مدنهم وقراهم، ويفضحوا المستعمرين الذين يُسَيِّرونهم حفاة عراة فوق الأشواك القاسية السامة، لألواح الصبار الشوكي، كي يعيدوا تصنيعهم، وتعبئتهم وتغليفهم، للتصدير إلى خارج الوطن!

"سنُنَيِّمكم في فلسطينكم هذه على سُرُرٍ من شوك الصبّار!" يقول المستعمِر لمن لم يُقتلوا، فبقوا متشبثين بتراب أرضهم: "ما لكم وهذا العذاب؟ هاجِروا إلى (بلاد العُربِ أوطاني!)، واتركوا هذه الفلسطين الصغيرة للمساكين الهاربين من بطش هتلر!"

الإمبراطوريات المتحدة ضدنا، هي التي اعتمدت قتل دولة عريقة، وخلق دولة جديدة مكانها على سطح الكرة الأرضية، وأنت الذي دفعت ثمن كل هذا التعديل الوراثي، بحيث يُستبدل الفلسطينيون العرب بغرباء من بقاع الأرض كافة، هكذا بقدرة قادر! يقولون إنه الرب الذي وعد بإعطائهم أرضاً كنعانية ليست لهم، ولغة كنعانية ليست لهم، وهيكلاً كنعانياً ليس لهم. ونجمة كنعانية ليست لهم! ولم لا؟ إنهم جماعة الرب(*)، ونحن جماعة وكالة الغوث!

(*) الكتاب المقدس (10 الرب يعطيك مدناً عظيمة جيدة لم تبنها، وبيوتاً مملوءة كل خير لم تملأها، وآباراً محفورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تغرسها، وأكلت وشبعت. " تثنية 5، 6/ صفحة 216". (نقل وتدقيق شركة المخابرات الخاصة)

تسير خافضاً رأسك، ولا تفتح عينيك في أحد! فأنت لا تفكر مجرد تفكير في مغازلة إحدى بنات مدرسة (رابعة العدوية الثانوية) القريبة من مدرستنا، إنهن بنات جميلات، دلّوعات، يلبسن تنورات قصيرات، تنحسر عن ركبهن الجميلات بشبر أو بشبرين، فتُظهر إغراء امتلاء أفخاذهن الطافحة بأنوثة مراهقات شهيات! وأنت لا ترفع رأسك، ليس مناكفة لصوت العرب، بل لأنك لست مؤهلاً لمشاهدة جماليات النهود الطافحة بالعطاء والدفء والمحبة، والملهبة لمشاعر الصغار والكبار. وأنت محروم حتى من شم تلك الرائحة الأنثوية المحظورة، ومحجوز بحدود رائحة الفلافل، التي تقلى في مرجل يفور بزيت القطران. فكيف لك أن تتذوق جماليات أجساد البنات الزهريات المحفوفات المنتوفات، المصبوبات في قوالب إلهية، ويسرن بين الناس؟ أنت لا ترفع رأسك، لأنك لا تملك ثمن وردة جورية عطرة، تهديها إلى بنت من بنات رابعة العدوية، فتدفن رأسك في رائحة أوراق مجلة العربي- يا حزين- وتدهش إذ تشاهد على غلاف صفحتها الأولى صورة إحدى جميلات هذه المدرسة. إن وجهها آية في الجمال. براءة طفولية ناضجة الأنوثة. سحر امرأة لا يصدق! من أين أتوا بهذا الملاك الطاهر؟ تقرأ ما هو مكتوب تحتها: "طولكرم، المدينة التي تنام مع غروب الشمس!"

تستمر في محاولاتك منح حبك وعشقك إلى شيء

أنثوي، فلا تجد غير العارضات الجميلات المصورات بالألوان الطبيعية على لوحات دعائية لعطور، أو صابون أو نيفيا كريم، أو ما شابه ذلك، فتعلقها على جدران غرفتك. أنت أجبن من أن تقف مع فتاة، ليس لأن "درب البنات شوك" كما تقول لك جدتك أنيسة، بل لأنك تتوقع أن تسألك فتاتك: "من أي حارة من طولكرم أنت؟" فتخزى أن تقول لها: "أنا من المخيم." فلا تجد غير الكتاب، تدفن رأسك فيه. ولهذا تتوطد علاقتك مع الكتاب، وتتفهم معنى كونه خير جليس.

كان مقرراً علينا في المطالعة المدرسية مقطعٌ من مسرحية قيصر وكليوبترا لشكسبير، وكما تتذكر، يئن يوليوس قيصر قائلاً بحزن: "حتى أنت يا بروتس!" ثم يقول بعد ذلك: "أأنا نعجة جرباء؟" وهذا رفيقنا الطويل في المدرسة، رسمي الصومعة، الذي كان معتاداً أن يمد رأسه برقبته الطويلة، فناداه الأستاذ سليم البزق قائلاً: "أنت يا صومعة!". فراح قوله لقباً!

يقف رسمي الصومعة أمامنا، ونحن نتجمع في حر الصيف، ونقعد ساهرين خلف بيتهم، وهو يمثل الدور المسرحي، ويُشَبِّر بيديه، ويطوي ساقيه، ويشهد بسبّابته قائلاً: "حتى أنت يا بروتس. (أبياخ!) أأنا نعجة جرباء، داهنها جارنا أبو سليم بزيت قطران محروق؟" كان يضيف من مُخِّه عبارتيّ (أبياخ، وجارنا أبو سليم، وزيت قطران محروق.)

فيضحكنا جميعاً نحن أبناء المخيم، الذين لا مسرح لنا إلا خلف شباك بيت رسمي الصومعة، الذي بنته وكالة الغوث.

ولو يَسمعنا شكسبير نقول: (أبياخ)، فسيرفع ضدنا دعوى تشويه الملكية الفكرية، مطالباً بعشرة مليارات يورو من الخَطّاء رسمي الصومعة، على تلك الغلطة الفظيعة! ولم لا يدفعون؟ أليس عندهم نفط كثير، يجعل الشكسبيريين يبتزونهم، ويغرِّمونهم على سقوط صقر من السماء، انتهى أجله، فيتهمون "الإرهابيين العرب" بقتله، فيدفع أولو الأمر "الكرماء" عشرات المليارات، بسهولة ويسر، بينما ينام أطفالهم داخل بيوتهم الصفيحية، جائعين، مطيعين لأولي الأمر منهم؟!

تمشي في طرقات المدينة، وأنت تنأى برأسك بعيداً عن رؤوس أهاليها، وتقول لنفسك:

"أأنا نعجة جرباء!"

طائرة ألف ليلة وليلة!

تتوقف الطائرة الهيدروجينية الرباعية الأجنحة في مطار الإسكندرية الدولي، فتستفسر من كمبيوتر مقعدك. فتجيبك الشاشة الناطقة: " صممت الأجنحة الأربعة لتعطي توازناً أفضل، وهي تحمي أكثر في حالة حدوث مشكلة في الحارق الهيدروجيني لأحد الأجنحة، وفكرتها مأخوذة في الأصل من بعض الطيور العملاقة، في رواية ألف ليلة وليلة. "، فتسألها مازحاً: "هل هذه هي إحدى طائرات ألف ليلة وليلة المدهشة؟" فتضحك المرأة الكمبيوترية قائلة: "مهما طوّرنا، فلن نستطيع تنفيذ خيالات ألف ليلة وليلة الرائعة. هل قرأتها؟ "

تنزل مع القادمين إلى حيث ستستلم حقيبتك وأنت تكلم نفسك قائلاً: هل نلتقي يا برهان في الوقت المحدد؟ أنت تضبط ساعتك على مواعيد الطيران الأوروبي. وبرهان منضبط في مواعيده، كما في عمله، ولهذا السبب قدّره الجماعة، وشغّلوه في معامل الجامعة. وعندما بدأ الشغل. قال لك بصوت مقبوض: "لقد ابتدأت يا والدي أعمل بوظيفة مساعد عامل في المختبر. أُنظِّف أنابيب الاختبارات، وأمسح

الطاولات" . فأجبته بأن العمل ليس عيباً، خاصة إذا كان أمامك هدف إكمال دراستك الجامعية. فأحسستَ بفرحِهِ ينساب في شرايينك عبر سماعة الهاتف وهو يقول: "ولكنني صرت أتدخل في شؤون الأنابيب، وأحضِّر البيئات المنوي العمل بها، وعندما استتب الأمر، صرت أساعد الفنيين على تحضير المادة، مجال البحث."

وعندما انتبهوا لذكائه، عيّنوه بوظيفة مساعد باحث في المختبر، فأخذ فرصته لدراسة الماجستير! خمس عشرة سنة مرّت مرور السلحفاة منذ غادَرَنا، حتى حصل برهان على الدكتوراه من جامعة هيسن الألمانية. وعندما أعلن معهد هيسن للهندسة الوراثية عن حاجته لباحثين، قدّم طلباً للالتحاق بالمعهد، فقبلوه.

"بدأت أستغرق في العمل يا أبي. ونظراً لشعوري بالغربة وبالتمييز، رحت أولج الليل في النهار في أبحاث متتالية، لأثبت لهم أنني مؤهل لمنافستهم، لا بل والتفوق على الكثيرين من زملائي في المعهد! نتائج أبحاثي المخبرية أدهشت أساتذتي!"

وبعد خمس سنوات من العمل الدؤوب، عينوا له مساعدة بحث، وكانت خريجة ماجستير في الوراثة.

"الفتاة مطواعة وخدومة وبريئة ومندفعة بقوة" يُعرِّفك عليها: "إنها مخلصة في تقديم كل ما لديها؛ أبحاثها، دراستها للدكتوراه، أخلاقها، جمالها الأخاذ، تميُّزها عن

الأخريات في كل شيء." وإذ ينتبه لكونك راضياً، يضيف متشجعاً:

"صرت أذهب معها إلى المطعم، أراقبها وهي تأكل، تلحق بشوكتها وسكينها آخر حبة أرز، تتناولها، وتنظف صحنها. فأقول لها: لماذا تنظفين آخر حبة أرز في الطبق؟ هل كل هذا اقتصاد في النفقة؟ فتجيب وهي مبتسمة: لدينا في ألمانيا القدرة على توريد ملايين الأطنان من الطعام، ولكن هناك شعوباً لا يصلها الأرز، ويجب أن لا نرمي الطعام في حاويات القمامة، كي تجد الشعوب الأخرى فائضاً تأكله!

تفرح لفرح برهان، فتقوي جذوره قائلاً: ديننا يقول "الاقتصاد في النفقة نصف العيش." ولكن هات من ينوي تفعيل اقتصادنا!

"إنها تُدَوِّر كل النفايات في الحديقة،" يتابع بالهاتف قائلاً" ولا ترسل إلى الحاوية سوى فضلات نادرة، فالبلاستيك يذهب إلى حاوية، والزجاج يُرمى في حاوية أخرى. شعرت أنني أتعلم منها. قبلت دعوتها إلى شقتها، وبعد تعارف أكثر، صرت أنام معها في شقتها". فتحذِّره بشدّة: "إلى هنا، قف يا ولدي! درب البنات شوك!" فيجيبك ضاحكاً: " كان هذا المفهوم في زمانك يا والدي، وأما في أيامنا، فالبنات أوعى من الشباب. لا تنسَ أنهن ينضجن قبل الشباب، ويفهمن الجنس قبلهم، والمرأة الباحثة

في المختبر تعرف كرامتها، وتعرف طريقها، وتعرف الأمراض والأوبئة القاتلة، ولا تسير في طريق الضلال، ولهذا قبلتُ دعوتَها كأفضل رفيقة لي، وذلك بعد أن تأكدت أن لا امرأة تستطيع أن تسعدني مثلها."

وبعد حصولها على الدكتوراة، عمل لها المحترم حفلة رائعة، دعا إليها أصدقاءه وزملاءه المقربين، وطبعاً أنا ووالدته المرحومة **أميمة**، وأخته **سمر**، وعمه **غالب** وزوجة عمه **تمام**.

وقبل أن آخذ إجازة للسفر، وأترك أعمالي الهندسية في دبي، وكل المشاريع المتشابكة المتعلقة بي، كلفت مساعدي المهندس **جرجس متري** بالتوقيع على دِقّة تنفيذ كل أساس أو عمود أو سقف، وتحمل مسؤوليته، فهو يدرك المخاطر الرهيبة، التي قد تنشأ، نتيجة خطأ مدني في حساب الأطوال، أو الأوزان، أو..

حضرنا الحفل البهيج، والسعادة تطل من وجهي العروسين، ومن وجه ابنتي **سمر** وأمها **أميمة**، التي تفضحنا بين الألمان وهي تُهاهي وتُزغرد (لو لو لو لو ليييي!)، فيفرح أهل العروس الألمان وكل الحضور بها، ويتحلقون حولها، فتُعلِّم أمّ العروس كيف تزغرد، فتبدأ الألمانية اللّماحة تحرك لسانها يميناً ويساراً وتزغرد (لو لو لو لي) ونحن نضحك! وراحت تُعلِّم المهتمين من الحضور الألمان كيف يدبكون الدبكة الفلسطينية، وتلوح بمنديلها وهي تقودهم في مقدمة

حلقة الدبكة. (وعلى دلعونا، وعلى دلعونا، ريح الشمالي، غيّر اللونا!) كانت المرحومة تفهم التقاء حضارة الشمال والجنوب، وتقصد تلاقح الحضارات، لا صراع الحضارات، الذي يتنطع الشريرون لتفجيره.

كان تعرُّفي عليك لأول مرّة يا أميمة في بيت أخي غالب، كمن يكتشف كنزاً في مكان مطروق.

"أُعرِّفكَ على ابنة جيراننا؛ الأستاذة أميمة" تقول لي تمام ذلك، فأفهم أنها تضمر شيئاً في روحها: "إنها من بلدكم عكا، وليست بلدياتي من الناصرة،" تضع يدها على صدرها وهي تتابع قولها: "كي تعتقد أنني أحابيها! آنسة في منتهى الأدب والأخلاق والذكاء، عمل لها أبوها عقد عمل بعد تخرجها في جامعة دمشق، فصارت تُدرِّس في مدرسة الرياحين المجاورة لشركتك." كنتِ يا أُميمة فتاة خجولاً، وعيناك الفرِحتان ترنوان إلى بعيد بينما زوجة أخي تُعرِّفني عليك. لم تذكر لي شيئاً عن جمالك، طالما أنك أمام ناظريّ غزالة في حديقة غناء.

تكررت زياراتكِ إلى تمام مع والدتكِ، وأحياناً وحدكِ، وما دمت أسكن في بيت أخي، صرت أجلس معكم لبعض الوقت، خاصة إذا اتفق أن التقينا داخل البيت، وجهاً لوجه. كنتِ لبقة في الحديث، فأعجبني أسلوبك في التعبير والتفسير والتبرير والاستعلام والأخذ والرد. وفهمت من حواري معك أنك متخصصة في إدارة الأعمال.

كنتُ قد وظفتُ أخي ضمن فريق مراقبي تنفيذ مشاريعي المدنية، ونقلتهم لنعيش معاً في شقة أوسع وأرحب وأجمل. وبعد أن شبكت الصنارة، ورحنا نستعد للزواج، فتشنا عن شقة منفصلة، ودخلناها أسعد عروسين، وبعدها نقلتكِ إلى شركتي، لتكوني مديرة للاتصالات والعلاقات العامة.

أتذكرك وأنت تلقين كلمتك المثيرة في سهرة العشاء الفخم، التي جمعتنا مع عائلات مقاولي مشروع (واجهة دبي البحرية)، في مطعم الطابق الأخير من فندق برج العرب، عندما قلتِ للحضور: "يقول ديننا: (مالُكَ ما أنفقت.) وفي باب آخر يُحذِّرهم: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. .) وأموالكم المكتنزة كثيرة والحمد لله، فلو تبرعتم بثمن هذا العشاء المكلف، لأيتام مخيم جنين، الذين طحنت الدبابات بيوتهم، وقتلت أولياء أمورهم. . . " فقام شريكي الإماراتي، الأستاذ منذر الحمد، وتبرع ببناء عيادة طبية متكاملة في المخيم، بحيث تكون مصاريفها التشغيلية ومستلزماتها من المواد والأدوية جارية على حسابه، وبعده انهالت التبرعات. وهذه المبادرة وحّدَت مشاعر الحضور تجاه قضية شعبك المغدور!

كنتِ تناقشيني في ضرورة العودة إلى عكا، ونحن نتمشى على مسطحات النجيل في (حديقة شاطىء جميرا) الجميلة، ونستمتع بمشاهدة النوافير، وألوان حقول الأزهار، فتلاعبين

طفليك **برهان** و**سمر**، وأحياناً تركضين خلفهما، وهما يهربان منك تحت الأشجار التي تعانق البحر.

وكانت **تمام** تحب زيارة (حديقة الحيوان)، فتأخذان أطفالنا، وتقضون يومكم هناك، بينما أذهب مع أخي **غالب** لنلعب (الغولف) في أبو ظبي، ونلتقي في الليل، فيتقافز **برهان** و**سمر** وهما يحكيان لي مندهشين بما شاهدا. أبكي بمرارة وأنا أتذكرك، فتسيل دموعي، وتبلِّلُ شاربيَّ اللذين كنت أحاول حلقهما، فتُصِرِّين على بقائهما يتنطعان أشيبين على وجهي. للذكرى فقط أبقيت شعرهما الكث، المفتقد لوجهك الطاهر! لماذا تركتني وذهبت بعيداً! يقولون إن المرأة تُعمّر أكثر من الرجل بحوالي سبع سنوات، فلماذا مُتِّ بهذه السرعة، وتركت كل هموم هذه الدنيا على ظهري وحدي؟ لو كنت أعلم أن استخدام الهاتف المحمول يسبب السرطان إلى هذه الدرجة، لما تركتك تلصقينه على أذنك، وتتحدثين به دائماً في اتصالات إدارة العمل. كان والدي يقول: (إذا تفَرّق الحِمل، ينشال.) ولكن الحِمل كله يقبع الآن ثقيلاً على كاهلكَ وأنتَ عجوز هرم، تعاني من ترقق العظام! صحيح، نسيتَ أن تأخذ دواء ترقق العظام، ودواء الضغط، وبخاخ السكري، وباقي الحبوب العشرين التي.. ولكن لا داعي لأخذها، فأنت تُحتضر على فراش عكا، وتتلاشى من آفاقها الساحرة شيئاً فشيئاً!

لم تصبر أميمة أكثر من شهر، حتى استفسرت برهان،

وسألته عن الخَلَف. فقال لها مستغرباً: "زواجنا يا أمي لم يفرغنا للخلف والولادة، كما يفعل معشر العرب، بل زادنا تورطاً في العمل!" وعندها تناولتَ الهاتف من يد أمه، كي تغيِّر الموضوع، وسألتَه عن عمله. فقال مفتخراً: " لقد تطورت أبحاثنا الوراثية يا أبي، فبعد أن نجح العلماء الأوائل في دمج خلية نباتية مع خلية حيوانية، وأنتجوا منهما أول خلية لحيوان أخضر. تابعنا بعدهم تطوير أبحاث الحيوان الأخضر."

بدلة يتيمة!

يُدخلك البساط المتحرك من فم الطائرة الهيدروجينية إلى مبنى مطار الإسكندرية الدولي، الذي يشبه تصميمه مدينة فضائية انفلتت من مجرّة بعيدة، فهبطت خلف مدينة الإسكندرية. . .لا يضيع مسافر في هذه المدينة، فإشارات التوجه مثبتة في كل مكان، والعجائز والأطفال يركبون سيارات كهربائية مجانية تقلهم إلى المعبر الذي يشاءون.

وفي أيام صباك، لم يكن أمامك معبر للوصول إلى الإسكندرية سوى **باب الحديد**، المتمترس في قلب **القاهرة**. اشتريتَ يومها أرخص تذكرة، ثم سرت باتجاه القطار الذي كان سيتحرك إلى **الإسكندرية**، مراقباً هذا الحشد العظيم من الناس. . . يتقدم إليك شيّال، فيخرجك من ذهولك بضوضاء رمسيس - ودون إحم ولا دستور- يأخذ منك حقيبة ملابسك الكرتونية، ليرفعها إلى القاطرة، فتخاف أن تفقد الحقيبة في تلك الزحمة، فتشدها من يده، ولكنه يمسك بتلابيبها، عندما يلاحظ أنك تلبس بدلة رسمية نظيفة سوداء، وهو لا يعرف أن والدك، احتفالاً منه بتخرجك من التوجيهية، وقبولك في الجامعة، كان قد خرج من تقتيره الشديد، وأخذك من يدك

إلى محل (عادل الغضبان)، أشهر خياط بدلات في طولكرم، الذي أخذ مقاساتك، وفصلها لك من قماش جوخ إنجليزي أصلي ناعم الملمس، واختار بطانتها من الساتان الأحمر، وقال لك الغضبان يومها: "لم أفصل بدلة لأحد بهذا الخصر النحيل، وهذا الصدر العريض!"

لا يعرف الحمّال أنها بدلتك اليتيمة، وأنك تلبسها وتعقد على قميصها الأبيض ربطة عنق حمراء، لا تذكر من أين اشتريتها. بالتأكيد ليست من بُقَج وكالة الغوث المستعملة. ولهذا فأنت لا تضعها هي ونقودك داخل الحقيبة، خوف أن تضيع الحقيبة مع بدلتها ونقودها، إذ قامت أمك زكية بإغلاق وتخييط جيبها الداخلي الصغير، مخبئة بداخله مصاريف سنة جامعية كاملة، كان أخوك غالب، الهارب من عذابات وظلمات حياة اللاجئين، قد أرسلها إليك من دبي.

يشاهدك الشيّال مرتبكاً، خائفاً على أغراضك. فيقول لك وهو يقدم أوراق اعتماده: "لا تخف، أنا موظف في المحطة! خذ هذه القطعة النحاسية الرسمية ذات الرقم 8 الخاص بي، واترك الحقيبة، أرفعها لك، وكلها خمسة قروش، لن تكلفك كثيراً!" تتأكد أنه موظف رسمي، أو إنه رجل ذو مرجعية، فتستسلم الحقيبة بين يديه وأنت تلاحقها بنظراتك الخائفة.

"اتكل على الله" يقول لك وهو يسير بها مسرعاً، وأنت تركض خلفه وسط الزحام، فتتذكر مقولة الممثل أمين الهنيدي: (اتّكل أونطة!).. ولكنك تتكل على الله، وتصعد عربة القطار.

يضع الحمال الحقيبة على الرف، فيشعرك بأن مهمته قد انتهت، فتنقده القروش الخمسة. تفضل. فيشكر الله ويخرج.

تشعر وسط تلك الجموع المتراصة في المقطورة أن لا مكان لك، فلا ممر فارغاً لتمُرّ منه، ولا مقعد فارغاً لتقعد عليه، أو حتى مكاناً لتقف فيه! وهؤلاء النساء الفلاّحات يضعن سلالهن الضخمة المملوءة بحاجياتهن، والتي خيطت فوهاتها بقطع قماش بيضاء وسوداء وخيش رمادي. وهذا الرجل الفلاح بثوبه الرمادي الواسع يُقعِدُ بطنَه المنتفخَ بين رجليه، ويجلس ساهماً، وكأنه قد أفطر شوالاً من الفول قبل ركوب القطار، ورأسه يميل ذات اليمين، وفلاح آخر يميل برأسه ذات اليسار، وتلك السمينة بحجم بقرة لحوم (في عين العدوِّين!) تربط سيقان إوزاتها البيض الثلاث، وتضمهن معاً، وتضعهن فوق سلتها الضخمة الطافحة في الممر، بينما الحائرات البيض يتلفّتن بعيونهن الزرق النيلية الجميلة بقلق وارتباك ذات اليمين وذات اليسار، متفرجات على هذا العنبر السراديبي الطويل، المكتظ بأمتعته وبساكنيه! تلاحظ أن

الأكياس والحقائب والأمتعة أكثر انتفاخاً من الركاب. وبعد أن يتحرّك القطار، تكتشف متاعب استرخاص الركوبة.

تشاهد أمامك رجلاً نحيل الجسم، يقعد محدودب الظهر، وذقنه يلامس ركبتيه، مثل موسى الكبّاس الذي ينغلق على نفسه، يُسبِّح بيده اليمنى بمسبحة طويلة تتدلى لترتطم بحذائه، بينما يده اليسرى تحمل مذياعاً نقالاً، وتقربه من أذنه كي يسمع صوت محمد عبد الوهاب - برغم تشابك أصوات المسافرين مع الأصوات المنبعثة من القطار نفسه - وهو يغني: (يا وابور قول لي رايح على فين.. يا وابور قول لي وسافرت منين.. يا وابور قول لي.. ياوابوووور قول لي...) وفي المقعد نفسه يتكوم أطفاله الخمسة فوقه وفوق زوجته القاعدة إلى جوار الأكياس، لابسة ثوباً أسود فضفاضاً، ولحمها يطفح داخل ثوبها الأسود الكبير، ويفيض على أمتعتهم، التي تتكوم حولهم، فتُغلِق ممر العربة.

وإلى جوارك يقف شاب من جيلك. تسأله فيقول لك ساخراً: "إنه قطار الإكسبرس السريع!" وعندما يعرف أنك غريب بلاد، يكمل حديثه الساخر: " هذا القطار كان سريعاً في عهد الدولة العثمانية، عليها رحمة الله، وعندما ماتت الدولة، اكتأب القطار، فصار يقطع الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية في حوالي خمس، قول ست ساعات.. وهو

يتوقف في كل المحطات، ما عدا المحطة التي تنوي الوصول إليها!" يضحكك أسلوبه الساخر في الحديث، فيشعر بإعجابك به، فيواصل قوله: "إنما هناك قطار حديث اسمه المجري. آه لو ركبت فيه يا جدع، لأوصلك في ساعتين!"

تكتشف داخل ذلك التزاحم الخانق- والذي هو واجهة من واجهات يوم الحشر والنشر- أن الناس طيبون، وتتسع صدورهم بعضهم لبعض. ولكن ما يمتعك حقيقة هو منظر السهول الواسعة (جنّات عا مَدِّ النظر، ما بينشبع منها نظر!)، مزارع خضراء، تنطلق منها أشجار نخيل باسقة بين حقول الذرة والقمح والبرسيم والفول وقصب السكر، تشبه مآذن مساجد لا نهائية في المدى الرحب! وأنت لم تشاهد نخيل مزارع من قبل إلا في الأفلام المصرية غير الملونة، وها أنت تشاهده ملوناً وعلى الطبيعة! إنه سحر مصر الخضراء، التي صحّروها لاحقاً!

تنتبه إلى أن الفنان محمد عبد الوهاب، وبعد أن انتهى من أغنيته السابقة قد عاد إلى أذن الرجل - الموسى الكبّاس- بأغنية (ما احلاها عيشة الفلاح، متهني وقلبه مرتاح!) ولكن صديقك المصري **محمد محمد محمد**، الذي ستسكن معه في الإسكندرية فيما بعد، سيقول لك: "غنى عبد الوهاب هذه الأغنية من الزمالك، ولم يعش مع الفلاح،

فيشاهد كيف أن البعوض - جيش الإقطاعي- يمتص دمه، وكيف تثقب البلهارسيا شرايينه، بمخرز الخولي، وكيف أنه محروم من كل شيء، ما عدا الموت!"

لا يبتعد القطار كثيراً من القاهرة، حتى يتوقف في محطة بنها، فينزل ناس، وتنزل أمتعة، ويصعد ناس، وتصعد أمتعة، وتحصل عملية إفراغ وإحلال متبادلة. ويصعد إلى القطار بائعون متجولون من أهل المحطة، وأحدهم يحمل على كتفه سلة، ويصيح وهو ينقل رجليه بخفّة وجرأة بين كتل الأكياس المتضخمة بطونها، فتصطدم سلته بلحوم النساء المندلقة داخل أثوابها الكحلية والسوداء، فيذود الرجالُ المدافعون عن حدود نسائهم بحماسة وشهامة. "سميط وبيض وجبنة رومي." ينادي بأعلى صوته المتشابك مع أصوات مجتمع القطار: "بيض وسميط." ويتبعه شاب بائع متجول آخر، يحمل على كتفه سطلاً مملوءاً بالماء، ترتفع من فوهته زجاجات ملونة.

"كازوز بارد." يندفع وهو يصيح بأعلى صوته: "كازوز بارد كازوز بارد." طبعاً لا هو كازوز، ولا هو بارد! وعندما يمرّ بك، يمسح قاع سطله المُطيّن بكتف سترة بدلتك اليتيمة، التي كنتَ مغروراً بلبسها داخل العربة، ولكن هذا السطل الذي مسح بك الأرض، جعلك تقف مثل الذي عملها، ولم يمسح مؤخرته..!

يشاهد الشاب الذي يقف أمامك تحرُّش طين السطل بكتفك، ويتأثر بمنظره اللزج، فيضحك وهو ينظر إلى خيبتك ويقول لك: "ما كنت يا فندي طلعت على الأقل في الدرجة الثانية، هناك يكون لك رقم مقعد، والمقامات محفوظة!" الآن تفهم أنك قد ركبت في مقطورة الدرجة الثالثة، وأن الناس هنا متعودون بعضهم على بعض، وقلوبهم مسامحة وكريمة، وأما أنت فالبدلة اليتيمة التي ستدخل بها الجامعة، وتقابل بها وجه ربنا..! إنها مصيبة كبرى! ولكنك مستعد في هذه الرحلة لأسوأ الأمور، كما قال لك والدك رحمه الله: "كن حذراً يا ولدي لكل شيء. ولا تغضب إذا ما حصل لك مكروه، لا سمح الله. والرسول الكريم كان يرفع شعاره الدائم (لا تغضب)." ولهذا فلا تغضب، بل تتابع الرحلة واقفاً، تتفرج على الخضرة، وعلى نوافير النخيل المعلقة في السماء، وبحر النيل الرحب الصدر، الذي لم تشاهد مثله في حياتك؛ فهذه الألوان، من الخضرة والمتسلقات الجهنمية الحمراء، والنيل الذي يظهر أزرق حيناً، ورمادياً شاحباً أحياناً، وأجرب بقاذوراته ورممه أحياناً، ومطرزاً بجواميسه التي تدور حول سواقيها، وبيوت الطين المغمورة في المزارع، وأفران فلاحاتها التي تلهب النار الحمراء المتصاعد دخانها فتشوي خبزهن، وأسراب من الصبايا الفلاحات

يجمعن القطن من حقوله، وعربة كارّة يجرها حمار ينوء بحمل البرسيم المتراكم خلفه.

وبعكس مآذن النخيل المنطلقة باتجاه السماء، تهبط الشمس باحثة لها عن عش تنام فيه بين حقول الذرة! ترقب الشمسَ الغروبيةَ البرتقاليةَ المحمرّةَ وهي تسابق القطار... تنطلق بموازاته... تتخلف عن ركبه. تختفي خلف ذيله التمساحي الطويل. تحاول أن تسبق الفضاء الرحب. وعندما تصطدم "الذهبية البرتقالية" المتلألئة بجذوع النخيل، تخاف عليها من أن تنفلق وتخر مغشياً عليها!

الزحمة المتشابكة داخل المقطورة تجعل بعض الشباب يقعدون على الرفوف الداخلية العلوية الشبكية المعدنية، والتي صممت لوضع الحقائب اليدوية عليها. يصير المسافرون هم الأمتعة الممددة على الرفوف. وتشاهد رجلاً يراقب قرده صغير الحجم، والذي بغمزة عين يقفز بخفّة، فيجلس بأدب بين الشباب الجالسين على الرف، وهو يضع إصبعه في فمه باسماً، بينما عيناه العسليتان تتحركان في محجريهما، يمنة ويسرة، تراقبان الغادي والقادم، والفرح يطل منهما، لحصوله على مقعد مجاني في العالي.

تشعر بألم في ساقيك المنفرجتين بسبب وجود قفة بينهما، فتزحزحهما بين الأمتعة، وتراقب الشابين الجالسين

على الرف، وهما يدلدلان أرجلهما فوق رؤوس ركاب المقطورة، فيصيح بهم رجل قاعد تحت رحمة أحذيتهم الثقيلة: "مش تحترموا الناس القاعدين تحت جزمكم الثقيلة!" وتضيف امرأة يبدو أنها خائفة على طفلها النائم في حضنها: "لو وقعت جزمة على رأس طفلي، حيموت!" ويقول آخر: "دا والله حتى عيب كده!" ويتشجع رابع فيرفع وجهه نحوهما صائحاً: " يا شباب انتوا أكيد من عيلة محترمة ومتربيين عالأصول، وده مش أصول إنّ جزمكم تتحط فوق رؤوسنا! على الأقل اقلعوها وشيلوها من فوق دماغاتنا!"

وبعد عدة استنكارات واستهجانات، يخلع الشابان أحذيتهما الغليظة، ويضعانها إلى جوارهما على الرف، فتعلن جراباتهما البيضاء عن نفسها، وتمد أعناقها، وهي مسودّة مطينة بالعفونة الملتصقة بها، وتطل أصابع أرجلهم من الجرابات المهترئة، فيروحان يهوّيان أصابعها الملتصقة بمعجون العفونة اللاصقة الرمادي الرطوبة، ويبعدان الأصابع بعضها عن بعض بهدف التنفس، فتفوح رائحة كريهة، تقتل أنوف الركاب القابعين تحت رحمة سكان الرف العلوي. ويصحو رجل عجوز كان نائماً على كيس أمتعته صائحاً فيهم: "ارحمونا من الريحة اللي خنقتنا دي!" فتصحو على

صوته امرأته التي كانت تنام على زنبيل مملوء بأشياء مغطاة بقطعة قماش مخيط، وهي تقول: "صحيح، أيه الريحة العفنة دي!"

"يا عمي البسوا جزمكم، ودلدلوها فوق رؤوسنا" ينفجر آخر بقوله،" لو تقع جزمكم على رؤوسنا، أرحم من الريحة اللي موتتنا دي!"

وهنا يتنطع أحد الشابين؛ ساكنيّ الرف العلوي قائلاً: "هلكتونا بحكاية الرجلين دي؛ إقلعوا، لأ، إلبسوا! طب إقلعوا! لأ إلبسوا. إرسوا لكم على بر، في قضية الأرجل دي. نلبس ولا نقلع؟" فيقول لهما الشاب الفرائحي، الذي يقف إلى جوارك مراقباً الحدث كالآخرين: "إيه رأيكم تقطعوا رجليكوا، وترموهم برّة القطر، فنرتاح من ريحتهم العفنة؟ وعلى الأقل يمكن تستفيد منهم القطط اللي هناك، بدل ما انتوا قارفين بيهم مشوارنا ده!" فيجيبه أحد العلويين مدافعاً: "لا والله فالح يا ابو شرابات حرير في حرير! وعفن رجليك، تقولش مسك!"

شيء لله يا سيدنا البدوي!

تتجه على هذه البسط المتحركة داخل مطار الإسكندرية الآلي- حسب الإشارات- إلى حيث تأخذ حقيبتَك من محطة وصولها المرقمة على الشاشة. يتناول الرجل الآلي حقيبتك المرقمة على جهازك المحمول، ويضعها على عربة، تركبها وتحركها بالموجِّه لتوصلك أينما شئت داخل قاعات المطار.

لم يبق عليك سوى استقبال الحبيبين؛ الابن والحفيد. كلها مسألة دقائق، وسيصلان إن شاء الله في الوقت المحدد. تتمعّن قاعات وممرات هذا المطار الفسيح، وهذه المحلات التجارية، التي ما يزال يدمغها الطابع الفرعوني، ويميزها عن أسواق باقي المطارات في العالم، والحواجز الأمنية الآلية، ومحطات وصول القادمين، ومحطات خروج المسافرين المجهزة بكل وسائل الراحة.

ما تزال تقارنها بأول يوم وصلت فيه إلى الإسكندرية، لتلتحق بجامعتك الموعودة. فبغد توقف قطار الإكسبرس المطوّل في محطات لا حصر لها، والتي لا تذكر منها سوى محطة طنطا، ذلك لأن القطار قد توقف هنا منذ ربع ساعة،

يقول معاون السائق إنه يصلح المزلقان. ما هو المزلقان؟ فأنت لا تعرف!

" يمكنكم أن تتهووا قليلاً على رصيف المحطة " يتبرع المعاون بإعلامنا. تنزل من العربة فلا تبتعد كثيراً، إذ يدهشك مرأى كثير من الشبان الراكبين بالمجان، وهم يتزاحمون واقفين ومتعلقين بعضهم ببعض، خارج العربات، ومتكومين فوق ظهورها بجرأة مدهشة، وكأنهم جبال من الأمتعة المحمولة فوق القطار! المحطة معلقة فوق جسر هيكل حديدي ضخم للقطارالذي يعبر مدينة **السيد البدوي**، و"**شيء لله يا سيدنا البدوي!**" وينزل معنا عدد غفير من الركاب الذين يعدّون طنطا هي محطة وصولهم.

مجتمع متكاتف متباغض متضامن متنافر محب كاره طيب حلو المعشر! وكل منهم يزور **السيد البدوي** لغرض في نفس محمدين، أو في نفس حسنين! ذلك ما يقوله لك الشاب الذي كان يقف قريباً منك في عربة القطار، وما يزال يقف معك على الرصيف، ليشم نَفَسه خارج رائحة جرابات جيران القرد الشقي، فيعرفك على نفسه: "اسمي **محمد عدَوي**. "

"تشرفنا. وأنا إسمي مشهور شاهر الشهري. "فيضحك **محمد عدَوي**:

" أهلاً يا أفندي. كنت أتخيل أنك مشهور بكونك شاهراً

سيفك شهرياً!" يقول هذا مداعباً وهو يطبطب على كتفك: (إيه الإسم الجميل ده؟ شاريه، ولا ببلاش؟) رغم غُلبهم، فركاب الدرجة الثالثة دمهم خفيف. إنهم يسخرون بعضهم من بعض، ويطلقون النكات، كي يضحكوا ويتناسوا معاناتهم في الحل والترحال.

ينتبه **محمد عدَوي** إلى كونك تقف تائهاً، تراقب الجمهور، وتتفرج على مدينة غريبة عليك، فيقف معك، يشاركك النظر إلى الناس النازلين بأمتعتهم من المحطة، فوق جسر ضخم يتدلى منه سلّم معدني عريض صدىء. الدرجات تنزل بين الجسور المعدنية العملاقة يميناً، ثم بسطة حديدية، ثم يساراً، ثم.. وأقدام الناس النازلين الصاعدين تجرش الحديد قائلة: (درب، درب، درب، درب..!) ليس هذا هو الموضوع! تلفتك ثلة من الرجال:

"إنهم من الصعايدة" يبلغك **محمد عدوي** وهو يضحك "القادمين لزيارة ضريح **السيد البدوي**، والتبرك بمقامه، وسؤاله عن سرٍّ بقرة اختفت، أو قتيل لهم لم يعرف قاتله، أو بنت لهم مفقودة، ويريدون منه أن يدلهم على مكانها، أو مريض عجز الأطباء عن شفائه، أو لم يذهب من أصله إلى طبيب.." يواصل سخريته وهو يتفرج عليهم "والطبيب المداوي هو مقام ضريح سيدنا البدوي، الذي يشفي ببركاته

كل عليل، ويعيد البصر إلى كل ضرير، ويعيد كل مفقود إلى أهله، وينصرك على من يعاديك، ويبارك عيش كل عروسين، ويعيد كل مطلّقة إلى بيتها، ويطيل عمر كل عجوز، ويُحَبِّل كل عاقر، ويخرج الجن من البدن..!" يلتفت إليك وهو يتكيء على الحاجز ضاحكاً."أي والله!"

تشاهد ثلة منهم ينزلون على السلم الحديدي، وعلى رؤوسهم عمم بيضاء ورمادية وبنيّة الألوان، مُدخّنة بالبخور المستوحى من روائح الجنة - وحسب ما يقوله لك عدوي - فإن هذه العمم ليست لاتقاء الشمس الحارّة فقط، بل هي للوجاهة والهيبة، وشرف الرجولة والقبيلة، والعز والجاه، والأهم من هذا كله أنها مخزن نقودهم المخبأة، والتي يحذرون ضياعها أو سرقتها في **مولد السيد البدوي**، وأنت عارف، في المولد خلق كثير(مولِد بقى!) ولذلك يضعونها هناك في القمة، حيث لا يستطيع أحد الاطلاع على أسرار القمم العربية! "انظر. انظر!" يشدُّك عدوي من كتفك، وعندما ينتبه، ينفض الطين الذي جفّ عليها قائلاً: "لاحظ أولئك الصبية الثلاثة من الأشقياء، الذين يتقافزون فوق الهيكل الحديدي الضخم لمحطة القطار، مقلدين ذلك القرد الذي.." تراقب المشهد، حيث يقف الأشقياء على حافة السلم الذي يصل رصيف المحطة العلوي بشوارع المدينة،

ينظرون إلى الزوار النازلين بوجاهة على السلم، ويراقبون شعورهم وهم نازلون بالتهليل والتبريك والاستغفار، والخشوع في حضرة مدينة ضريح السيد العظيم المبارك، وتلاحظ أن مع كل من الأطفال الثلاثة قضيباً معدنياً رفيعاً طويلاً معقوفاً، على شكل خطاف مدبب الطرف، فما أن ينزل الرجال الأكابر إلى الطابق السفلي، حتى يمد الأشقياء خطافاتهم المعدنية، ويشبك كل منهم بصنارته عمّةَ فلاح من هؤلاء الضيوف الغرباء البسطاء، النازلين على بركة الله! "انظر! انظر"! يقول لك عدوي. وبسرعة البرق، يسحب كل منهم صنارته بصيده، ويختفون راكضين بالعمم، وبما فيها من نقود. كل منهم وحظه، وحسب ما أكرمه الله في تلك العمة المخطوفة! يصيح الرجال الغرباء صيحة واحدة، ويولولون، وينفعلون، ويهدّدون بالانتقام والثأر والطخ والقتل! ولكنهم يكتشفون بعد أن يلفح الهواء صلعات رؤوسهم المحلوقة على الصفر- يا حرام - أنهم في بلاد الغربة، وأن لا قبائل ولا عشائر ولا عُمدة يعيد إليهم شرفهم المفقود، ونقودهم في القمّة المنهوبة!

يُصَفِّر القطار، فنصعد إلى عربتنا بسرعة، كي لا نفقده، فنقعد بلا قطار، وخاصة أنت العبد لله، الذي لا يميز طنطا من مالطا، ولولا عَدَوي، لما عرفت من الأمر شيئاً!

وأخيراً يتوقف القطار في محطة **سيدي جابر**، فيقول لك صاحبك الودود: "هذه هي محطتك ". تفغر فاك مصحياً نفسك. هكذا أفهموك، أن تنزل في محطة اسمها (سيدي جابر). تودّعه بالأحضان، وتنزل مسرعاً، محتضناً حقيبتك الـ. .

إنها محطة بسيطة، نظيفة، لا يوجد فيها ازدحام مروري. وعلى الرصيف العريض المزروع بأشجار الفيكس اللامعة الخضرة - نفس أشجار أرصفة مدينة طولكرم - تشاهد لافتة صفراء كبيرة كُتب عليها (أهلاً بكم في الإسكندرية) وخيولاً صهباء، بحناتيرها المزينة مظلاتها بتطاريز ونقوشات سكندرية. تهب عليك رائحة روثها المخالفة لجمالية المكان، وإحداها تتبول أمامك، بينما سائسها يجلس رافعاً عصا كرباجه على مقعد القيادة خلفها، وإلى جواره ضمة برسيم، يبدو أنها وجبة مخصصة للفرس، منتظراً أن يفتحها الله عليه بصيد ثمين.

وأما سيارات الأجرة المميزة هنا في الإسكندرية بلونها الأسود الموشح بالأصفر، فيبدو أنها توصل إلى الأماكن البعيدة. تركب إحداها، فلا يصعب على السائق تشغيل محركها كما حصل مع تلك السلحفاة السوداء في مطار القاهرة.

"إلى أين ان شاء الله؟" يسألك السائق، فتجيبه متضائلاً: "إلى أي فندق قريب ورخيص!" فيبرز الرجل خبراته السكندرية قائلاً: "أعرف فندقاً مناسباً في كليوبترا الحمّامات القريبة من هنا!"

"حمّامات، حمّامات!" تجيبه ولا باليد حيلة!

يمدّ الرجل يده أمام وجهك، فيضايقك خيط دخان سيجارته المعدمة في فمه، ويصفّر صندوق عدّاد الأجرة المعدني المثبت إلى يمينك.

تتحرك بك السيارة المفتوح مذياعها على صوت العرب، باتجاه شاطىء البحر، بينما البرنامج الإذاعي **الصندوق**، للفشار **أبو لمعة**، **والخواجه خريستو**، يقدم حكاية تفاخُرٍ كاذب، تبدأ بأصوات المنشدين (الكورس):

"سرقوا الصندوق يا ابو **لمعة**!" فيرد عليهم أبو لمعة قائلاً:

"لكن مفتاحه معايا!" وينشد **الكورس**: "الصندوق"، فيقول مقدم البرنامج: "الصندوق حلقات مُسَلسَلة." فينشد الكورس: "سَلسَلة." ويقول المذيع: "يعدها ويقدمها.."

لا تعرف من هو أبو لمعة، ولا من هو الخواجه خريستو، ولكنك تعرف أنه حكواتي فشّار، وفي كل حلقة يومية يقدم حكاية تفاخر كاذب، من كذبه الذي لا ينضب.

وكأن إذاعة صوت العرب في هذا البرنامج الفكاهي توجه المستمعين العرب، وتحذرهم من تضخيم الأمور، وتُضحكهم وتُرفِّه عنهم بلا رُخْص، وبلا غنج أنثوي حداثي، وبلا بذاءات. إذاعة حضارية بكل معنى الكلمة، هزلت بعدها المحطات التلفازية "الفضائحية" العربية الحداثية العارية المشوهة الرخيصة، والتي تتدفق علينا بأموال نفطنا المتأسلم، لنعدم تراثنا وثقافتنا وكرامتنا وعروبتنا بأيدينا، في عصر العولمة!

تبتهج وأنت تشم هواء الإسكندرية النقي الرطب، وتشاهد المدينة الهادئة النظيفة، البحرية الطابع! تصل بك سيارة الأجرة إلى فندق صغير على شكل بيت ريفي، أو فلّة على شاطئ كليوبترا، يعلوها قرميد شاحب اللون، تقبع على مسافة قريبة من أمواج البحر المتهجمة على الشاطئ،(ياي!) الله! الله! البحر! إنه البحر! يا حبيبي يا بحري الأبيض المتوسط! لماذا أبعدوني عنك من هناك؟ لماذا فكّوا حبال قوارب الصيادين الصغيرة المتماوجة بحمولاتها المتجمعة في **بحر عكا**، والمستجيرة بأسوار أحمد باشا الجزار، وأبعدوها عن أوتادها الحديدية، وأطلقوا عليها نيرانهم، فاخترقت الطلقات أخشابها التراثية القديمة، ونزفت دماءها، فامتزج الأحمر بالأزرق، وماتت القوارب بصياديها، وتماهت

أخشابها المقطّعة مع أمواج البحر. أكلتها وعول البحر، ولم يعد جدُّك منذ ذلك اليوم!

الفندق القرميدي الصغير ينام بهدوء على شارع كورنيش البحر. تقرأ اسم الشارع: "طريق الجيش" فتعتقد أن الجيش يمر من هنا، باتجاه بورسعيد! أنت الذي لم تشاهد بحراً في حياتك، تلاحظ أن البحر الأبيض لونه أزرق. مياه متلاطمة، قادمة من عكا لتستقبلك هنا في الإسكندرية! هل هذا هو بحرك العكاوي الجميل الذي لم تشاهده منذ ولدت؟

الأم تفطم طفلها بطَعم نبتة مُرّة، تدهن بها حلمتي ثدييها اللتين جفت عروقهما، وأما أنت، ففطموك عن بحرك الأبيض العكاوي بالرشاشات والمدافع والمتفجرات قبل أن تولد، فبقيت ولداً صحراوياً تعيش بلا بحر! وها أنت أيها المسكين تدور وتلف له من الجنوب، فتلتقي به بالأحضان!

تصوّر أن عكا والإسكندرية يُرضعهما بحر واحد، ويَفطمهما بحر واحد! ومصر وفلسطين أخوّة في الرضاعة من البحر، وأخوة في اللغة والدين والعادات والتقاليد والجغرافيا والتاريخ والمصالح المشتركة والوطن والحب، وعيسى الفلسطيني، وأحفاده محمد وعمر وعلي.... عيسى الذي كان يقول: "من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر." ويتبعها بقوله: "كل يحمل صليبه" ولا ينتهي

بقوله: "من كان منكم بلا خطيئة، فليرجمها بحجر!" ذلك لأنه كان يردد دائماً مقولته: "المحبة، المحبة!" فما كان منهم إلا أن سرقوا صليب الآلام والمعاناة، ونقلوه إلى الغرب، وقالوا هذا إلهنا، وحمّلوه بدل صليبه مدفعاً رشاشاً، وربطوه داخل طائرة أباتشي، كي يقتل أهله في الشرقين الأدنى والأقصى، وينثر الأفيون على شعب الصين والقنابل الذرية في هيروشيما وناجازاكي وما حولها، وينسى الحليب الذي رضعه! ومنعوه من حق العودة الموعودة إلى فلسطين، إلا بعد أن يقيموا إمبراطوريتهم على جثة الوطن العربي... يسألهم وهو ينزف على صليبه المعلق في طائرة إف إف إف: "وإذا كانت(إمبراطورتكم) عاقراً لا تنجب؟"

"ساعتها، والله ما انت نازل!" يجيبونه حاقدين "لن نعطيك (فيزا) دخول إلى وطنك!" كم أنت عظيم وطيب ومسكين ومغلوب على أمرك يا روح الإنسانية المعذبة، فأنت لا تطلب إمبراطورية، ولا تريليونات نفطية، ولكنك تطلب من الله أن يرزقك خبزك، كفاف يومك!

من الإسكندرية، التي دفنَت الإسكندر المقدوني وكل من تبعه من قياصرة روما الفاشلين في تكوين إمبراطورياتهم على أرضنا، تطل على فلول الصليبيين وهي تذروها الرياح، دون قدرتهم على تكوين امبراطوريتهم الكبرى على أرضنا،

وتشاهد نابليون الخائب في عكا، خائباً في الإسكندرية، وغير قادر على تكوين إمبراطورية الشرق الأوسط الكبير على جثثنا! سبحان الله! كل الفاشلين في بلادهم يريدون أن يقيموا إمبراطورياتهم على جسدك الذي يستعصي على أن يكون مستباحاً أيها الوطن العربي الكبير!

أول رحلة ممتعة في تاريخك العتيد. الله! البحر واسع. ياآااه ما أحلاها! أمواج بيضاء تلاحق رغوتُها أمواجاً بيضاء أخرى، فوق بحر أزرق! سلاسل متلاحقة من جماعات الإوز الأبيض تتقدم نحو الشاطىء، في زفة عرس أبيض، فوق بحر أزرق!

ورغم أن الوقت مساء، فلا تنتظر العشاء، ولا السهر، بل تغفو وتنام دون هز. (وشت. وشت. وشت. وشت.) تنام على أصوات أمواج البحر المدهشة! أول مرة تنام فيها مع البحر، ولكن أصوات الأمواج الهادرة المتلاطمة طوال الليل تستمر في استباحتها غرفة نومك الفندقية، فتغرقك في سريرك، وتغسلك برغوتها الغامرة، ثم تجرجرك معها فوق رمال الشاطىء إلى البحر! تشعر أن سريرك قارب تائه في عرض البحر.. صوت الموج يملأ السمع، ويسيطر على الحواس، ويغسل أعصابك المتصلِّبة، طوال الليل وأنت تغرق تغرق!

تكتشف في صباح اليوم التالي أن أصوات أمواج البحر قد عملت تدليكاً لعضلاتك، ومسّدت جسدك، وأنعشت عقلك المُعَقّد برحلة العمر المريرة، فتصحو نشيطاً مرتاحاً، معافى من إرهاق السفر ومعاناته، والفرحة تكاد تنط من عينيك، مفكراً في الذهاب إلى كلية الهندسة.

"إنها قريبة من هنا". يقول لك موظف الفندق: "اسأل عن محطة ترام كليوبترا الحمّامات، وخذ الترام من المحطة، ومنها تنزل في محطة الجامعة، فالكلية قريبة من هناك، تنزل مع زملائك الطلاب النازلين في المحطة، وتسير في شارع قصير، يؤدي إليها."

قبل الذهاب إلى الكلية، تدخل مطعماً صغيراً هنا على الناصية. لأول مرة في حياتك تفطر فولاً بزيت القطن. تستغرب طعمه الذي لم تتعوده - فأنت ابن بلاد الحمُّص وزيت الزيتون، الذي حولته وكالة الغوث إلى زيت الكوكز، فرفض اللاجئون تعاطيه - وإلى جانبه صحن صغير فيه حبتا طعمية، وشرحات طماطم وبصل: لا بأس به. طعام طيب. (مفيش على أسنان الكُرّ، شي مُرّا!) فأنت لم تتعشّ ليلة البارحة. تأكل وتحمد الله، ثم تتجه إلى كليتك الموعودة!

أول مرة تصعد فيها إلى ترام الرمل، وهنا أيضاً يكون الترام مفصولاً إلى درجتين؛ درجة أولى بقرشين، ودرجة ثانية

بقرش واحد! ولكن لماذا فصل القوات هذا، ما دام الجميع سيصلون في الوقت نفسه، وإلى المحطة نفسها؟! وما ينطبق على القطار، ينطبق على الترام الكهربائي، وعلى الحافلات. فكل حافلة فيها شبه فاصل بين الدرجتين، الأولى والثانية. شيء لم تعهده من قبل في (باص طبالو) الذي كان ينقل ركاب المخيم من وإلى مدينة طولكرم بدرجة موحدة، نصف قرش لكل طالب، وقرش لغير الطالب. كان التمييز في الزمان، وليس في المكان، وكنت قد تناقشت مع رفيقك محمد عدوي في موضوع درجات القطار. فقال لك وهو يضحك كعادته:

" الدرجات موجودة حتى في الجنة. بعض المؤمنين الأتقياء، أقرب إلى الرسول من غيرهم، وبعضهم يكون مثواهم في عليّين. هناك أيضاً فصل بين الناس، فلماذا لا يكون في الدنيا مثلها "؟

تتفهم فكرة الطبقات. ونظراً لمتاعب رحلتك الأولى من القاهرة في الدرجة الـ. . ترغب أن تكون هنا في عليّين، فتعمل اشتراكاً سنوياً في ترام الدرجة الأولى، وتحصل على بطاقة طالب، بسعر مُخفّض.

ولدى دخولك الأول إلى مبنى الكليّة، والذي ستعرف لاحقاً أن تصميمه أخذ من معالم قصر الملكة حتشبسوت

الفرعونية، تدهش بجمالية المكان، فتتعرف بحذر إلى مبانيها ومدرجاتها وطرقاتها وقعدات حدائقها ومقاصفها، وبعد أشهر من دوامك، تلفتك حفريات أساسات مبنى العمارة الجديد. يقولون إنهم يبنونه ليكون مستقلاً عن مبنى الهندسة المدنية.

وبعد حوالي أسبوعين من بدء الحفر، تفاجأ بمشاهدة انهيار الواجهات الترابية للحفرية، واختفاء ثمانية عمال تحت الردم، حيث الأرض رملية. لم تنس أن اسمها منطقة الرمل، ولو أنها تبعد قليلاً عن الشاطىء. لم يكونوا يستخدمون آليات حفر ميكانيكية، وذلك ليعطوا الفرصة للغلابى ليكسبوا عيش أسرهم، ويمتصوا البطالة العمالية.

تراهم يحفرون أساساً عميقاً في الأرض الرملية، يزيد على عشرة أمتار، وكأنه مكان ارتطام نيزك متوحش في بؤرة الكلية، فيتهاوى ردم الجدران الجانبية، وينهار فوقهم ويطمرهم، فيصيح العمال الذين بقوا ولم يُدفنوا بعد، ويرتمي فوق الردم حوالي عشرين عاملاً لينقذوا الموقف، ويزيلوا التراب من فوق زملائهم الموتى بلا قبور، فيزيدون الطين بلة، وبقفزاتهم تلك، يقتلون من لم يمت! وبعد تجريفات وصرخات وحركات متداخلة، ينتشلونهم من هناك جثثاً هامدة؛ واحداً إثر آخر! وبعد أن تتعالى الولولات والنواح والبكاء والرعب، وينتهي كل شيء، تبزغ سيارات المطافي

والإسعاف، وهي تصفر وتزمر بغرورها قائلة: "نحن هنا!" فيستنفر العمال ويقذعون المطافىء شتماً، وهم يعتصرون ألماً، وينشجون بكاءً على موتاهم.

نساء كاسيات عاريات!

كنت قد قرأت على شاشة كمبيوتر طائرتك الهيدروجينية أنهم بعد أن تضايقوا من زحمة مطار القاهرة الدولي، واكتظاظ السكان حوله، وعدم إمكانية توسيعه ليَفي بالغرض، أنشأوا **مطار الإسكندرية الدولي عام 2045**، ليحل محله في تخفيف الضغط على العاصمة، ولينشر السياحة في ربوع الوطن، فلا يخنقها في القاهرة. فالسياحة المصرية صارت في الشمال والجنوب أكثر منها في أهرامات أبي هول الجيزة، التي خنقها الزحف العمراني من جميع الجهات.

اكتشفوا أنه أهم مطار في قلب الوطن العربي، يربط أوروبا الموحدة، بإفريقيا المفرغة من محتوياتها، بالشرق الغني، والغرب المجهد، ولهذا كان شراء شركة **(يون تشو الصينية)** أرض هذا المطار وما حولها، في شمالي محافظة البحيرة، وإنشاؤه على مساحة مئة كيلومترمربع، كانت تغمرها ملاحات بحيرة مريوط، يعتبر ضربة معلِّم! اشترى **الصينيون** المنطقة بكاملها، وجففوها، فاختفت بقايا البحيرة الملحية الشاحبة الخضرة، وحل محلها مطار دولي فسيح. وحسب معلومات الإنترنت، كانت صفقة تجارية صينية رائعة، حيث

يستوعب المطار مرور مائة مليون مسافر سنوياً! لاحظ كم هو العمل السياحي المطلوب لخدمة هذا الكم الهائل من العابرين الذين سيدفعون **باليوان الصيني**، أو **بالدينار العربي**!

المسافرون يتحركون في كل اتجاه، زرافات ووحداناً، رجالاً وأطفالاً بقمصانهم المزركشة وبنطالاتهم القصيرة والطويلة، ونساءً؛ بعضهن يلبسن ملايات سوداء، تغطي كل ملاية منهن هيكلاً، لا تعرف له رأساً من رجلين، وبعضهن أشباه عاريات، لا يلبسن سوى خيوطٍ تتدلى على صدورهن وإلياتهن، لتغطي، أقصد، لا تكاد تغطي شيئاً! أنت لا تبدل نقودك في المطار، فأرقام حساباتك على جهازك المحمول تدفع **بالدينار العربي**، أو **باليوان الصيني**، حسب ما تريد.

لا ترى إنساناً موظفاً في هذا المطار، إذ يدقق لك الحاجز الآلي الممثل للأمن هويتك الشخصية المُخَزّنة في جهازك الخلوي، الذي يبقى في جيبك دون أن تفتحه.

كان لكل منا في الماضي جواز سفر وبطاقة شخصية، وبطاقة حسابات بنكية، وبطاقة عائلة، وبطاقات السيارة الخاصة، والاشتراكات في النادي والاتحاد والجمعية والتأمينات، والفنادق، وشهادات لا أول لها ولا آخر.. والآن صار كل شيء مدوناً على هذا المحمول، ومسجلاً دولياً، وفي كل الدوائر الرسمية، وعلى شبكة الإنترنت. معلوماتك يا محترم مفضوحة في كل المراكز والدوائر العولمية. وبعد الفحص السري الآلي لمحتويات حقائبك، إذ

تشم الأجهزة كل شيء، حتى روائح ملابسك الداخلية، لتميزها عن روائح المخدرات، أو أي مواد مهربة، ودون إزعاجك بفتحها. يفتح الحاجز أمامك بعد التدقيق الرقمي السريع دون أن يعترضك أحد. تتجه بالبساط المتحرك إلى محطة الحقائب الواردة من فرانكفورت، لتلتقي **برهان وكنعان الأخضر** هناك. فيُذكِّرك البساط ببيت امرىء القيس:

"وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلّد".

ترى هل يقصدنا هذا الأمير المدهش، ونحن وقوف على هذا المتحرك؟ وهل كان يدرك أنني سأهلك أسى وأنا أتجلّد بانتظار ولدي وحفيدي؟ وهل يدرك أننا الآن وقوفٌ على مَطِيِّنا- هذا البساط الجميل الزاحف، الذي يحل محل خيول العرب الأصيلة - والتي ما تزال تسابق، فتسبق كل خيول الأمم، ولكنها لم تطور بأيدينا، كي تصل إلى حضارة هذا البساط!

ومنذ انضمام مصر إلى اتحاد الولايات العربية مؤخراً، اطمأنت الشعوب العربية إلى مستقبلها الذي أبقى الزعماء العرب، كُلاً في موقعه، ولكنه بدأ بفتح الاقتصاد والحدود، مثلما بدأت الوحدة الأوروبية، فالعرب الذين لم يكونوا يعرفون أين يستثمرون ملياراتهم النفطية، والتي أينما كانت تذهب، فإنها تتعرض للمصادرة تحت أي مسمى؛ مرة تحت ادعاء الإرهاب، ومرة تحت مسمى غسل الأموال القذرة،

ومرة تحت الشك في تسريبها للمقاومين احتلال بلادهم، ومرة تحت باب سوء التصرف بأموال الزكاة - يا للمهزلة، صاروا هم القيمين على توجيه وإدارة أموال زكاتنا! - ومرّة بالتحايل الدبلوماسي، ومرّة بالكرم العربي، ومراراً بالقوة التي . . .

الآن صار للصناعيين العرب مصانع عملاقة في مصر والسودان والمغرب وبلاد الشام وبلاد الرافدين، وصار التجار العرب يستوردون ويُصدِّرون بضائعهم المتكاملة إلى أية مدينة عربية، دون جمارك أو رسوم، ودون توقف في الحدود، خاصة بعد أن انطلقت القطارات الحديثة السريعة، عبر شبكة خطوط ربطت ربوع الوطن العربي من موريتانيا إلى البحرين فكركوك فحلب، ومع تركيا، المرتبطة أصلاً مع أوروبا . .

الجنة تحت أقدام البرتقال

ها هما برهان وكنعان قادمان لتناول حقائبهما من محطة حقائب طائرة فرانكفورت. لقاؤك مع ولدك وحفيدك الأخضر يسعد روحك! "بالأحضان يا برهان! بالأحضان يا كنعان الحبيب، صرت طويلاً يانعاً، وعمرك ما يزال عشرة ربيعاً! ما شاء الله يا كنعان! هكذا تنمو أخضر يانعاً، مثل النباتات الظليلة الجميلة! يخزي العين!"

تخجل من إبداء ملاحظة كون حفيدك الأخضر كنعان يحتضن كلباً أخضر صغير الحجم، ويلبس ملابس شفافة، مصممة بلباقة لاستقبال أشعة الشمس، لإجراء عملية التمثيل الكلوروفيلي، وكي تقيه العوامل الجوية، وكأنه في(مايوه) البحر. كنت قد شاهدته عارياً تماماً وهو طفل صغير، فقلت إنه ما يزال.. أما وقد صار طولك..! ولكن الإسكندرانيين البحريين لن يستغربوا عريك، حتى لو كنت بمايوه السباحة! ثم إن الناس- هذه الأيام- تعودوا مشاهدة النساء الكاسيات العاريات، ولا يدهشهم كنعان، سواء كان لابساً عُريه، أم متعرياً من لباسه. ولكنك تراه يدير الرؤوس بلون جسده الأخضر، وأيضاً بكلبه الأخضر الملحق معه!

لم تنتشر في الشارع بعد هذه الشريحة الخضراء من المجتمع! تسأل كنعان عن شعوره وهو شبه عارٍ بهذه الغلالة الشفافة، فيلتصق بحنانك وهو يقول لك: قرأتُ كتاب (النبي) لجبران، الذي كنتَ تقرأه لوالدي وهو صغير مثلي، وفيه يقول جبران:

"إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم، ولكنها لا تستر غير الجميل. ويا ليتكم تستقبلون الشمس والريح بثياب بشرتكم، عوضاً عن ثياب مصانعكم. إن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العارية، والرياح تتوق إلى مداعبة شعوركم المسترسلة." وتسأله عن شعوره تجاه لونه النباتي الأخضر، فيجيبك:

- يقول جبران: "إن هذا الإنسان العظيم، هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطاة بأوراق التفاح الجميلة ألا تراني يا جدي أسير على هدي جبران العربي في عُريي وخضرتي هذه؟"

تنتشي بمفهومه العربي للعري الأخضر، بينما يتابع الولد قوله: "يكلمنا والدي عنك كثيراً. يذكرك كل يوم ونحن مع أمي ألبينا، وأختي تَوَدُّد، نستمتع بالموسيقى، أو عندما نزور متحفاً، أو معرضاً فنياً، فنتوقف عند تمثال أو لوحة فنية، أو عندما يقرأ لي قصيدة عربية، فيقول: "قال أبي، وقال أبي.."

لقد كشف لنا ابنك كل حكاياتك الجميلة يا جدي،

وسرّب لنا كل أسرارك الدفينة، ورسّخ في أذهاننا كل تعليماتك المفيدة. ولهذا نحن نحبك يا جدي، وخاصة أختي تودّد، المشتاقة كثيراً لرؤياك!"

"ما أبهى حفيدي الأخضر الممشوق" تقول لبرهان وأنت تتناول حبة فيتامينات مخصصة للعجائز، وتشرب فوقها كأس ماء من زجاجتك الصغيرة، التي لا تفارقك. " شعره عشب نجيل أخضر، يقف مشرئباً كثيفاً نضراً لامعاً، وفي وجهه وجسده لمعة وطراوة أوراق البرتقال وخضرتها!"

- طبعاً يا أبي" يجيبك برهان مزهواً بولده "ما دام أبوه خلية من جسدي، وأمه خلية من ورقة برتقال، فلم لا يكون بلون خضرة البرتقال؟ ويسألك كنعان، وهو ينقل كلبه -الذي تتعلق نظراته بصديقه كنعان وأذناه الخضراوان تتدليان مع العشب الأخضر الذي يكسو جسده الصغير- من حضنه الأيمن إلى الأيسر قائلاً:

- هل يعجبك لون البرتقال يا جدي؟ فتتنهد وأنت تجيبه:

"ما أشهى برتقال **عكا** الشموطي ياحفيدي. كانت الجنة هناك تحت أقدام البرتقال!"

ينقل لهما الآلي حقيبتيهما إلى عربتين كهربائيتين، فيركب كل عربته، ونمتثل لتعليمات رجال المطار الآليين. هؤلاء الآليون يتبسمون لك، ولكنك إذا خالفت أنظمة المطار، تجدهم يكشرون عن أنيابهم، ويقطعون عليك الطريق

فيمنعونك من الحركة بحواجزهم المُلزِمة. ميزتهم أنهم لا يثرثرون كبني آدم. ولكن هذا الصمت المريح، موحش أحياناً، خاصة عندما تحس بأنك وحيد في عالم يكتظ بالناس! ولهذا فلقاؤك مع الابن والحفيد، يشعرك بعودة المياه إلى الأرض المشققة عطشاً. . يقول لك **برهان** ونحن خارجون: "لكثرة ما حدثتني يا أبي عن برتقال عكا اليافاوي، عشقته كثيراً، ولكنني لم أتأكد عملياً من شعوري، إلا بعد أن زرت أختي سمر عائداً من فرانكفورت، فوددت أن أبقى هناك ولو عامل قطف برتقال يافاوي، كي أشمّ رائحة الوطن البرتقالي، ولهذا قررت مزج هذا **الكنعاني** بلون برتقالها الأخضر، وبرائحته المنعشة. ولكننا انتبهنا متأخرين إلى إطالة عمر منتجنا الأخضر، فأنتجنا ابنتي تودد من خلية أمها مع خلية ورقة زيتون، وبعض الحيوانات أنتجناها بالدمج مع خلية ورقة شجرة سنديان، كي تعمِّر كما يعمِّر الزيتون والبلوط الفلسطيني. نحن نعمل على إطالة عمر الإنسان والحيوان، ليصل إلى عمر نوح الذي يقال إنه اقترب من ألف عام. " تدهش بهذه المعلومات، فتتغزّل بكنعان قائلاً: "هنيئاً للبنات اللواتي سيعشقنك!" فيخجل منك قائلاً: "أخجلت تواضعي يا جدي!"

"وأين هي تودُّد؟" فيجيبك **برهان** قائلاً: " الآن، وبعد عمر تسع سنوات، صارت تودُّد فنانة. إنها ترسم على كمبيوترها أجمل اللوحات، وتعزف بالبيانو أجمل الألحان.

نحن نحاول أن نجعلها فتاة أكثر علماً وأذكى وأعلم وأجمل من سابقتها المتفوقة تودُّد، جارية هارون الرشيد. أضف إلى ذلك أنها تتكلم العربية بطلاقة، وتتابع تعلم الآداب والعلوم والفنون وتطور التاريخ، والسلوك الإنساني القويم، فتجد أمّها تنير دربَها بتثقيف وتربية جديدة: "أحبي زملاءك. تكاملي ولا تتنافسي معهم. ساعدي الناس وتعاوني معهم. أحبي الطبيعة، اخدمي النباتات، ولاعبي الحيوانات، وساعديها على الاستمتاع بالحياة والتخلص من الألم. اعزفي الموسيقى للنباتات وللحيوانات. كوني جميلة تري الوجود جميلاً."

يشرب الأخضر من زجاجته الخاصة ماءً نباتياً ممزوجاً بالمغذيات- حسب ما قال لي أبوه ذات مرّة- ثم يسقي كلبه الأخضر، وبعدها يقول:

"في المدرسة يا جدي يوجهوننا لتعلم العلوم والفنون، والحب. معلمونا يؤكدون على استكشاف الفضاء بهدف المعرفة، وليس غزو الفضاء بمعنى الاعتداء، ويطالبوننا بالتودد للحيوانات، وليس قنصها، والتعارف بين الشعوب وليس غزوها." فتقول له وأنتم تخرجون من بوابة المبنى: "نحن نقرأ في القرآن الكريم: (...وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...) ولم يقل لتتقاتلوا."

الشرق والغرب!

عند بوابة مبنى المطار، تقف العربات الفضائية الهيدروجينية، تحمل الركاب بالدور، ثم تطير بهم في الجو. نقود مركباتنا الكهربائية المحملة بحقائبنا فنصل إلى العربة التي ستقلنا. تتقدم امرأة آلية باسمة، فتضع حقائبنا في العربة، ويقفز كنعان بخفة محتضناً كلبه ذا الشعر الأخضر الغزير إلى صندوق العربة، ويتبعه برهان الذي تمسك المرأة الآلية بيده، ثم تجلسك بهدوء إلى جوارهما، وبضغطة زر من يدها الآلية، تغلق علينا باب القمرة، وكأننا نجلس في مركبة فضائية!

تطير السيارة الفضائية لتنقلنا إلى الفندق الذي حجزه لنا برهان. وهذه المركبة تذكِّرك بالقطار الفضائي الذي سافرت فيه إلى سطح القمر، فبينما كنا نفقد الجاذبية الأرضية، شعرتَ بخوف وغربة، وأن انفصالنا عن أمِّنا الأرض هو ضياع ما بعده ضياع! كنتَ كالطفل الرضيع المُبعَد عن أمه! كان فراغ سطح القمر موحشاً ورمادياً، والجو مغبراً ومخيفاً! ماذا شاهدنا في تلك الرحلة التي دفع كل منا لقاءها أكثر من ثلاثة ملايين يوان صيني سوى رمال ومرتفعات، ومنخفضات

فوهات نيزكية، يصل قطر الفوهة فيها إلى عشرات، أو مئات الكيلومترات؟ قمر أجرب ليس فيه نبات ولا ماء ولا هواء يسمح لك بالتنفس! تجمعات من مستعمرات البيوت هنا وهناك لمغامرين وعلماء ومستكشفين وتلاميذ يتدربون على استكشاف الفضاء! لقد كرهت درجات الحرارة الملتهبة في النهار والمتجمدة في الليل، ولولا ملابسنا الفضائية الحافظة للحرارة المعتدلة، والأكسجين المتدفق من أجهزتنا، لمتنا خلال دقائق. ومن يومها قررتَ أن لا تعود إلى مثل تلك الرحلات الفضائية، التي يفرح المسافرون فيها بعودتهم إلى منطقة جاذبية أمنا الأرض.

تسأل **كنعان** عن رحلاته الفضائية، فيجيبك وهو يرخي رأسه العشبي الأخضر على كتفك: "المدرسة ترسلنا كل سنة يا جدي في رحلة فضائية. والرحلة القادمة ستكون إلى مركبة مير الفضائية الدولية! نريد أن نتعرف على الكون الذي فيه خُلِقنا. ومن يدري، فقد نكتشف كوكباً آخر بديلاً لتعيش فيه الأجيال القادمة إذا ما..! في الزيارة الماضية، سبحنا في الفضاء منفردين لمسافات بعيدة، ثم عدنا إلى مركبتنا سالمين.. تجربة مخيفة، ولكنها آمنة وممتعة في الوقت نفسه!"

"ما شاء الله يا **برهان**." تطبطب على كتفه بحنان "ما زلت متناسق القسمات، وصلب العود. لست مثل أبيك العجوز المُخَلّع!".

- ما زلت بصحتك يا أبي، والحمد لله!

" لماذا لا تأتي يا جدي، وتعيش معنا هناك في **هيسن**، فنراك كل يوم؟" ويدعم **برهان** قول ابنه:

- شعبيتك بيننا كبيرة يا والدي. عليك طلب شديد! ما رأيك بطلب الجمهور؟ فتجيبه وأنت تتحسس عظامك التي تؤلمك:

" ما أن نولد، وننزل إلى الأرض، حتى تركض بنا أرجلنا الخائنة، وترسلنا كلاً في طريق، فنتوه في الزحام، وتبقى هذه الأرجل الخائنة تركض بنا، وهي تُخفي علينا كونها تأخذنا في متاهة، مؤدية إلى قبورنا!" فيقول **برهان**: لا تتشاءم هكذا يا أبي!

تغير الموضوع فتسأله: "طمّني عن **ألبينا**؟ كيف تقضون وقتكم هناك؟"

- الوقت يمر بسرعة يا أبي، فأنا وألبينا نعمل ساعات طويلة في معهد **هيسن** للهندسة الوراثية، ولا نخرج منه سوى مرّة، أو مرتين سنوياً. نذهب في الأعياد إلى فرانكفورت، أو إلى أية مدينة أوروبية أخرى. إلا إذا كان هناك مؤتمر خاص بالهندسة الوراثية في **الصين**، أو **كاليفورسيك**، أو حيثما يُعقد!

" أربعون سنة وأنتما مستمران في البحث العلمي؟ حتى لقائي بك هنا، هو نوع من متابعة تجاربك الوراثية!"

– من يدخل عالم الوراثة، يعشقه، ويتورط فيه، ولا يخرج منه إلا عند الممات!

" خذ إجازة من مختبراتك المعتمة، وتعال نلتقي في بيت سمر في عكا، فهناك يحلو السمر مع سمر".

– أتمنى أن نعود فنعيش قريبين من أختي سمر وأولادها في عكا، ولكنني لا أستطيع ترك عملي، فأنا خُلدٌ يتحرك بنشاط داخل نفق معهد الوراثة. ألم يكن أولاد حارة باستور في القرن التاسع عشر يطقطقون له بالحجارة، وهو يخرج من منزله، وهم يتصايحون في وجهه: "المجنون.المجنون! " وها هو المجنون قد اكتشف لهم أشياء مذهلة، وكان أول من أكد ضرورة عزل المرضى بأمراض معدية! تصحح معلوماته بقولك: " الحديث الشريف سبقه بقوله: (إذا دخل الطاعون قرية فلا تدخلوها، وإذا كنتم فيها، فلا تخرجوا منها.) ولذلك نحن نؤمن بضرورة متابعة البحث العلمي، ونفرح لنتائجه الإيجابية.

تنطلق المركبة الجوية سابحة في الفضاء، والمرأة الآلية تقودها وتتحدث معنا، وإذا سألها أحدنا تجيب بقدر السؤال. تخرج علبة دوائك، وتبلع حبة مقوية لمفاصلك التي تؤلمك بسبب السفر، ثم تسألها عن المكان الذي نحن فيه، والمكان الذي نتجه إليه. فتجيبك بانضباط وصوت رقيق، ولكنه يخلو من الروح، ومن حيوية حرارة المرأة: "اسمي شي. نحن

الآن يا سيدي في منطقة مريوط، ونتجه شمالاً، باتجاه البحر."

"ولكن من أين تأتي هذه المياه المتدفقة؟ وأين هي بحيرة مريوط والملاحات المجاورة؟" فتدير وجهها الآلي المبتسم باتجاهنا قائلة: "كانت هنا بحيرة اسمها مريوط. ولكنهم جففوها، وبنوا مكانها مشاريع مختلفة. ولكن كما ترى، فالمياه عادت تتدفق من جديد، نظراً لارتفاع منسوب البحر، ولو تدقق، فسوف تجد أن محافظة البحيرة مهددة بأن تغمرها مياه البحر، بسبب الحرارة المتزايدة. لقد تطاول البحر علينا، وامتد ليغطي مساحات شاسعة من الشواطيء، والمناطق السياحية التي اختفت عن الخارطة المصرية، وانسابت المياه هنا وهناك، ونحن الآن نتدارس حلولاً لهذه التحديات البيئية!"

"كنت أعرف هنا ترعة المحمودية، فأين نحن منها الآن؟"

"ترعة المحمودية؟ لا أعرف شيئاً بهذا الاسم يا سيدي! دعني أراجع وثائقي." تفكر شي ملياً، ثم تتحدث بمعرفتها الإلكترونية: " انتظر يا سيدي، فسوف أجيبك في الحال:

"كانت هنا ترعة اسمها ترعة المحمودية، ففي 8 مايو 1807 أمر محمد علي بحفر ترعة، لتوصل مياه النيل إلى الإسكندرية، ولتكون ممراً مائياً للمراكب التجارية. وكان على مواطني كل إقليم تمر به الترعة، حصة أرض ليحفروها،

وصدر الأمر للمواطنين بالعمل بالفؤوس والمقاطف، وكانت جوقة موسيقية تسير مع كاشف كل منطقة، بالطبل والمزمار. سميت ترعة ومدينة المحمودية، باسم السلطان العثماني محمود خان، سلطان الآستانة، لأن مصر آنذاك، كانت ولاية عثمانية، ثم قسّم الاستعمار الوطن العربي، فتاهت مصر كغيرها من الأقطار العربية، والآن عادت لتكون زعيمة لاتحاد الولايات العربية." تضحك شي وهي تعلِّق: "مناظر ريفية جميلة، أليست كذلك يا سيدي؟ ليتني كنت أعيش في تلك الأيام، كي أرى هذه الجوقة الموسيقية وهي تسير الهوينا على حافة الترعة! أنا أحب الموسيقى الريفية! كنت أتمنى أن أكون واحدة من أولئك!" تلاحظ أنها تتحدث بلغة عربية فصيحة قائلة: "ولكن الصراع في أعالي النيل على استخدام مياه الزراعة من قبل مزارعي العولمة، امتص المياه، ولم يبق منه سوى معالم باهتة، فتم استبدال الترعة بأنبوب مائي ممتد من سد البحيرة، الذي أنشأوه حديثاً فوق تفرُّع ذيلي النيل البحريين الضحلين، ليحجز المياه العذبة عن فم البحر الدافق على الدلتا، وتم ردم الترعة، وتسويتها بالأرض، وتعبيد شارع عريض فوقها، يصل الإسكندرية بالقاهرة. وكأن شيئاً لم يكن! هنا – في الوجه البحري - شح في المياه، يصل إلى درجة الرعب!"

"ما هذه الشوارع العريضة،" يقول برهان وهو ينظر من علٍ إلى معالم الإسكندرية: "وشبكات الري بالرش على

جوانب الطرقات، والعمارات الزجاجية العالية التي تطل من بعيد، وكأنها قطعة من هامبورغ! لم أكن أتصور أن تكون الإسكندرية جميلة بهذا الشكل!" فتقول شي:

"مياه الرشاشات الزراعية هي مياه عادمة مكررة. كانت مجاري اسكندرية تنزل بخراطيم ضخمة إلى قاع البحر، فتدمر البيئة البحرية هناك، وتغطي مدينة كليوبترا الغارقة تحت الميناء الشرقي بطبقة كثيفة من البراز. وأما اليوم، فبعد أن اشترت شركة تيانجن الصينية امتياز إدارة مدينة الإسكندرية، وكافة حقوقها في القبض والصرف والبيع والشراء فيها، أنشأت محطات لمعالجة مياه المجاري، فصارت تنقيها وتضخها للري، وتصنع من مخلفاتها الصلبة أسمدة عضوية، فصارت البيئة نظيفة كما ترى. ثم اشترت الشركة مدينة كليوبترا التي كانت غارقة تحت البحر، فعمّرتها وأنشأت فيها منارة الإسكندرية الحديثة، لتخلف سابقتها، أعجوبة العالم القديم. وأخيراً فتحوها للزوار".

يبدو أن الآلية تعرف ما تخفي صدور المدينة، فتشاركنا الحديث، كي تشعرنا بحيويتها، وأنها ليست صنماً يقود مركبتنا الفضائية، فتقول: " لقد تسبب بيع مديرية التحرير الزراعية في البحيرة إلى مستثمر "استراتيجي" أجنبي بمئة مليار يوان صيني - لتسديد بعض الديون الأجنبية - بتظاهرات ومعارضات شعبية مقلقة. وكان بيع حقوق وممتلكات هيئة قناة السويس لمستثمر استراتيجي، لمدة تسعة

وتسعين عاماً هو السبب في انهيار الاقتصاد، مما أفلس البنك المركزي، وسبب هيجاناً جماهيرياً قلب الموازين، فاضطرت مصر للانضمام إلى اتحاد الولايات العربية، لقناعتها بأن الأمم التي تريد أن تبقى ولا تنقرض، مثل انقراض عهد الفراعنة على يد كليوبترا، عليها أن تتحد ضمن مناطق عظمى، مثل الاتحاد الأوروبي، والاتحاد الصيني، واتحاد أمريكا اللاتينية، وبعكس الضياع الأفريقي الذي استنزفه المستثمرون "الاستراتيجيون" الأجانب. فجاء الاتحاد العربي ليقف عملاقاً بين عمالقة العالم، وليحمينا من العاديات، والمتربصين في ضعفنا!"

تندهش مما ترى، فتقول لهما: "كانت هنا بيوت منطقة الحَضَرَة طينية، ريفية الطابع، يقطنها فلاحون يلتصقون بالمدينة، مثل التصاق قشرة جوز الهند الجافة بلبِّها الأبيض. أتذكّر فلاحاً كان يحرث في هذه الأرض، المزروعة اليوم بالعمارات الشاهقة، في ربيع عام تسعة وستين وتسعمائة وألف، ونحن نطبِّق درساً عملياً لأساسات مستشفى الحضرة، وعندما ألقيتُ السلام على الحراث، دعاني بحرارة لشرب الشاي معه. كان شاي الإبريق يغلي فوق نار موقدة من حطب المزرعة، تحت نخلة باسقة، فصب لي الشاي "الحبر" بكثافة دبس قصب السكر، في كأسه الزجاجية المغبشة! كانوا هنا يزرعون الحبوب والبقول، والقطن الطويل التيلة، وأشجار الحمضيات والجوافة والمانجا، ويربون

الجاموس والنحل، فيبيعون أهل المدينة حليبها وعسلها وأجبانها وزبدتها، والبتلو الزهري الرضيع."

" ما هو البتلو الزهري يا جدي؟" يمد **كنعان** رأسه العشبي الأخضر سائلاً: "هل هو زهر مصري؟" فتجيبه باسماً: "البتلو يا حبيبي هو لحم عجل رضيع. إنه طفل مدلل للبقر المصري، ولحمه زهري اللون". فيخاف الأخضر سائلاً: "وهل كانوا يذبحون أطفال البقر يا جدي؟"

"كانوا وما زالوا يذبحونها يا حفيدي الجميل!" فيشرب **كنعان** قليلاً من ماء زجاجته ثم يقول: "إنهم مجرمون، قساة القلوب! أنا أرفض هذا القتل! لماذا لا يدللون بقرهم يا جدي، على الأقل كما يدلله الهنود؟" فيجيبه أبوه: - عندما يتعمم لونك الأخضر هذا يا ولدي، سينتجون عجل بتلو أخضر غير قابل للذبح، مثل كلبك هذا!

يضع **كنعان** مصاصة الماء في فم كلبه الصغير ويواصل ثورته الخضراء قائلاً: "أستغرب كيف ينقضُّ الإنسان، ويعتدي على ممتلكات الحيوانات، ويشرب حليبها، ويحطم خلايا نحلها، ويسرق منها العسل؟ يجب أن تبقى الطبيعة حُرّةً دون نهش. يجب أن لا تكون حياتنا مبنية على موت الآخرين! يجب أن لا نقتل ونذبح ونعتدي كي نعيش! يجب أن نعيش، وندع الكائنات الحية الأخرى تعيش مثلنا. هذه الكائنات دُررٌ متكاملة على سطح هذه الكرة الأرضية النادرة

في الوجود الكوني، فكيف نقتلها!" فيجيب أبوه: - أقنع جدك بهذه الثورة الخضراء!

تستوعب ما يقولان، ولكن هذا المفهوم الجديد، ليس سوى علم لم تؤهل نفسك لمتابعته. فأنت ذو صلاحية منتهية، بعمرك المديد هذا." دعهم يحاولون." تقول في نفسك. ولتعريفهما بماضي المدينة تتابع قولك: "كان سكان هذه المنطقة يشتغلون بأعمال الوساطة بين الفلاحين وأهل المدينة، فجلود الأبقار الريفية هي مصدر مصانع الأحذية الإسكندرانية الجميلة، وفولهم يصير في الإسكندرية (فطار الأمير، وغداء الفقير، وعشاء الحمير.)، وقطنهم طويل التيلة، المحَسّن في مختبرات الأشعة النووية المصرية، هو مصدر الألبسة الداخلية المميزة في العالم، وزيت القطن هو مصدر زيت صحن الفول وكافة الأطعمة، وحليب أبقارهم هو مصدر كل مشتقات ألبان أهل المدينة". يشمئز **كنعان** مستفسراً: "ولماذا يصنعون الأحذية من جلود الأبقار، وليس من مخلفات النباتات وأوراقها الميتة؟ أنا أرفض أن ألبس تلك الأحذية الجلدية المقتولة!"

ينبح كلبه الأخضر بهدوء نباحاً معترضاً، يشعرنا بأنه يؤيد وجهة نظر صديقه **كنعان**، فيضحك أبوه على هذا الصديق الوفي. تنتبه إلى أنكم سابحون في فضاء العربة الطائرة في الهواء، والمقابلة لعربات قادمات من الاتجاه المعاكس، فتسأل المرأة: "أين نحن الآن يا **شي**؟"

"نحن الآن يا سيدي على بعد خمسة كيلومترات من فندق جوانج تشو العظيم، سنكون هناك بعد دقيقة. ها هو الفندق يطل علينا ببرجه الشهير!"

- أسهم تجارية لا تعرف لها وطناً. يقول **برهان**: ففي لحظات، تنتقل مليارات الأسهم من مستثمرين غربيين إلى صينيين أو إلى هنود، أو (كاليفورسيكيين.). لقد انتقل مركز الحضارة الآن من الغرب إلى الشرق. فبعد أن كانوا يسموننا (الشرق الأوسط، والشرق الأقصى)، لأن حجر الرحى كان عندهم، والشرق هو الذي يدور في فلكهم، صار الصينيون الآن يسمون الأوروبيين **الغرب الأوسط** والقارة التي بعدها **الغرب الأقصى**.

"لاحظ أن الفندق ينتشر على كل **منطقة الرياضة ومنطقة الإبراهيمية**، ويدوس بأقدامه الجبّارة داخل شاطىء البحر". تلفت نظره لما ترى "يبدو أن أهالي اسكندرية صاروا ضيوفاً غرباء على هذه الشركات العولمية المالكة لكل شيء في المدينة وما حولها!"

نقترب من الفندق الصيني الذي يواجهنا ببرجيه العاليين، فيقول برهان: - رغم أنني قبل الحجز، شاهدت بالإنترنت كل مداخله وبهوه، وأجنحته، إلا أنني لم أكن أتصوره بهذا الجمال والبهاء!

تهبط العربة الجوية بنا عند مدخل الفندق، فنرى الجو غائماً، والسماء رمادية مكفهرّة، والضباب يهاجم العمارات،

ويرتطم بالأرض، والرياح الغربية الشمالية تتحفز للمطر على ساحل الإسكندرية. تبلع حبة هرمون المناعة، ثم تقول:

"فندق على مساحة هائلة! أين هي حواري وشوارع الإبرهيمية التي كانت يومها حديثة؟ لم يبق سوى بعض البيوت الآيلة للسقوط!"

هرم فندقي!

أمام واجهة الاستقبال، يذكر برهان للمرأة الآلية رقم الحجز، فتتأكد من مطابقته، وتنحني، وترحب بنا ترحيباً شديداً، ثم تقول: "أرجوكم أن تنتظروا هنا في القاعة قليلاً، لتجهيز الجناح لاستقبالكم." نجلس في بهو الفندق على المقاعد الهوائية المنفوخة، فتشاهد في الزاوية اليمنى تمثالاً كبيراً للتنين الصيني الأصفر وهو يضع تحت قدميه مجسماً للكرة الأرضية! تخاف من التمثال، فتسأل برهان: "ترى هل تخطط الصين العظمى لوضع الكرة الأرضية تحت قدميها مثل الإمبراطوريات التي سبقتها، أم أنها ستحقق المساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات لكافة الشعوب؟"

يترك كلبه الصغير يمشي بغرور، متمايلاً بصوفه الأخضر الغزير بين المقاعد وفوق السجاد الصيني، فيندهش به السياح وزوار الفندق المتجمعون في القاعة الرئيسة، مستمتعين بمداعبته من بعيد، بينما يجلس **كنعان** على حافة مقعدك البالوني ملتصقاً بك وهو يقول: "يسحرني يا جدي هذا الشاطىء الأزرق الذي شاهدناه من السماء! نحن في **هيسن** نعيش بلا بحر. عدة بحيرات جميلة متباعدة هنا وهناك،

ولكننا لا نجد مثل هذا البحر الدافىء، الذي لا نهاية له، إلا عندما نذهب إلى هامبورغ، وإلى مياه البلطيق الباردة. هذه المناظر الإسكندرانية تسحر القلوب!" يضحك وهو يقول: "تقفز من هنا، فتدب رجلك في أثينا، على الطرف الآخر من البحر!" فتجيبه وأنت تتحسس شعره العشبي:

"كم أنت ذكي ومثقف يا كنعان الحبيب! لقد أدهشني منظر البحر مثلك، فأنا لم أشاهد هذا المنظر الجوي من قبل، لأننا كنا نراه من الأرض، ولم نكن نطير في سماء الإسكندرية. كانت بيوت وعمارات الشاطىء عام 1966 تتراوح ارتفاعاتها من طابق واحد إلى خمسة عشر. وأما هذه العمارات الزجاجية المئوية الطوابق، المغرورة الارتفاع، والمجاورة لخرائب موحشة، فهي عولمية الحضارة!"

تفكر بصمت وأنت تشاهد بقايا عمارات وبيوت الإبراهيمية آيلة للسقوط، ومحطمة مثل بقايا قوارب قديمة محاصرة في زوايا الميناء، تنتظر من يجهز عليها وعلى من فيها من عجائز هرمة أبت الانصياع للتغيير الذي ينخر كل ما حولها، فصار لا بد من تغييرها هي نفسها!

وفي الساحة التي تظهر خارج زجاج الفندق، تشاهد خادماً آلياً يسير مرافقاً لرجل عجوز وهو يحمل صندوقاً تحت إبطه، وترى رجالاً آليين يخرجون ويدخلون من وإلى العمارات، وثلاثة أطفال أشقياء بأسمال بالية، يلعبون في الخرابة القذرة، وصغاراً يافعين يقفزون بأحذيتهم الزمبركية

بسرعة فائقة، مثل حيوانات الكنغر. تتخيل لو كان لدينا مثل هذه الأحذية التي تسابق ترام أيام زمان، لاستخدمناها لتوصيلنا من وإلى الجامعة، كنا سنقطع المسافة قفزاً كالكنغر، فنصل في دقائق معدودات. لقد أثّر عصر السرعة في كل شيء، حتى المشي على الطرقات، صار قفزاً!

يبدو القلق في عيني **كنعان** الخضراوين، وهو يسأل: "هل سنذهب الليلة إلى المستشفى يا أبي؟"

"لا داعي للقلق يا حبيبي." يجيبه **برهان** بابتسامة مطمئنة: "سنكون هناك غداً حسب الموعد المحدد إن شاء الله، فنكون قد استرحنا من وعثاء السفر، واستمتعنا برؤية جدك معنا."

يتحسس الولد رأسك المحلوق على الصفر، والذي يشبه قرعة اليقطين الصفراء الناضجة، فتستمتع بتفاعل عاطفته مع جده:

"لا أغلى من الولد، إلا ولد الولد". تقول له مُطوِّقاً خصره الأخضر بذراعك: " أبوك يشكل امتدادي، ويحقق لي في الحياة ما لم أستطع تحقيقه، وأما أنت، فتشعرني بمتعة نجاح أبيك في تغيير الكون، بهذا المنتج الأخضر الجميل من أحفادي." فيتربع أمامك على الأرض بحذائه المصنوع من مخلفات أوراق النباتات قائلاً:

"أنا سعيد بكوني من جيل أخضر رائد على سطح الأرض. ليس لوني الأخضر هو المميز فقط، بل الشكل

والمضمون، والأهداف الإنسانية التي تغيرت، فالعالم بعد تعميم الإنسان الأخضر، لن يعود يرى الجنس الأسود، ولا الأبيض، ولا الأصفر. كل هذا التمييز اللوني سينتهي، ولن يبقى هناك تعصب، ولا اضطهاد عرقي، وكل الناس سيكونون سواسية، كأسنان المشط. إنه مستقبل بديع ياجدي!"

تعجبك نضارة صحته، وتناسق جسده الأخضر، الذي تكشفه ملابسه الشفافة وأنت تقول: "الحديث الشريف يقول: **المسلمون سواسية كأسنان المشط**".

"هذا صحيح". يتدخل برهان في الحوار "ولو أن بعضهم يقتل البعض الآخر. ولكن نظريتنا تقول: **الناس سواسية كأسنان المشط**. وليس المسلمون فقط. نظرية إنسانية بحتة، ليست موجهة ضد أحد."

افتح يا سمسم!

تتقدم منا امرأة آلية، تبدو فتاة بريئة بأنوثة صينية، وتبلغنا أن الجناح قد جُهِّز، فنقوم للتوجه إلى المصعد، ويشير كل منا بجهازه الخلوي نحو حقيبته، فإذا بها حية تسعى باتجاه مصعد الفندق، الذي يفتح فوراً، فندخل برفقة السيدة. أرقام المصعد تقفز كل عشرة طوابق بلحظة واحدة، فتظهر أمامك 10، 20، 30، 40، وليس 1، 2، 3، 4، وخلال ثوان معدودات، نكون في الطابق التسعين، حيث جناحنا الخاص. يفتح برهان باب الغرفة بالرقم السري المسجل على المحمول. ويقول لك **كنعان** بينما أبوه يدخل الباب المفتوح: "باب بيتنا يا جدي في ألمانيا يفتح بناء على صوت الشخص، وليس برقم سري، فإذا قال أحدنا: (افتح) أمام الباب، فإنه يفتح تلقائياً. صوتك عندنا هو بصمتك الفريدة، فلا يقلد ذبذباته أحد." فتحدثه عن سيرة المفاتيح قائلاً: "في زمن الإنسان الأول، كانت الأبواب تغلق بالحجارة، وعلى زمن أجدادنا الكنعانيين، كان المفتاح خشبياً، بطول حوالى ذراع، وعندما كنا شباباً، كانت الأبواب تُعامل بالمفاتيح اليدوية، التي تضاءلت، لتصير بحجم عقدة

الإصبع، وبعدها صارت بطاقات رقمية، نُدخِلها في شق الباب، فيفتح. وأما في زمن علاء الدين، فكان يقول للباب: (افتح يا سمسم)، فيفتح سمسم باب المغارة. وذلك الأمر بالفتح، لا يختلف عما في أبوابكم. إنها ذبذبات الصوت. معنى ذلك أنكم في ألمانيا تتبعون تقنيات ألف ليلة وليلة، في أدب الخيال العلمي واستشراف المستقبل، التي سبقت كل العصور إلى التطور. وعندنا الآن في الإمارات، يضغط الشخص ببصمته على مقبض بابه، فيفتح تلقائياً. "

تدخل الآلية معنا، بينما الحقيبة تسعى إلى مستقر لها، والمرأة ترحب بنا، وتوضح لنا كيفية استخدام مرافق الجناح، وتشغيل التلفاز الجداري، وكيفية استخدام جهاز الهواء الصحي(*)، من خلال جهاز التحكم به بواسطة محمول كل منا. "سادتي أهلاً بكم في بيتكم". تقول لنا وهي تنحني احتراماً: "اسمي تشين7. أي استعلام من طرف أحدكم، فلينطق اسمي تشين7 بالمحمول، وخلال ثوان سأجيبه بنعم سيدي. نحن نلبي طلباتكم مهما كانت. لا يوجد عندنا شيء اسمه العيب! كل شيء عندنا يُقيّم بالنقود! وعندكم مثل عربي يقول: (اللي معه فلوسه، بنت السلطان عروسه)! "

(*) قرأنا في مذكرات المرحوم مشهور أن الصناعيين لا يعبأون بتلويث الهواء، لأن التلوث يمنحهم فرصة تعليب هواء صحي، وبيعه ليبث داخل الحجرات المغلقة، مثل المياه المعلبة، المخصصة لمن يستطيعون الشراء!

يسترخي كل منا في غرفته الخاصة، وينفرد كلب كنعان في سرير صغير جميل مخصص للكلاب، بينما تقضي الوقت تثرثر مع نفسك، متذكراً أيام مصر الجميلة: فحينما دخلت محطة قطارات باب الحديد في القاهرة لأول مرّة، متجهاً إلى الإسكندرية، وسط زحام لم تشاهده في حياتك. كنت تعتقد أن هناك مظاهرات شعبية، أو أن هناك استقبالاً حاشداً للرئيس، أو لشخص مهم. وبين الزحام يرتفع تمثال عملاق لشخص لا تعرف اسمه، فتسأل السائق الذي يجيبك وهو يسعل بسبب التلوث البيئي قائلاً: " هذا هو الملك رمسيس العظيم. " فتقول للسائق المريض: " سبحان الله، يعيشون عظماء فوق جثث مواطنيهم، ويموتون عظماء في مقابرهم، ويخلدون عظماء في الدنيا والآخرة! أتذكّر أمي وهي تصرخ متشنجة في وجوهنا من غُلْبها ذات يوم:- أي هو ربنا - أستغفر الله العظيم - ماذا سيعطينا في الآخرة؟ وهل لديه وقت، كي يحقق لكل مسلم ما يرضي مزاجه الخاص، ويكيّفه ويسعده؟ سيقول للناس:- فليعد كل منكم إلى عمله الذي كان يشتغل فيه في الدنيا!" فيقول السائق الغلبان بصوته المبحوح: "مصيبة إذا حصل شيء كهذا، فالملك فاروق سيعود ملكاً، والسائق مثلي سيعود سائقاً!" فتجيبه ساخراً:

"لا تستغرب، فهذا رمسيس الثاني، الذي كان عظيماً فوق رقاب شعبه، يقف اليوم شامخاً متعالياً في باب الحديد، أعظم من كل الناس." وبالفعل، فعندما شعروا عام 2006،

أنه كاد أن يختنق بتلوث البيئة، خافوا عليه، فنقلوه إلى خارج ازدحام باب الحديد، ولم يخَافوا على المواطنين الذين يموتون في الطرقات كل يوم بسبب التلوث، ولم ينقلوهم إلى برٍّ أرحب، أو يعالجوا التلوث بشكل جذري! وفي عام 1977، زرتَ الاتحاد السوفياتي السابق، فشاهدتَ في لينينغراد، ضريح بطرس الأكبر، بتلك الأبهة والجلال، ورخام الجرانيت البني المزركش، المجلّل لضريحه، فقال لك الدليل الشيوعي يومها: "هذا هو ضريح بطرس العظيم". فسألته مندهشاً: "لماذا تقول: (العظيم)، ما دامت الثورة الشيوعية قد قامت ضده، وما دمتم تقولون إنه كان معادياً لحرية شعبه؟" فقال الدليل الشيوعي: "إنه تاريخنا العظيم!" وها هو بطرس العظيم، يعود عظيماً مرة أخرى، وتنسلخ مدينة لينينغراد من جلدها، لتعود مدينة سان بطرسبرغ مرة أخرى! ترى هل سيعود لينين العظيم في المستقبل، عظيماً مرة أخرى في لينينغراد؟

بُلطية أنفوشية!

في زقاق ضيق من هذه المنطقة، سكنتَ أول مرة، خلف عمارة ما زلتَ تحفظ رقمها 12 / 815 طريق الجيش، حيث كانت أم عربي تستأجر شقة فارغة في الزقاق المذكور، في منطقة كليوبترا الحمامات، مكونة من ثلاث غرف، فرشتها، وتؤجرها لطلاب جامعيين. وعندما دخلت لمشاهدة الغرفة، عرّفتك على الساكنَين الآخرَين: **محمد النجار من غزة، ومحمد محمد محمد من المنصورة، وأنت ثالثهم من عكا.**

وأم عربي امرأة أنفوشية في الستينات من عمرها، من أهالي رأس التين، تلبس ملاية لف، وتضع على أنفها خماراً من الخيوط السوداء، على شكل شبكة الصيادين، وفوقه حلقة خشبية أسطوانية صغيرة تشبه طُعم صنارة الصيد. ويبدو الخمار معبراً عن عادات وتقاليد ومعالم وجه امرأة بحرية، بنت بلد، إذ تُظهِر الشبكة فمها وذقنها المدقوق بوشم نساء البلد وكأنه رأس سمكة بلطية قد كممتها الشبكة واصطادتها، فمنعتها من المرور. إنها جمالية بلدية قديمة لافتة للنظر. أزياء ملابس، لم يَرقَ فرزاتشي ليصمم مثلها. أزياء بلد، وأي بلد؟! إنها أنفوشي الإسكندرية، التي كانت في الأيام

الخوالي أهم من شارع سليمان باشا في القاهرة. كانت الإسكندرية هي عاصمة العصر البائد، وعاصمة الخواجات واليونانيات، وميناء الاستيراد والتصدير، حيث يلتقي فلاحو بحري البسطاء، مع تجار المدينة الألُعبانيين، وتغص معارض التجارة بالمسموحات، وتتعفن مواخير التداول بالممنوعات، وتنزوي مكاتب الخدمات الخاصة بعملاء الغرب.. وهي البلد الذي نفي منه الثائر سعد زغلول إلى جزيرة مالطا، وملتقى أعضاء المخابرات الأجنبية، ومنتجع العشاق، وبؤرة اللواطيين والسحاقيات، ودور السينما والمسارح وزقاقات الملاهي، وأوكار الكباريهات والمومسات، وعاصمة الملك فاروق الذي غرس قصوره في رأس التين والمنتزه والمعمورة وكل مكان، وبلد سيد درويش، ومقر بيرم التونسي، ولا تنسَ أنها مكان ولادة جمال عبد الناصر. ولكن العهد الناصري أمّم كل هذه القصور وحدائقها، وحوّلها إلى منتزهات عامة للشعب.

كنا نتنزه في حدائق المنتزه الساحرة، ثم ندخل إلى القصر المشيد على طراز قصر غرناطة الأندلسي، مستكشفين طوابقه التي نصعدها دون أن نعرف في أي طابق نحن. ذلك لأن تصميم القصر كان مدهشاً، فهناك طريق سحري، يوصلك إلى الطوابق، دون أدراج. وحاول القائد بقدر المستطاع تعريب الإسكندرية، وتنظيفها من ملوثاتها غير الإنسانية، وزرع منطقة الرمل وحتى باكوس بالعمارات

السكنية المخصصة لأبناء الطبقة المتوسطة، فجعل جماليات الأنفوشي ورأس التين في خبر كان! ولهذا اتجهت أم عربي إلى منطقة الرمل، واستأجرت شقة فارغة، ودفعت خلوّها الشيء الفلاني.

تأخذك أم عربي في جولة داخل شقتها الصغيرة قائلة: "إذا خرجت من غرفة النوم، أطفىء النور خلفك، وإذا خرجت من الحمام أو المطبخ، أطفىء النور خلفك". تقول ذلك بصرامة وانضباط: " لا تتأخر خارج المنزل، فإذا تأخرت بعد التاسعة مساءً، فلا تعد إلى منزلنا، ويفضل أن تبقى عند من أنت عندهم! " ومن يومها وحتى يومك هذا، وأنت تنضبط في إطفاء الكهرباء خلفك، ولكنك لم تنضبط في التعامل مع ابنتها الجميلة نادية!

في الليلة الأولى من إقامتك، رحت تسمع طبولاً وأغاني حفل، فتطل من شرفة الشقة. لا تعرف ما إذا هو حفل خطبة، أم فرح زواج، أم حفل عيد ميلاد! تشاهد من علٍ تجمهر ناس يغنون ويرقصون فوق أرض الزقاق الترابية، وبينهم راقصة تهز وسطها، حافية بين الجموع، تتلوى مثل سمكة كبيرة أُخرجت الآن من البحر، وهم يشوونها على نار مشتعلة. إنها تهتز وتدور بثوب مشقوق إلى نهايته من الجانبين، وهي تهفهف بالشقين الطويلين، فتكشف عن بضاعة بلون القهوة الشقراء. تشاهد وأنت تطل من الطابق العلوي فخذيها السمراوين المتمردين على الاحتشام. منظر مدهش

لشاب لم ير في حياته أكثر من وجه امرأة. والمحتفلون المتحلقون حولها من رجال ونساء، تجدهم مختلطين متماوجين متناغمين مع الرقص الذي يحرك حتى ملابس الغسيل المتدلية من فوق رؤوسهم. ويبدو أن الملاعين يشاهدون كلسونها، ذلك لأنك تسمع وترى أحد الخارجين على القانون يكرر قوله لها، كلما ينتبه ويلاحظ المخفي الأعظم:

"هوي له! هوي له!" فينفلت المنضبطون والخجولات بضحكات صاخبة، تثير فضول أهل الحارة المتفرجين من الشرفات. وفي وسط الجمع، تشاهد شاباً نحيلاً بملابس وطاقية صيادين بحري، يقف متماوجاً بيديه ورأسه ورجليه ومؤخرته بين الجمع، ويصيح بأغنية أيّ كلام، ويقول كلاماً فارغاً:

"حماده معاه ده، عَبَدني عباده،
وجماعتة فرادى، صايرين في زيادة.
وتعال يا حبيبي، اعمل لك دادة!
وتتّوه في الزحمة، تشتري لحمة،
يدّوك زيادة".

فترد عليه الراقصة بالغناء المغناج:

"وبياع الخضار، حُبّه جَبار،
وعليّ بيغار، في الليل والنهار،
طعماني خيار، وشرّبني سيجار،

وملّى لي الدار، صغار وكبار،

خلوا لي عيشتي، عذاب ومرار!"

يشدك في الحفل منظر الجمع من النساء والرجال، وأهل الحارة المتماوجين في لمّة الفرح، والمارّة الذين يتوقفون وينبهرون بما يشاهدون، فيعيدون بشكل جماعي غناء ما تقوله اللبؤة، على شكل كورَس غنائي، ويردون على الراقصة التي تتشخلع، واضعة على رأسها قنديلاً مزركشاً بثريا قطوفها دانية. ويستمر المُهرِّج يتبادل معها الغناء بكلام فارغ من هذا النوع، لا تفهم منه شيئاً.

تسمع أم عربي أصوات الفرح، فتطل معك من الشرفة دون انفعال، فتسألها عن الحفل، وماذا يقول المغني؟" كلام فارغ!" تجيبك مبتسمة هذه المرّة، فيتحوصل ذقنها الموشوم بنقاط خضراء كُحْلية، كنوع من جماليات المرأة الأنفوشية: "ناس يريدون أن يفرحوا، فيعملون أي شيء. (زيطة وزمبليطة) هذا هو الفرح لعروسين عجوزين، العريس عتريس، يشتغل صياد سمك، يصطاد له عشر سمكات في اليوم، يقوم يبيعهم بريالين، ثلاثة، ويريد الزواج من الغسالة عقيلة. فأي عرس تريد أن تعمل لهم أكثر من استئجار صالة ترابية في هذا الزقاق الضيِّق، ببلاش، وشوية ناس فاقدين، قاعدين في الحارة، منتظرين فرح ولاّ ترح، تلاقيهم نفسهم يقضوا وقتهم في ميتم، يشبعوا فيه لطم." ثم تنهي وجهة نظرها قائلة: "يا الله، يا الله! روح شوف كتبك، وأدرس لك درس ينفع

المسلمين، وسيبك من الكلام الفارغ، اللي لا يودي، ولا يجيب!" تدخل غرفتك، وتنسى الدراسة، والذين يدرسون!

أهم شخص يزور الشقة أحياناً هي ابنتها نادية، في الثامنة عشرة من عمرها، إذ تأتي أحياناً مع أمها من رأس التين، وأحياناً تأتي وحدها، فيزورها شاب من الجيران (متنَّح) مثل البغل اسمه محمد نوح، فيقفان يتهامسان في المطبخ المغلق هذه المرّة. وأنت لا تفهم ماذا يصنعان هناك! والبنت الدلّوعة سمراء، وعيناها سوداوان ضيقتان، طولها ماشي حاله، ووجهها فرعوني على إغريقي، مصقول بماء البحر، ولشعرها المقصوص تحت أذنيها تسريحة كثيفة، تراها ممتلئة الجسد، ولكن بلا إفاضة. وعندما تكون وحدها تدخل إلى الحمام الوحيد في الشقة، وبعد ساعة من الاستحمام، أو الله أعلم ماذا تفعل، تخرج وهي تغني إحدى أغاني شادية: (غاب القامار يا ابن عامّي، يالله راوّاحني..)

تدخل أنت الحمام الوحيد في الشقة بعدها، فيبهرك كلسونها الملون، الرقيق الرفيع، وصدريتها الزهرية، ملقيين على مغسلة الحمام، وأحياناً على بلاط الحمام، لا تدري ما إذا كانت تتركهما للعرض، وكأنها تقول: نحن هنا! أو هي العادة، أن تترك الصبية مثل هذه الملابس في حمام شقة شباب، كي تُغسل فيما بعد.

وأحياناً تجلس الصبية وحدها في المطبخ، تغلي فنجان قهوتها، أو كأساً من الشاي، على مهلها، وتضع مشطاً

معدنياً، تسخنه على نار طبّاخ الغاز، ثم ترفعه محروقاً، وتمشط به شعرها، وتلفه على شكل حلزوني. تشم رائحة الشعر المشوي الخانقة، من داخل غرفتك، فتستقطب فضولك. تدخل المطبخ لمراقبة شيء جديد عليك؛ تسليك ولف الشعر بالمشط المعدني المشوي. أنت لا تفهم سر انجذابك للفتاة! والحقيقة أنك كنت تحب أن تشم رائحة الأنثى الشابة التي تقف في المطبخ، ولكنك مثل اللوح، لا تعرف كيف تتحدث مع الإناث. فقط تستغرب كونها تشوي شعرها، ولا تتدخل فيما عدا ذلك. تُعدُّ كأساً من الشاي، ثم تعود مندهشاً إلى غرفتك.

كل هذا كوم وغباؤك في التصرف مع نادية، جبل من الأكوام المتفاقمة. إن سوء تصرفك معها لا تعادله قلة أدب. يبدو أن الجميلة قد أحبتك من أول نظرة، وأنت تدخل الشقة مغروراً بشبابك، وبطولك الفارع واندفاع صدرك ونحول وسطك، وشقار وجهك، وعينيك الزرقاوين الواسعتين، فلا تسلِّم على أحد.

أنت لا تتفحص صورتك في المرآة، لترى كم أنت مغرور، ومُعَقّد، وأهبل، أو جاهل في التصرف. وقد تكون تعاليم جدتك أنيسة هي السبب، فهي التي قالت لك: "درب البنات شوك!" وعزّزت أمك زكية نصيحة الجدة بقولها: "لا تدع بنات (استنكرية) يضحكن عليك!" فكنت تضحك لغلطتها، وتقول لها مصححا: "يا اماه اسكندريّة،

وليست "استنكريّة"! فتكرر أم غالب قولها: "استنكرية استنكرية! أي أنا شو بيعرفني؟" وتضيف جدتك أنيسة محذِّرة: "البنت تضحك على الشاب، وتفضِّي جيوبه من فوق ومن تحت! وتجعله يقعد على البلاطة! وحالما تنضب جيوبه، تتخلى عنه!" كلام فارغ كثير من هذا النوع كنت تسمعه قبل مغادرتك إلى اسكندرية كليوبترا الجميلة، ذلك لأن الجدة أنيسة لم تكن تعرف الفرق بين (كيلوبترا، وكيلو بامية!) ولم تعرف أن بومبي ويوليوس قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس قيصر بعظمتهم، قد غرقوا في جسد الجميلة، فأية نقود هذه التي ستصرفها، مقارنة بأنطونيو الذي صرف عمره بين ساقي الساحرة الإسكندرانية؟ وهل أصلاً كنت تملكُ نقوداً في جيبك، كي تنفقها على هذه الصبية الشهية؟ لكنك خاوي الجيبين، معصوب العينين، مخصي الشفتين، أعمى البصر والبصيرة! تنتبه إلى نادية، طفلة رأس التين، ودلوعة أمها، ووحيدتها، وهي تراقب شبابك، وبهاء طلعتك، معجبة بك، ومعتقدة أنك قيس ليلها. وكلما زاد غرورك وتجاهلك، زادت شهيتها للتقرب منك.

تقول لك أم عربي، وهي تحرك قهوتها على نار المطبخ: "لاحظ يا مشهور أن نادية هي وحيدتي، فبعد زواج ابني عربي، واستقلاليته عنا، خاصة بعد غرق أبيه الذي كان صياد سمك معروف في كل بَحَرِي..." تفاجأ بالخبر، فتسألها: "هل غرق زوجك، ومات في البحر؟"

"نعم، غرق ومات في البحر!" تسألها بتأثر، وكأن الحادث قد حصل بالأمس: "وكيف حصل ذلك؟" فتجيبك بهدوء، وبلا اكتراث، وكأنها تتحدث عن السمّاك **عتريس**، الذي تزوج **عقيلة الغسالة** أمس: "كان يصيد السمك. لا نعرف التفاصيل. يبدو أنه كان يعارك عجول البحر، هو يشد وهي تشد! فوقع وغرق بعد صراع مدوِّخ مع أمواجه! وبعد ذلك، استلم **عربي** منه مهنة صيد البحر. مهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء، عن الأجداد."

"ماذا تقصدين بالأجداد؟ فكيف مات جد عربي إذن؟" تنظر الأنفوشية إليك وما تزال تحرك قهوتها، فتقول: "غرقاً في البحر." تندهش سائلاً: "زوجك غرق في البحر، وأبوه من قبله غرق في البحر؟ تقصدين أن كلاً منهما كان صياد سمك، فيرث الابن من أبيه مهنة الغرق في البحر؟ ومع ذلك سمحت لابنك أن يرث منهما المهنة نفسها؟ إنها مهنة الموت إذن؟"

تتنهد محزونة وهي تقول: "ماذا نفعل؟" فتفور قهوتها، وتندلق رغوتها على عين النار، فتطفئها، بينما ترفع العجوز الغلاية، وهي تتابع قولها: "هذه سنة الحياة! نحن أهل بحري مهنتنا موقوفة للبحر، ونحن مرهونون للبحر، ورزقنا من البحر، وحياتنا وصحبتنا مع البحر، ونهايتنا إلى البحر، تماماً كأجمل العرائس التي كان الفراعنة يرمونها لتكون هبة النيل. هناك عروس النيل، وأما هنا، فنحن عرائس البحر!"

"ما دامت نهايتكم للبحر، ألا تخافين على ولدك من مهنة الصيد وأنت تشاهدين أباه ومن قبله جده يموتان غرقاً في..؟" فتُعدِّل الأنفوشيةُ الشبكةَ التي تصطاد أنفَها الطويل وذقنها المدقوق بالوشم الكحلي، وتنطق السمكةُ البلطية من داخل شبكتها: "وأنت، أين يموت أهلك وأقاربك؟" فتقول: "يموتون على الفراش!"

"وأين يموت جيرانكم ومعارفكم؟" فتجيبها مستغرباً سؤالها: "على الفراش طبعاً!" فتقول العرّافة: "إذاً، ألا تخاف من النوم على الفراش ولا تفزع في الليل؟" ترجع إلى الوراء وأنت تجيبها: "صحيح! كلامك منطق وفلسفة يا أم عربي! كنت أعتقد أنك منطقية، ولكنني لم أعرف أنك فيلسوفة أيضاً! كان يجب عليّ أن أخشى نومة الفراش هذه!"

لست أفهمك أيها البحر المتدافع بأمواجك القادمة من بعيد! (والموجة تجري وراء الموجة، عايزة تطولها)! هل أنت كريم معطاء، تطعم من خيراتك اللانهائية كل من يقصدك، فينامون على شواطئك آمنين مطمئنين؟ أم أنك متوحش غدّار، تهاجم المخلوقات وتنهشها وتفتتها، ثم تخفيها في بطنك، وكالنمر تلعق بلسانك منظفاً كل ما حولك، ثم تعرض جسدك على الملأ، طاهراً نقياً رقراقاً؟ هل أنت بريء وساذج وغير مبالٍ إلى هذه الدرجة، فتعيش عمراً لا نهائياً؟ أم أنك لئيم وعميق وحاقد، فلا تترك أحداً يبقى حولك إلا أنت لا شريك لك؟ هل أنت دكتاتور عربي لا يتزحزح عن مقعده،

فيعيش إلى الأبد؟ أم أنت بلسم يضعونه على الجرح ليشفى؟ أحبك يا بحر! أخاف منك يا بحر! سأشتاق إليك يا بحر، أودِّعك يا بحر لأنني لن أراك بعد اليوم! أكرهك يا بحر، لأنك ستغدر بي كما غدرت بكل من سبقني، وتتنصل من جثتي، ثم تنساني بينما تبقى أنت إلى الأبد!

وبعد غرق زوجها الذي لم تُقَم له جنازة، بل تكاثرت عليه جموع السمك وقرش البحر، والتهمته هناك بصمت. بحث رفاقه الصيادون عن جلد أو حتى عن عظام، فلم يجدوا شيئاً يدفنونه. كان السمك قد فصصه وجزأه، ووزّعه على رفاقه، وذلك انتقاماً لقتلاه الذين تحصدهم شباك الصيادين كل يوم، وكي يتوزع دمه بين قبائل السمك، فيصعب الأخذ بثأره. وبعد أن اختفى دمه، وضاع أثره، صاح فيهم شيخ السمك المستحكم في أعالي البحار قائلاً: " لقد أبليتم بلاءً حسناً، فلتفطروا بهم، قبل أن يتغدوا بكم، ولتضعوهم في بطونكم، قبل أن يضعوكم في بطونهم. فلتبطنوا لهم ما يبطنون، والبطن بالبطن، والباطن أبطن! " لم يفهم أحد على أحد شيئاً. وكل في بحر يسبحون!

لم تقعد الأنفوشية المسترجلة، بل جمعت كل تحويشة العمر، وكل النقود التي تركها لهم أبو عربي، وراحت تفرش شقتها التي استأجرتها، ثم أخذت تؤجرها للطلاب الجامعيين. إنه مصدر رزق جيد لمثل عائلة ثنائية كهذه. هذا ما شرحته لك ذات لقاء داخل المطبخ، الذي لا تزيد مساحته

على المترين، والذي تضع لها فيه مقعداً مستطيلاً، يتسع لجلوس شخصين، أو لاضطجاع شخص واحد فقط مقرفصاً، هذا إذا أرادت المرأة أو ابنتها أن تتمدد في مطبخ بيتها، الذي أُجِّرت غُرَفُهُ الثلاث للطلاب.

تقف أم عربي معك في المطبخ، فتعلمك كيف تصنع القهوة أو الشاي، وهي تحكي لك قصة حياتها. تعرف الستينية أنك ولد غرير لا يعرف كيف يصنع فنجان قهوة، أو كيف يقلي بيضة، فتقوم بدور الأم، لتعلمك ألف باء الغربة! "ضع الماء في (الكنكة)، وأشعل الغاز هادئاً تحتها، ثم خذ ملعقة صغيرة من القهوة، وضعها فوق الماء، ثم ضع ملعقة صغيرة، أو ما تشاء من السكر، وحرك القهوة والماء والسكر على نار هادئة، واستمر بالتحريك طالما ماء الكنكة يزداد سخونة على النار. وحالما تفور القهوة، اسكبها هكذا في فنجان قهوة تركي(بِوِشّ.) وصحة على قلبك!"

وأم عربي العجوز نسبياً، تلاطفك كولد من أولادها، وتمزح معك براحتها. فعندما جاء فصل الشتاء، صرت تشعر بالبرد، فتقول للعجوز بلهجتك الفلسطينية: "الدنيا برد، أحّة!" لم تفهم أن كلمة (أحّة) في مجتمع اسكندرية هي تعبير جنسي مثير ومخجل، ولكنه تعبير شامي بريء، خاصة لمن يشعر بالبرد! وعندما سمعك ذات مرّة زميلك في الشقة، الطالب المنصوري **محمد محمد محمد**، قال لك: "إن أهل فتاة ريفية في محافظة الشرقية قتلوها، حينما سمعوها تقول

كلمة (أحّة)!" ولكن العجوز أجابتك بكل جرأة، عندما سمعتك تقول: (أحّة) فقالت: "جيب (طي...) امّا ارقعها!" تفاجأ بوقاحة العبارة، ولكنك تشعر أنها من أم معلمة، فتبتلعها، وتقبلها منها. ومن يومها، تحرّم أن تقول كلمة (أحّة)، حتى لو وصلت إلى شفا الموت برداً!

أبو الهول العظيم!

بعد غياب قصير داخل غرفته في الطابق التسعين من الفندق، يقطع برهان عليك خلوتك. فتبادره بشوق: "أين أنت يا رجل؟" فيقعد إلى جوارك على السرير وهو يقول:

- أخذت حماماً ساخناً! وبرهان هذا لا يعرف شيئاً سوى التحدث في البيئة والوراثة. يواجهك فيبادرك بالقول:

-تصور يا أبي أن الوطن العربي كله يخلو من معهد فاعل في الهندسة الوراثية! فتقول له محاولاً التخلص من حرج كبير:

"لقد أنشأوا في أبو ظبي منذ سنتين معهداً متخصصاً بالهندسة الوراثية، لإنتاج سلالات محسنة من الخيول العربية الأصيلة، بهدف نشرها وتسويقها على نطاق واسع في العالم. ولكنني لا أعلم هل ستكون خيولاً خضراء كما تريد، أم..؟"

- عالم الهندسة الوراثية يا أبي، هو نوع من الجنون والعشق، ونوع من خلق الحياة الجديدة. الحياة الإنسانية التي نحلم بها! فقدماء علماء الفراعنة فكروا في الهندسة الوراثية، وتوجوا أفكارهم بتمثال أبو الهول العظيم، الذي يُعبِّر عن مشروعهم الوراثي، المتمثل في دمج رأس إنسان مفكر، في

جسد أسد هصور. الذكاء مع القوة! قد يكون التمثال شعار الحاكم الذكي القوي، وقد يكون الهدف علمياً بحتاً، ليكون الإنسان المستنير بقوة الأسد. وهذا ما حققناه اليوم على أرض الواقع. ولكننا لا نريد دمج الإنسان مع الأسد، بل دمج الأسد مع النبات، والإنسان مع النبات، وكل حيوان مع نبات، فيظهر لنا حيوان نباتي، لا تعتمد حياته على غريزة **الصراع من أجل البقاء، بل البقاء من أجل الحب، والتمتع بالكون**. ولكن قل لي يا والدي، وأنت المهندس الكبير في القيمة والقدر: ألم تسأم أنت أيضاً تكاليف الحياة، وقد عشت سبعين حولاً من العمل المتواصل في مشاريع الهندسة المدنية الجافّة بلا روح؟"تشعر بهذا العمر المبدد، فلا تملك إلا أن تقوم فتبول في المرحاض، وتضغط ماء الشطافة الذي ينزل على شكل بخار حليبي مضغوط، ثم تفتح صنبور البخار المضغوط لتغسل يديك. كلها أدوات تستخدم تقنين المياه. قضية بيئية تعودنا عليها في الإمارات، ولكن أن تكون في اسكندرية البحيرة، وترى بأم عينيك ربوعها التي كانت خضراء، وقد جفت أغصانها، وتصحرت مراعيها، وترملت حقولها، فلم يعد ينكحها ويخصبها غمر مياه النيل المتقوقع على نفسه! تشعر بالعطش يجفف حلقك، وتعود مهموماً وأنت تجيبه:

"أنا في حكم المتقاعد منذ عشرين سنة، ولكن كما قلت لك: (المهنة محنة) ولذلك تجدني لا أتدثر، بل أقوم فأنذر.

فبعد أن شاركت في تأسيس حوالي خمسين مشروع عمارة، بارتفاعات من عشرين إلى تسعين طابقاً، ومشاريع طرق وجسور التفافية، مكتبنا الهندسي الآن متورط في تصميم شواطىء **واجهة دبي البحرية**، فبعد هذا الاحتباس الحراري، وما نتج عنه من ارتفاع منسوب مياه البحر، والذي أغرق آلاف الجزر المنخفضة في أندونيسيا والفلبين والكاريبي، وغمر الدلتا - جنة مصر الخضراء، وسلة غذائها- كما غرقت واختفت بعض الجزر الإماراتية المنخفضة، صار الخطر يتهدد السواحل كلها، وصارت إعصارات تسونامي الخليجية هي شغلنا الشاغل!

ولمواجهة هذه التحديات، فإن مكتبنا يقدم الاستشارات في المشاريع الهندسية الاستراتيجية والبيئية، والرقابة على تنفيذها. وأنا الآن لا أقوم بالعمل اليومي، بل مجرد مالك لنصف **شركة مشهور الاستشارية الهندسية**، التي صارت مشهورة في كل الإمارات. نحن الفلسطينيين الذين كنا محرومين من الوطن، نحاول تفسير عُقَدنا الوطنية بالعمل الدؤوب، والإبداع يعوضنا جزئياً عن مرارة التهجير. فمن المخيم خرجتُ إلى القاهرة، ومن دبي أرسلتك إلى ألمانيا، وها أنت تصنع المعجزات، وتساهم في تغيير الحياة على الأرض، وها هو **كنعان** يفكر بأنسنة وليس غزو الفضاء- كما يقول- هذه الإبداعات الطموحة تعوضنا قليلاً عن الحرمان!"

فيقول **برهان** بتفاؤل: - ها قد انتهى عصر التمييز

العنصري في عكا وحيفا ويافا بعد تنفيذ حق العودة المطلق للفلسطينيين، وانتهت معاداة السامية بالاعتراف بأن العرب المسلمين والمسيحيين، وقدامى اليهود هم ساميون، ومتساوون في الحقوق والواجبات، دون تمييز عرقي أو ديني، وتم قبول ولايتنا على أنها جزء لا يتجزأ من **اتحاد الولايات العربية**. وصارت ولايتنا بعد هذا **الاتحاد** واحة أمان حرة لكل الأديان السماوية، والمبادىء العلمانية بلا تمييز، الذي يعتبر إنجازاً تاريخياً يحسب لهؤلاء العربان، الذين كانوا في القرون الأخيرة لا في العير، ولا في النفير!

"يبدو أنني قد كبرت أكثر مما أحتمل، ولهذا سأعود إلى عكا. لقد اشتقت إليها كثيراً. يجب أن أتصرف بأي طريقة، وأعود لأعيش مع أختك سمر وأولادها وأحفادها. وهناك سأبني دار مكتبة عامة، وأهديها بكل محتوياتها إلى مدينة عكا، وأرصد في البنك ما يكفل رواتب موظفيها بشكل دائم بعد موتي، بما فيها جائزة قيمة، باسم **جائزة مشهور الهندسية**، لتُقدَّم سنوياً لأفضل مشروع هندسي يساهم في إعادة بناء ما دمره الاحتلال من قرى ومدن مستباحة. لقد حان الوقت للاسترخاء هناك، على مرأى قوارب الصيد العتيقة، المتلألئة على شفاه الشاطىء."

- كنت أتمنى أن أعود معك إلى عكا يا والدي، ولكنك أنت الذي علمتني أن أكون جادّاً في حياتي، فجدَدتُ، فوجدت. وأنا الآن بصراحة لا أترك عملي إلا لضرورة

قصوى، مثل فحوصات كنعان هذه، التي سيجريها المستشفى غداً. إنني مشدود إلى شركتي برباط أشد كثيراً من حزام العِفّة الذي كان الأوروبيون يقفلونه على قيعان زوجاتهم، بينما هم يغامرون فوق بحار الدنيا، أو بقاع الأرض. إنني مقيد مع الشركة بعقود ومحامين، ووثائق. ولذلك اعذرني يا والدي، وحاول أن تتفهم قضيتي.

"ألهذه الدرجة، لا تستطيع ترك عملك؟" فيضع برهان ساقاً فوق ساق ثم يقول: - حتى لو فكرت، فلقد صارت نجاحاتي الوراثية هي التي تربطني بالمعهد. وشركتنا - والحقُّ يُقال- تغدق علينا رواتب لا حدود لها. (اصرف ما في الجيب..)، تقول لك الإدارة المالية: تدَلّل في مصروفاتك. اشتر ما تشاء لك بلا قيد ولا شرط. وأما الخروج على أسرار العمل، فهو خط أحمر! يبدل وضع الساق الأخرى فوق أختها وهو يتابع قوله: - نحن الباحثين قبِلْنا هذه اللعبة، فصار شغلنا الشاغل هو التسابق لإدخال الأرض في حجرة الإنعاش، فقد نستطيع إعادة الصحة والتوازن إليها. تصور أنهم عندما حاصروا التلوث البيئي، واستبدلوا الآليات النفطية بأخرى تستخدم الوقود النباتي، كانت تبعاته أسوأ!"

"طبعاً أسوأ، لأن الوقود الحيوي استهلك النباتات، فبدل أن نزرع لإطعام أفواه الجياع، صاروا يزرعون لإطعام أفواه الماكنات، بدل النفط الذي انتهى عصره. ولهذا ارتفعت

أسعار الطعام. ها هو رغيف الخبز بدينار عربي. الفقراء يبادون اليوم في طاعون مجاعة دولية، وتسبب استهلاك الماء في عطش الكرة الأرضية!"

– وعندنا أيضاً وصل رغيف الخبز إلى يوروين! الوقود الحيوي قتل سكان الأرض جوعاً! ولهذا سيطرت الآليات الهيدروجينية التي تنفث بخار الماء، بدل عوادم النفط ومخلفات الوقود الحيوي، فصفا الجو، وتحسنت الرؤية، وارتاح الناس. ولكن المفاجأة التي لم تكن متوقعة، جاءت من صفاء الجو، وازدياد سطوع أشعة الشمس، مما أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة أكثر من ذي قبل. الكرة الأرضية تذوب بالحرارة يا والدي، ونحن مصيبتنا أننا قبلنا أن نكون(الطبيب المداويا!)

"في رحلتنا الأخيرة هذه على **الطيران العربي الموحد**، كان المسافرون، يشربون من المياه العادمة، المنبعثة من حرق الهيدروجين بالأكسجين، مقتنعين بأنها المياه الفضلى للشرب!"

– الشيء نفسه حصل معنا على **الطيران الأوروبي الموحد**، إذ كان المضيف يتفاخر علينا بأنه قد أعد لكل منا فنجاناً من القهوة أو الشاي، مصنوعاً بمياه محارق الطائرة الهيدروجينية. يبدل برهان وضع ساق فوق ساق، وهو يسألك:– وكيف تعالجون ارتفاع منسوب المياه البحرية؟

"نقوم بتصاميم لجدار عازل، مثل الجدار العازل الذي

أنشأوه في بداية القرن لخنق الشعب الفلسطيني داخل أكبر جيتو في التاريخ. ونحن صممنا جداراً يعزل الناس هنا عن حياة البحر." فيقول لك: - أليس ظلماً حرمان الإماراتيين من بحرهم، كما حرموا الفلسطينيين من وطنهم؟ فتجيبه خائفاً: " نحن نفعل هذا حماية لشواطىء الولاية من الغرق، فالجدار يعزل الشواطىء، وينظم التواصل مع البحر."

- إنكم يا والدي كمن يكيل البحر بطاقيته! وهل يستطيع أحد لجم فم البحر؟ إذا كان سور برلين المخيف قد انهار بضربات الألمانيين، وسور العزل الفلسطيني الجيتوي قد انهار أمام ضربات المقاومين، فهل سيبقى سور بحر الإمارات مقاوماً لموجات غضب الأرض؟ ولكن قل لي: كم سيكلف مثل هذا المشروع لو عُمِّم على كل الإمارات؟ "سيكلف مئات مليارات الدنانير العربية"

- تقصد أن ما قبضوه ثمناً للنفط، سينفقونه على مقاومة نتائج حرقه؟ حضارة الغرب المغرورة ترفهت بحرق النفط داخل سياراتها ومصانعها. تقول لك الإعلانات المُضلِّلة: (عبىء سيارتك العملاقة بالنفط الرخيص، وانطلق إلى محبوبتك!) وبعد عصر النفط، استهلكوا الغابات، وزرعوا مكانها عمارات جميلة المظهر، فأفرزت من تحتها برازاً ومجاري لوثت البيئة، وبثت غازات وسموماً فضائية، أهلكت الحياة على الأرض!

"نحن المهندسين الذين نحمل على ظهورنا أمواج البحر، ليس أمامنا سوى هذا الحل!"

- الحل يا والدي ليس بالإسمنت المسلح، فالطبيعة أقوى من الإنسان، مهما حاول أن يستقوي عليها!" فتجيبه يائساً: "(الأرض يومئذٍ لله، يورثها لمن يشاء من عباده الصالحين.)"

- ها أنت قلتها بلسانك! يقوم فيخرج وهو يقول:

- لقد أثبت الإنسان التقليدي أنه ليس صالحاً! فما أدراك أن الله يريد أن يورثها لعباده (الخضر) الصالحين؟

خنافس!

يستأذن برهان ويذهب ليسترخي داخل غرفته الخاصة، بينما تدخل أنت لتأخذ حمّام بخار ساخن مضغوط، يزيل عنك وعثاء السفر، ووسط البخار تخطر على بالك امتحانات نهاية السنة الجامعية الأولى، إذ هاتفك يومها زميلك الخنفس راغب الشريقي من منطقة رشدي: "أرجوك أسعفنا. فأنا وسرحان لا يوجد معنا كتاب لمادة الاشتراكية، ونحن لا نعرف شيئاً عن الاشتراكية ولا الرأسمالية ولا حتى الأزهر!" يقول ذلك ضاحكاً! فلا تستطيع أن ترفض له طلباً، خاصة وأنه يستجير بك. تحمل كتابك، وتذهب إلى العنوان. ترن جرس الشقة في الطابق الثالث عشر، فيفتح لك سرحان.

"أهلاً زميل مشهور. تفضل". فتسأله: "أين راغب؟" فيجيبك: "إنه هناك في الداخل". تدخل فتصافحه وهو جالس على أريكة وثيرة، وتجده مشغولاً بالتفرج على مجلة خنافس بريطانيا (بيتلز مجازين) بصفته خنفساً من جماعتهم. كانت صرعة الخنافس البريطانية على أشدها في الستينيات، وكل أبناء الذوات يقلدونها، وعلى رأسهم راغب الشريقي. وحسب ما ذكر لك ذات مرّة ونحن في المدرج، إنه من

مواليد بيروت، حيث كان والده يعمل دبلوماسياً للمغرب، وأمه دمشقية، وانتقلت عائلة الدبلوماسي مع انتقال وظيفته إلى لندن، فدرس راغب هناك. بالطبع لم تسأله عن سبب مجيئه للدراسة في الإسكندرية. قد يكون لأسباب استقلالية قصدها أبواه لتعزيز اعتماده على النفس، وقد يكون الولد مطروداً من جامعتة الإنجليزية، وقد يكون دخوله إحدى الجامعات البريطانية متعذراً من أصله، لسبب أو لآخر! كل الذي تعرفه أن شعره الأسود الحريري الطويل المتهدل على خديه، يغطي أسفل رقبته، وذؤابتيه الطويلتين، تغطيان أذنيه، وتصلان إلى رقبته، بعكس زميله سرحان، الذي تلاحظ أن شعره يغطي أذنيه فقط، وذؤابتيه مقصوصتان عند نهاية ذقنه.

تجلس وتفتح الكتاب، فيقول لك الشريقي: "هل سمعت آخر نكتة؟"

أنت تحب النكت، فهي تُخرج المُكتئب من عزلته، وتجعله يضحك، حسب نظرية "ارسم ابتسامة على وجهك، تدخل الابتسامة إلى قلبك". وبصفتك مُعقّداً بالتاريخ وبالجغرافيا، تقول له: "هات ما عندك". فيقول ضاحكاً: "في برميل بيقول لبرميل: محدش بيشوفك ليه؟ فيقول له البرميل الثاني: هوّ حد فاضي!" نضحك معاً، فيتبرع سرحان بنكتة أخرى: "اتنين محكوم عليهم بالإعدام، واحد رخم، والثاني بارد. سألو الرخم: نفسك في إيه؟ قال لهم: عايز اشوف أمي. سألو البارد: نفسك في إيه؟ قال لهم: نفسي ده

مايشوفش أمه! "نضحك على هذه النكتة السخيفة، فيرد عليه راغب بنكتة ثالثة: "واحد غبي فى الجيش، القائد أداله أغلى قنبلة في العالم، وقال له ارميها على الأعداء من فوق الجبل اللي بين الجيشين، قام الراجل طلع على الجبل، ولأول مرّة فكر، وقال: القنبلة دي غالية قوي، طب ما بلدنا أولى بيها. وقام رماها على جيشه!" لا تضحك على تلك النكتة، لأنها قديمة وبايخة، وتقول لهما: "هل هذا هو وقت نكت يا جماعة؟"

وبينما هما يتضاحكان، يرن جرس الباب، فيقوم **سرحان**، ويفتح الباب. تنتبه إلى الداخلة، وإذا بها امرأة في العشرينات من عمرها! " الحمد لله أن امرأة قد دخلت البيت، كي يخجل منها هذان الخنفسان، وتتوقف هذه النكات السخيفة." تقول ذلك في نفسك: " خاصة في ليلة امتحان نهائي، إذا سقطت فيه يا ولد، رحت في داهية! وأنت لا تتحمل سقوطاً!"

بصراحة، كانت أنوثة المرأة لافتة للنظر، وجسدها البض ممتلئاً، ووجهها - ما شاء الله - يشبه البدر في لحظة بزوغه! ونظرات عينيها بريئة، وشعرها منسدلاً على ظهرها، وثوبها يكشف عن ركبتيها. "من تكون هذه المرأة؟" تسأل راغب، الذي يجيبك باسماً: "هذه زوجة أحد الأصدقاء، واسمها **عفاف**."

"زوجة أحد الأصدقاء! ولماذا تزوركم زوجة الأصدقاء

وحدها؟" فيحك رقبته باستهبال، وهو يقول: "مجرد زيارة ودية." تقعد المرأة على الأريكة بين راغب وسرحان، مقابلة لك، ثم تضع ساقاً فوق ساق، فتكشف عن فخذين مغريتين، لا بل شهيتين، تثيرك أنوثتهما، وكأنها تجلس في حضنك. فيقول لها راغب: "القميص معلق خلف الباب." تقوم المستورة، وتتناول قميص نوم نسائياً شفافاً، معلقاً على مشجب خلف باب غرفة الجلوس. شيء غريب! ترى لمن يكون هذا القميص النسائي الشفاف، الذي يقف بشكل دائم، مُعلّقاً بالانتظار، خلف باب غرفة جلوس شابين أعزبين، طالبين في جامعة محترمة؟

تخرج الأنثى من الغرفة، قد يكون إلى الحمام، ثم تعود وقد استبدلت ملابسها الرسمية، ثم تقعد بينهما بقميص النوم القصير الشفاف، الذي يبث عليك دفء لحم جسدها الفائر. إنسانة بريئة وجميلة، وأنت لم تقعد من قبل مقابلاً لامرأة من هذا النوع، ولكنك تنبهر بجمال أنوثتها! تُخرج الصبية مشطها من حقيبتها الجلدية البنية العريضة، وتتحدث ببراءة وهي تمشط شعرها: "أختي محاسن عزمتني أمس على ملوخية بالأرانب. طعمها يجنن!" تصمت ثم تتابع قولها: " أمي تعبانة جداً." لمْ يجبها أو يستفسر أحد من المسطولين الجالسين إلى جوارها، ذات اليمين وذات اليسار عن صحة أمها، أو حتى ينفعل بالخبر! الوحيد الذي يتأثر لمرض أمها هو الساذج أنت.

"مش عارفة حنعملو إيه مع البنك اللي رهن شقة بابا". تتابع الجميلة تقريرها: " بعث له امبارح تهديداً بالبيع بالمزاد العلني! زادت عليه المصاريف يا حبة عيني! وهو متحال عالمعاش، وصحته في النازل!" يرتب راغب شعره بيديه، بينما **سرحان** يتفرج على مجلة الخنافس، دون أن يتعاطف مع زوجة الصديق هذه، أو يناقشها أحدهم في الأمر ولو بكلمة واحدة!

"ممكن يبيعوها!" تتابع المرأة المحزونة "وحتى لو.. فيا دوب تسدد الديون التي علينا! وبابا النهارده بيدوّر على شقة بعيدة ورخيصة في منطقة باكوس الشعبية، عشان يستأجرها قبل ما يبيع شقتنا. وعشان كده مقدِرش يحضر العزومة. " تخرُج براغب بعيداً عن المرأة المكلومة، وتسأله: "ما هذه المرأة؟"فيجيبك ضاحكاً: "هذه. ! قلت لك: هذه **عفاف**!"

"أنا لا أفهم في هذه الـ. . ! قل لي ما الموضوع؟" فيجيبك مبتسماً: "هذه المرأة بصراحة، صاحبتنا" إذا أردت النوم معها، (بليز!) تفضل!"

"أتفضل! وهل هي دعوة للعشاء، كي تدعوني بكلمة تفضل؟"

"يا أخي أقول لك تفضل، يعني تفضل، وأنا أعني ما أقول. (آي مين إت!)" فتقول له حازماً: "ولكنني لا أتعامل مع نساء من هذا النوع!" فيضحك الولد ويسألك مستغرباً:

"تقصد أنك لم تنم مع هكذا نساء؟ أم أنك لم تنم مع امرأة قط؟" فتجيب مرتبكاً: "أنا لم أنم مع هكذا ولا مع قَطّ..!" يضحك الخنفس بصوت عالٍ، ويأتي **سرحان** على الصوت، فيقول له **راغب**: "تصور أن أخانا **مشهور** ما يزال بكراً، ولم ينم من قبل مع امرأة!" فيدهش **سرحان** ويضحك كثيراً وهو يقول: "معقول؟ سألتك بالله ما تزال بكراً!؟"

"كيف تسألني بالله يا رجل؟ ألا تخاف الله، كي تستحلفني به في مثل هذه الأمور؟". فيضحك الخنفسان معاً!

"نحن نعزمك عليها احتراماً لكونك ضيفاً" يقول لك **سرحان** "ولأنك تجشمت عناء القدوم بكتابك الاشتراكي، فنريد أن نعلمك الاشتراكية في صديقتنا عفاف هذه!" ويؤيده **راغب** قائلاً: "أنت تكرّمت علينا بتصفح كتابك، ونحن نتكرم عليك بتصفح جسد هذه الحسناء. ما رأيك؟" أنت لا ترغب في فضح نفسك، والظهور بمظهر المتخلف الغبي في سوق الخنافس إلى هذا الحد، فتقول لهما: "حسنٌ، فليبدأ واحد منكما، وأنا سأكون الثاني." تدخل المرأة مع **سرحان**، ويغلقان الباب خلفهما. تجلس أنت وحدك في الصالة، بينما يذهب راغب إلى المطبخ، كي يحضر بعض الطعام والشاي، فتسمع تأوهات وهزهزات سرير، وصوتها المثير يستنفر كل جيوش جسدك المكبل بقيود جدتك الحديدية **أنيسة**، وتعليمات أبيك الصارمة، ومأمأة أمك خلفه، والتي لم تكن تملك غير حمل أختام "الملك"، وتصديق كل المعاملات

الصادرة باسمه! تفكر في امتحان الغد الذي يربكك، فلا ترى غيره. لا بد من النجاح في الامتحان. فالثلاثون جنيهاً التي يرسلها لك أخوك غالب، ستتوقف إلى غير رجعة، إذا ما عرف أنك قد سقطت في إحدى السنوات. ذلك لأن راتبه لا يزيد على ضعف هذا المبلغ المرسل إليك، وأنت لا تعرف كيف يتعذب غالب وهو يغالب الحياة ليخلق القرش، ويسحبه من بين أسنان سمك القرش، كي يصرف على نفسه، وعلى أهله في المخيم، وكي يوفر لمستقبل مشرق عزيز، ويتزوج وينفق على أسرة مُحطّمة! ظرفك صعب يا مشهور وأنت توقف حالك في هذه الليلة الدراسية المقندلة! هل كان لزاماً عليك أن تكون وفيّاً وخدوماً لهذين الخنفسين الفاقدين للدنيا والآخرة، كي تقرأ معهما مادة الاشتراكية؟ وحتى لو درساها معك، فهل سيفهمان الاشتراكية والعفريتية؟

لا تطول غيبتهما وأنت تأكل أصابعك ندماً. تخرج الأنثى من الغرفة بشعر منكوش، ووجنتين حمراوين، ونظرات مرتبكة، وهي متجهة إلى الحمام مباشرة. إنها ترخص وتتضاءل الآن في نظرك، وتتبدد هيبتها وهي تمضي، وكأنها تمثال فينوس الجميلة وقد تهشم، ودِيسَت أشلاؤه تحت الأقدام. يأتي سرحان، فيجلس إلى جوارك وهو يبتسم ببلاهة، ثم يقوم باتجاه المطبخ. وبعد دقائق، تعود عفاف من الحمام، وقد غسلت حوضها، فتبلل قميص نومها الشفاف الذي يكشف سترها، ويبرز كونها دون سروال داخلي يستر

عريها، الذي فضحه ماء الغسيل. تقعد أمامك على المقعد الثلاثي، وأنت تراقب هذه البانوراما المثيرة! يبدو أنها تقصد أو تتجاهل تجفيف بقايا ماء الغسيل، فيفضح قميصُها الشفاف كلّ شيء في بقعة حوضها. وعيناك المبحلقتان في بثٍّ مباشر قريب، أحدُّ من عيني صقر مرفوع عنه اللجام، يتحفّز أمام لحم عصفور منتوف!

تأخذُ اللبؤة بتنعيم أظافرها بمبرد رقيق، وتتحدث معك ببساطة، وكأن شيئاً لم يكن: "اسمك إيه؟" فتجيب برطانة المندهش: "مشهور."

"بتدرس إيه يا مشهور؟" تُدلِّلُك في الحديث، وكأنك طفل أمامها، فتجيبها وما زلت تتفحصها بنظراتك، كمن يتفحص بيديه الشمس اللاهبة: "هندسة."

"في السنة نفسها مع سرحان وراغب؟" تسألك وقد وضعت مبردها فوق حقيبتها وحدقت في عينيك. فتجيبها: "تلك هي المشكلة!" تفهم أنك تسخر من الخنفسين، فتتابع أسئلتها، وتعود لبرد أظافرها: "من أين أنت يا مشهور؟" فتجيبها باقتضاب "من فلسطين."

"فين فلسطين دي؟ إنتو طلبة شرقيين، ولاّ مغاربة؟ يعني من الشرق، ولا من الغرب؟"

"صدقيني أنني لم أعد أميز الشرق من الغرب!"

أنت متوتر ومستنفر، وهي تسألك، وأنت تجيب، وكأنك في (كركون) معتقل شرطة تحت التحقيق. لست مرتاحاً

لوجودها أو متعاطفاً معها، ولكنك بصراحة مستثار جنسياً، لدرجة أن الذبابة لو وقفت على أنفك، وكان معك مسدس، فستطلق النار! ولكن مسدسك ملجوم بحزام العفة، وجدّتك أنيسة تقف على بابك، وتغد عليك أنفاسك، وهي تسند خدها العجوز بيدها اليمنى، لترى كيف ستتصرف في هذا الموقف الجديد عليك! أفكارك ملوثة، وكأنك الآن تسبح مع أطفال فلاحين في مياه ترعة المحمودية، بما فيها من بيوض البلهارسيا المرعبة!

الأنثى تتحدث معك، وأنت منشغل عنها بها. عيناك مثل فتحتي عدسة كاميرا فيديو، تحاولان التقاط الصوت والصورة. وفي الوقت نفسه تفكر مفقوعاً بحديثها: "هل من المعقول أن يكون لهذه الـ. . . أب وأم وأخ وأخت، يأكلون ملوخية بالأرانب مثل الناس؟ كان عندنا بيت طيني خاص للأرانب، وكان أبي يفصل الذكور عن الإناث، ولا يسمح لأحدهم بالاقتراب من الحريم، إلا حسب الأصول! وهنا يتم خلط الأرانب دون أصول! هل معقول أن هؤلاء النساء الـ. . ساذجات وبسيطات إلى هذا الحد؟ لا ترى شروراً في وجه هذه المرأة! وأبوها سيبيع شقته، وأمها- المسكينة- مريضة، وهي متعاطفة مع أمها، وفيها إنسانية ورحمة! ولكن كيف، وماذا، ومتى، وأين، إنما. . وهكذا، لعل، وعسى، في، الباء، الكاف، اللام. ضاعت الطاسة! لم تعد تفهم شيئاً!

يعود سرحان وراغب بطبق الطعام. عسل وبيض وبسطرمة

(والذي منّه. .) تعال كل يا جدع. يجلسون فيبدأون الأكل. العاهرة تسمي، بسم الله الرحمن الرحيم! لا تنظر إلى الطعام، بل تراقب شفتيها وهي تنطق باسم الله! معنى ذلك أنها مؤمنة، وتخاف الله! فهي ليست من جماعة الشيطان الرجيم! ولا يحق حرقها بكاز! ولكن أنت مال أهلك؟ هي في طريق، وأنت في طريق!

"يا الله يا عم!" يقول لك راغب، وهو يمضغ النقانق الملفوف بالخبز: "روح مع المدام". فتجيبه مرتبكاً: "اذهب أنت قبلي، وسأكون أنا آخركم." يدخل راغب معها، ويخرج سرحان إلى شقة الجيران مستأذناً منك، ليتصل بأحدهم بالهاتف. يقول إن هاتفهم قد تعطل الآن. بينما تبقى أنت. .! ومخك يهدر هديراً! "هل هذا ما يفعله راغب في ليلة الامتحان؟ في ليلة الامتحان، يكرم المرء أو يهان! فكيف تتصرف أنت، ما دمت (ثالثهم. . .)؟

وبجرأة لم تعهدها فيك، تحمل كتابك بيمينك، وتخرج من الشقة هارباً بسرعة. تضغط على زر باب المصعد، فيشير إلى وجوده في الطابق الأرضي. الحقير يحتاج إلى وقت طويل كي يصل إلى الطابق الثالث عشر! قد يضبطك أحدهما وأنت بانتظار الهروب الكبير! وبسرعة قط منطلق، تهرول نازلاً على الدرج. . الطابق الثاني عشر. . العاشر، التاسع، الثاني، الأرضي! وهناك تقفز باتجاه سيارة أجرة صفراء واقفة بمحاذاة الرصيف، وبلهفة المُربك تطلب منه أن يطلع، من

رشدي، إلى كليوبترا! الساعة الآن هي العاشرة والنصف مساءً، ومحمد محمد محمد قاعد يدرس لامتحان الغد. يراك تلهث! يقلق عليك. "ما لك تلهث يا مشهور؟" يسألك ملهوفاً، فتتنهد قائلاً: "لا شيء!" فيزداد قلقه: "قل لي، هل حدث لك مكروه؟" فتطمئنه بقطع لهاثك: "لا، أبداً!"

"أقلقتني عليك يا رجل! أرجوك قل لي! يجب أن تطمني عليك!" ليس بيدك خيار. تشرح له القضية. موجز ما حصل. فيندهش محمد محمد قائلاً: " هل أنت مجنون؟" يشعر بغبائك وهو يسألك: "كيف تذهب يا أخي في ليلة الامتحان إلى طلبة تافهين كهؤلاء؟ هل تنسى أن غداً هو امتحان نهائي؟" وما هي سوى دقائق، إلا وجرس الهاتف يرن، فتطلب منه أن يرد على المتصل: "إذا كان الهاتف لي، قل لهم إنني قد نمت، كي لا يزعجونا بهاتف آخر!" ولا تُكَذِّب خبراً، فتنام فعلاً لتريح أعصابك من ملاعيب علي الزيبق، وهذه العفاف..! وبعد ساعات من النوم، تقوم في الثانية صباحاً، وتأخذ بقضم أوراق كتاب الاشتراكية، فما أن يطل نور الصباح، إلا وأنت على وشك تشطيب الكتاب، وقبل أن تخرج إلى الكلية، تعيد قراءة ما تحته خط عدة مرات، فتحفظه عن ظهر قلب. وفي قاعة الامتحان، تقدم إجابات صحيحة، فتنجح فيه، وأما علامات سرحان وراغب ف...!

يختلط عليك حمامك البخاري في هذا الفندق الزجاجي

المعلق في السماء، بذكريات سرحان وراغب وعفاف، فتجفف جسدك بمنشفة بيضاء ذات نعومة قطنية فائقة، وأنت مفعم ببخار جو الحمّام، تمسح الغباش عن المرآة الواسعة، لترى وجهك فيها، ثم تحلق ذقنك بعد أن سخنت وطريت شعيراتها البيضاء، وتخرج لتنام القيلولة بعد متاعب السفر.

أُنثى مهيضة الجناح

تتحسن صحتك قليلاً بعد هذا الحمام البخاري الرجراج، الذي يهزهز ويدلِّلك خلايا جسدك العجوز بالبخار المضغوط، وتسترخي لنوم القيلولة، فتأخذك الإسكندرية إلى صباك، وإلى أم عربي التي هي أمٌّ ومعلِّمة ومدبِّرة، ولكنها تبدو قاسية في هذه الليلة، إذ يعلو صراخ وعويل، يتلوه تكسير أشياء صلبة. قدور معدنية تتدحرج. أصوات مزعجة في الطوابق العليا للعمارة. تنتبه إلى الصراخ والعويل الذي يدفع فضولك إلى باب الشقة! تجدك تبحث بأنف ضابط الشرطة السوري (أبو كلبشة) حيث تُقذَف امرأةٌ على سلم العمارة، فتقف مترنحة على أبواب جيرانها، تطرقها بيتاً بيتاً، فترتد خائبة من كل باب، ثم تمشي كسيفة حائرة، حتى تصل إلى الطابق الأول عند باب أم عربي، التي تتوقعها أن تكون مُجيرة لجارتها، فكلمة الجار من الجيرة، وحق الجار على الجار، ولو جار! تقف الحسناء ببابنا، والساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، ودموع المرأة تسح من عينيها مدراراً بلا نحيب، تسأل أم عربي، فتبلغك أنها جارتنا الساكنة في الطابق الرابع من العمارة. تبدو المرأة عشرينية العمر، غنية بكنوز أنوثتها، ذليلة

دون عويل، مهدودة الفؤاد، مهدورة الجسد وكأنها وشاح أندلسي مُتلَف! تشرح قصتها لأم عربي بكلمتين، ثم ترجوها أن تنام عندها هذه الليلة، حيث لا أهل لها في اسكندرية، فهي من أحد أحياء القاهرة، وقد حلف عليها زوجها بالطلاق أنها لن تنام هذه الليلة في البيت، تأديباً لها..! من المؤكد أن الأنفوشية لن تردها خائبة، وأن أمر إجارتها مُنتَهٍ، وأن لا بحث إلا بتفاصيل لؤم الرجل المجنون، الذي يدفعها في فم الأمواج البحرية المتلاطمة! ولكنك تفاجأ برفض أم عربي استضافتها، وبعد توقف قصير أمام بابها، لعلّ وعسى قلبها يرق، أو تُغيِّر وجهة نظرها، أو تجد لها مخرجاً، ولكن.. فتضطر المسكينة أن تنزل إلى الشارع؛ طريق الجيش! ومن يمر في طريق الجيش بعد منتصف الليل، إلا..؟

تقف المأسورة كثيراً على رصيف شاطىء البحر، تدير وجهها ذات اليمين عن هذا المتسكع، وذات اليسار عن ذاك السكران، وإلى الخلف عن ذاك الفضولي، ثم إلى...! إنها تنش الذباب الكثيف عن وجهها، ذباب الخيل الشرس اللسع، والمتعود امتصاص الدماء من مؤخرات الخيول والحمير، تراه الليلة يهاجم وجه هذه الغزالة الزهري الطاهر. يكبر الذباب إلى أن يصير بحجم الدبور، ويتقوى بطاقة الصقر، ثم يتضخم بحجم النسر الذي يحمل خروفاً بحاله، ويطير بعيداً!

الأنثى المهيضة الجناح تقاوم، إلى أن تتجمد أعضاؤها

ببرد الريح البحرية الليلية، القادمة من بوابات جبال الألب الثلجية، فتنهار مقاومتها، وتتهاوى على مقعد رصيف الكورنيش المكسو بملح رذاذ البحر!

***

يتهالك قارب شاعر غريب، ظلت تصفعه أمواج البحر المجنونة، وتتكَرّرُ قردنته ولطمه لصخور الميناء، في ليلة متمردة، حتى تحطمه شر تحطيم، فينكمش مثل أخطبوط منتشر الأذرع يكررون ضربه بقوة على صخرة شاطئية، حتى يستسلم للضربة القاضية، فيضعونه في سلة صيدهم الأخطبوطية!

***

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. وبعد صبر وتمعن في تفكير ذلك الزوج النذل، فقد يصحو من سُكره، وقد ينبت له ضمير جديد، وقد يعدل عن جنونه، وقد يأتي مستدركاً غلطته، فيعيدها إلى بيتها، ويستغفر ربه، ولكن..

سيارات تأتي، وسيارات تغدو منطلقة، وسيارات تقف إلى جوارها، ثم تزعق عجلاتها فاركة إسفلت الطريق بعد أن تتجاهلها السيدة. كانت سيدة، ولكنها لم تعد سيدة! فهي لا تملك من أمرها شيئاً لتكون سيدة!

تصبر المستضعفة حتى تكفر بزوجها وبحياتها كلها. وفي الثالثة بعد منتصف الليل، تبدأ اليائسة بفقد الخجل، وتنسى مواصفات الأنوثة، وتتجاهل معنى الشرف، وتكسر حواجز العادات والتقاليد، وتكفر بالحلال، وتؤمن بالحرام! ولم لا؟ فهي لم تجد في أي من هذه المفاهيم ما تصرفه بقرش! وفي النهاية تضطر لأن تقول (أحّة)، وستين أحّة، فتنهار الضحية، وتوافق على أن تركب بسيارة أي رجل! أيّ رجل!

ها هو المهلبي عائد من الملهى، فيتوقف بسيارته إلى جوارها، ويفتح لها الباب المجاور للرصيف، كي تركب. إنه خبير بالتقاط رزقه! يشم على قفا يده، ويعرف المرأة المهدور شرفها. إنه مثل سمك القرش، لا يهاجم قبل أن يتذوق رائحة الدم. ينظر في عينيها البحريتين، فيراها سمكة مقذوفة على رمال الشاطىء. لا تنتظر البلطية التي طرَحَها البحر دعوة، بل تتوكأ على آلامها، وتقيم نفسها المُخلّعة، وتتجه بمحض إرادتها، فتتهالك على المقعد المجاور للرجل ذي الشاربين المتضخمين كجناحي نسر جارح! يتناولها النسر، ويطير بها!

وفي الطريق، يعرّفها المهلبي على اسمه، ويحاول أن يمسح خدها الأيسر براحته المشبعة بدخان الغليون، وكحولياته المدوخة! لا يراه أحد في هذا الليل البهيم وهو يأخذها إلى شقته، ويضيّفها هناك أسلس ضيافة، ويقدم لها مشروبات مسكرة لا تعرف اسمها، وهو يقول لها: "هذه

شربات الفرح، مصنوعة خصيصاً كي تدفىء البردان، وتريح الأعصاب، وتنسي الهموم." فتسكبها المهدودة هكذا في جوفها بجرعتين. "وهذه الكأس القوية تنسيك أهلك." فتدلقها الدائخة في هوّة عميقة! "وهذه الثالثة المركّزة تبدي عريك الجميل". فلا تتذكر أنها شربتها!

تسترخي المفضوحة، وتتمدد فوق سريره، وتسيح مثل حلاوة العيد على الفراش، فيأخذها المهلبي بين ذراعيه إلى الحمام الواسع، داخل غرفة نومه العزابية، ويخلع عنها سترها، ويحمّمها، ويليّفها، ويعمل تدليكاً لكل زواياها، ثم يستقبل بدوره رشات حمام ساخن، ليزيل عنه برد الطريق، ورائحة الدخان، وعفونة الملهى، ثم يخرج بها ملفوفة بثوب الحمام القطني الذي يمتص رطوبة بحرها، ثم يلقيها على سريره، ويدفىء العارية في حضنه طوال الليل!

بعد شعوره بخطئه الشنيع، يبحث زوجها عنها، ويركض في الشوارع، في كل مكان، فلا يجدها. ولدى استفسارك عنها فيما بعد، تقول لك أم عربي: " المرأة لم تعد إلى بيتها، فعندما مر زوجها (الحَلّوف(*)) يستفسر ويبحث عنها، اعترف لي وهو واقف على سلم العمارة بأنه أخطأ في حقها. فقلت له: أنت لا تستحق مثل هذه الجوهرة. كنت تضربها على الصغيرة والكبيرة، وهي تصبر وتصبر، حتى انكسر

(*) الحلّوف هو الخنزير.

صبرها. منك لله يا رجل! فانسحب الحَلّوف وهو يجر أذيال الهزيمة على سلم العمارة."

تضطر المحاصرة للبقاء خادمة في بيت آسرها الجديد، الذي صار يأخذها معه ليلياً إلى ملهى المهلبي. ومنذ ليلتها تكتشف أنه صاحب الملهى، فيضيّفها في الليلة الأولى، وفي الليلة الثانية يُعرّف عليها زميلاتها في المهنة، وبعد الليلة الثالثة- هي حق الضيفة على المضيف- يُعمّدها، ويُرسّخها ساقية وراقصة شرقية، ويُسرّحها بعد انتهاء الحفلات مع زبائنه المهمين، ويقبض من ورائها الشيء الفلاني!

ذلك ما قاله لك زميلك **يوسف الإسماعلاوي**، الذي يسكن تحتنا في شقة تحت أرضية من العمارة، والذي حصل على كل هذه المعلومات من صاحبته، الغسالة أم فطومة، التي تدور البيوت، وتنقل الأخبار، كما تنقل الجراذين أمراض التيفوس بين الخلق! ولذلك فأنت تسأل أم عربي:

"لماذا لم تؤوي تلك المرأة المسكينة في ذلك الليل البهيم؟" فترد عليك مُحرَجةً:

"إذا كنت أنا صاحبة الشقة، عندما أزوركم، أنام في المطبخ الذي مساحته شبر في شبر، فأين سأضع هذه الصبية؟ هل أتركها تنام في حضن واحد من الشباب الذين يسكنون شقتي، فتسوء سمعتي وسمعة الشقة، ثم تتدهور مصالحي؟ ثم إنني لو أجَرْتُها، فسوف أقع في مشاكل مع زوجها الحقير، الذي لا يفهم معنى حلف اليمين على امرأته في أنصاف

الليالي، والمثل يقول عندنا (اللي يحلف، يبقى حلّوف) وهي غريبة بلاد عن أهلها، بينما هو أهلها، وهو سترها وغطاؤها، إذ ليس لديها أولاد حتى الآن كي تحتمي بهم، فهي ما تزال عروساً صبية لم تكمل السنة في بيته!"

مطعم الدمنهوري

يسيطر عليك القلق في محاولتك نوم القيلولة في فندق جوانج تشو هذا، فتجدك تفكر في فحوصات حفيدك كنعان متسائلاً: هل يسير برهان في اتجاه صحيح، وتنجح مختبراته الخضراء في نزع مخالب الإنسان؟ هل يمكن نزع الشر من بني آدم؟

تحاول نسيان ذلك، فتعود إلى صباحاتك الجامعية القديمة، إذ قبل أن تذهب إلى الكلية، تدخل مطعم الدمنهوري، الواقع على ناصية الشارع، فتفطر فولاً بخمسة قروش، وتشرب كأساً كبيرة من الشاي الحبر بقرش، وتضيف تعريفة على الحساب، إكرامية للحاجّة عليّة، ثم تتوقف عن دفع الإكرامية، بعد أن تفهم أنها صاحبة المطعم، بصفتها زوجة الحاج خليل الدمنهوري. وفي طريقك تتجه إلى محل عصير قصب كليوبترا في الدوّار، فتشرب الكأس العملاقة بقرش صاغ، ثم تصل إلى محطة كليوبترا، فيُقلُّك الترام إلى محطة الجامعة، لتسير منها إلى كلية الهندسة، فتلتقي زملاءك في المدرج رقم واحد، الذي يتسع لأكثر من ألف طالب وطالبة!

وفي المساء تعود إلى مطعم الدمنهوري، فيستقبلك **الحاج خليل** بخصوصية دافئة: "ماذا تريد العشاء؛ جبنة؟ بسطرمة وبيض؟ سجق؟ باذنجان مقلي؟" وأما الفول والطعمية والشاي يا حبيبي، فلا يتوقف تقديمها صباحاً، ولا ظهراً، ولا مساءً! أثناء العشاء، تتسلل إلى أنفك روائح عطور رخيصة، تنتبه إلى أنها قادمة من امرأتين أو ثلاث نساء في الثلاثينات من العمر، يترددن كثيراً إلى هذا المطعم، ويجلسن مع رجل مرافق لهن حول طاولة مستديرة صغيرة، تقبع في زاوية قريبة. ذلك لأن مساحة هذا المطعم لا تزيد على شبرين ونصف الشبر. تشاهد النساء يتضاحكن بصفاقة مع الرجل الذي يبدو أنه بساق واحدة، تتأكد من ذلك عندما يقوم مع إحداهن، وهو يتكىء على عكازه الأيمن، المغلفة من قاعها بطبعة بلاستيكية سوداء، ويتجهان إلى الخارج وهما يتمتمان، بينما هي تمصمص شفتيها، وتلوح بطرف ملايتها السوداء، المتهدلة مثل جناحين يرتخيان على جانبي ثوب مزركش قصير، لا يكاد يغطي نصف فخذيها المدورتين. تراقب منظر إبطيها العاريتين المنتوفتي الشعر، بينما هي تؤشر بيديها يميناً ويساراً، وتتفاهم مع صاحب العكاز الذي يرتدي معطفاً رمادياً، فوق ثوب عربي مخطط طويل، وفردة حذاء أسود في الرجل اليسرى. يبدو أن لباسه هذا مصمم ليغطي ساقه المقطوعة. تشاهد إحدى الجالستين وهي تقول له: "يا الله يا حبيبي، إحنا حنستنوكوا لغاية ما ترجعوا بالسلامة!"

والأخرى تؤكد له: (إذا ما لقيتوناش هنا، استنونا لغاية ما نرجعو، إحنا حنروحو الليلة معاك لهناك.) أين هنا وهناك؟ فأنت لا تعرف!

وفي الصباح التالي، وأنت تتناول طعام الإفطار، تسأل **الحاجّة عليّة**، التي تعمل على الأقل في الفترة الصباحية، وتقوم بإعداد الفول وباقي الأطعمة، وتقديمها للزبائن، بينما يأتي **الحاج خليل** في أكثر الحالات في الفترة المسائية، ويتأخر حتى بعد منتصف الليل: "من هن هؤلاء النساء اللواتي يحللن في زاوية المطعم كل ليلة، ويتضاحكن مع ذلك الرجل الـ. ." تستحي أن تقول صفة إعاقته، ذلك لأنه (لا شماتة في معاق) فنحن نقول عن الأعور؛ عينه كريمة، وعن الأعمى ؛ بصيرٌ. . ."

"هه هه هيء!" تجيب الحاجّة ضاحكة: "دا حسن، ومعه بنات! يعني!" لا تفهم معنى كلمة يعني! فتسألها بسذاجة مغفل: "يعني ماذا يا حاجّة؟"

"يعني شوية بنات حلوين، وبيسرّحهم." تقول ذلك وهي تفرم البصل، وتضعه في مقلى الزيت، فتتصاعد أبخرته المشعوطة بروائح يشمها كل رواد المطعم الصغير. . تنقبض لتُحدِّث نفسك: "هل معقول أن يكون رجل بهذه المواصفات، ويقوم بمثل هذه الأعمال؟ يسرِّحهن!" أنت تمقت هؤلاء النساء "وهل هن نعاج كي يسرح بهن؟ وحتى النعاج فهي تسرح في الخلاء، وتأكل العشب الطاهر! فكيف

يُسرِّحهن هذا الرجل الـ. . (هذه المرّة، تقولها بلا حرج.) وأين يسرحهن؟ معناه أن هذا الأعرج هو قواد كبير، والنساء الثلاث من إياهنّ! هل يُعقل أن يكون هذا المطعم وكراً للدعارة؟ وإذا كان كذلك، فلماذا يقدمون الإفطار والعشاء، ولا يعلنونه مقرّاً مفتوحاً للمومسات؟" أسئلة كثيرة تتجمع كالغيوم التي تمطر أحماضاً فوق رأسك. وهنا تتشجع فتقول **للحاجّة عليّة**: "وكيف تؤوين في مطعمك نساءً ساقطات من هذا النوع، وأنت تعرفين طريقهن، وأنت حاجّة، وتخافين الله؟"

"هه هه هيء!" تضحك الحاجّة وهي تضع على طاولتك الصغيرة صحن الفول بزيت القطن، وإلى جواره صحن صغير فيه نصف ليمونة بنزهير، وربع بصلة صغيرة، وثلاث قطع مخلل لفت وخيار وفلفل قائلة: "لا دا انا حاجّة سبور"! تصمت، فهذا لا يهد حالك، ولكن الذي سيصدمك صدمة كبيرة، هو رؤية هذا **الحسن الأعرج**، يوم الجمعة الذي سيتلو هذا الحوار. . فها أنت تجلس في الصف الثاني بين المصلين في مسجد سيدي جابر الأنصاري، مستمعاً إلى خطبة إمام المسجد، والإمام يصرخ وهو يقول: "فمن زُحزح عن النار، فقد فاز. . . ." وإذ تفاجأ يا حبيبي بمشاهدة حسن **الأعرج** يجلس في الصف الأول بين المصلين، مادّاً عصاه أمام إمامه، فتشهد عليه يوم القيامة! الله أكبر! كيف يدخل هذا الـ. . بيوت الله؟ شيء غريب! وماذا يقول هذا **الحسن** لنفسه

وهو بين يدي الله؟ وكيف يجرؤ أن يقف بين يدي الله وهو بهذه النجاسة؟ ترى المسجد مكتظاً بالمصلين، الذين يبدو على وجوههم الخشوع والتوبة، وإمام الجامع يشهر يديه، ويؤشر بسبابته، ويُعلِّم الناس، ويذكِّرهم، ويرغِّبهم، ويهدِّدهم.. " فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ.. " تراقب المصلين وهم يجيبون: " آ آ آ آ آ آمييييين، يا رب العالمين"، بينما القوّاد يجلس بخشوع، رافعاً يديه إلى الله، مستغفراً، يتوب توبه العاهرات. ولكن كيف تتوب العاهرة؟ سيجيبك أبو جرجس الذي ستسكن في شقته لاحقاً وهو مُسلطن بقوله: "عندما تتوب العاهرة، فإنها تصير قوادة!" فتسأله ساخراً: "طيب، والقواد عندما يتوب يا (أبو جرجس)، ماذا يصير؟" فيجيبك ضاحكاً كعادته: "يصير إلى جهنم!"

تعود من الكلية وتدخل غرفتك، فتفاجأ بمشاهدة نادية الجميلة نائمة ببراءة وأمان ودعة على سريرك. تراقب رقّتها وجمالها ووجهها الحالم، وهي تتمدد بهدوء على سريرك، وتتظاهر بالتغطية بلحافك، بينما يكشف الغطاء عن ساقيها المدملجتين، الغضتين الحنطيتين، ويظهر ما بينهما من مثيرات فائقة للشهوة، مثل يابانيات ياسوناري كاواباتا في روايته ؛ (الجميلات النائمات) والتي تمنى غابريل غارسيا ماركيز أن يكون هو مؤلفها، فكيف لو كان ماركيز يقف وجهاً لفخذ - تقصد وجهاً لوجه - أمام إحدى فتيات نادي الجميلات

النائمات! صحيح أن أولئك كن حفايا عرايا، وهذه مغطاة، ومكشوف عنها الحجاب جزئياً. ولكن هذه النادية في نظرك أشد إثارة من جميلاته النائمات!

ماذا تفعل أيها المراهق الجاهل المغرور، الساكن مع أهل هذا البيت، أمام هذا المشهد؟ صحيح أنك تتمنى الاقتراب منها، والذوبان في ثناياها، ولا شك أنك تشتهيها، وإلى جوار مغسلة الحمام كانت قد أثارتك رائحة كلسونها المستعمل، عندما تناولته بيديك، وتأملته ملياً، ثم شممته، فعرفت أنه.. وفيك طاقة جنسية بكر، تهد الحيطان. فهل تقترب منها، وتُقبِّل خديها الممتلئين نضارة وطراوة، أم تشم رائحة عنقها العطر الغض البضّ، أم تقبِّل شفتيها الكستنائيتين النافرتين، المتأججتين بلون بتلات الوردة النارية، أم تمد يدك إلى دفء صدرها الناهد بطراوة ونضارة الزبدة الشهية، والذي يحيرك وهو يخبىء حلمتين داخل حمالتين من الحرير الرقيق، فيسيل لعاب جوعك الجنسي الفائر، فتحاول أن تلجمه أمام الصبية المسترخية فوق السرير! هل تكشف ما تبقى من سترها، وتنسل فتنام إلى جوارها، ثم تطوق خصرها وتتحسس بطنها وما..؟ ثم ماذا ستكون نتيجة هذا الـ..؟ هل ستصحو الجميلة وتجمع عليك الدنيا، مُدّعية بأنك هتكت عرض المحصنات الغافلات، فتدخل في معارك الشرف والاغتصاب، وتقعد في(تخشيبة الكركون) ملوماً محسوراً بين

المساجين، ثم تُطرَد من الجامعة، وتعود إلى أهلك، كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، على رأي المنفلوطي؟ أم ستغرق في حبها، كما غرق أنطونيو في حب كليوبترا، فأضاع نفسه، وأضاع الوليّة الإمبراطورة، وقضى على تالي أهلها، وجعلها آخر الفراعنة؟ وهل ستُضيِّع إمبراطوريتك الدراسية، وتحرق كتبك، كما حرق قيصر كتب مكتبة الإسكندرية وهو يصارع أنطونيوس وكليوبترا، فتنجح في حبها، وتسقط في امتحانات الكلية، ثم تسقطان معاً في الخيبة والفشل؟ لا بد من حنكة التصرف لمواجهة هذا الموقف!

وعندما زرتهم مودِّعاً، بعد تخرجك من الجامعة، وبعد أربع سنوات من غيابك عنهم، كانت ما تزال منقبضة تجاهك، فصرحت لك باستغرابها الشديد لتصرفك معها يوم نامت في غرفتك. وقالت لك ساخرة، وكأنها تثأر منك: "لقد كنت مثل القطة المغمضة. وكنت قاسياً بلا قلب، حينما قلت لي وأنا أقوم من الفراش، متثائبة من على سريرك: من الذي سمح لك أن تنامي في غرفتي؟ هذه الغرفة استأجرتها بنقودي، فإذا نمتِ هنا مرة أخرى، وشاهدتك على هذا الحال، فسوف أرميك من الشباك!" تقف صامتاً مخزيّاً أمامها، فأنت لم تنس ذلك الموقف أبداً، وما زلت تعيش كل حركة، أو همسة تنفّست بها نادية، وتذكر تلك اللحظات

الدراماتيكية المتوتِّرة، إذ كانت أم عربي تقف بباب المطبخ، تنظر إليك، وتستغرب ذلك الغباء في التصرف مع فتاة رقيقة بريئة زائرة، فكّرَت أن تسترخي في غرفتك لبعض الوقت!

وسرح خيالك يتذكر أيامك في كلية الهندسة. الطالبة الوحيدة في كلية الهندسة، التي كانت تلبس تنورة طويلة جداً، كان اسمها **تهاني الكفراوي**. واسمها مشهور ليس لسبب، سوى أنها هي الوحيدة بين الطالبات، ذات الملابس الطويلة التي تغطي الرسغين، وتصل إلى ما تحت الركبتين بشبر واحد تقريباً. وأما باقي البنات، فيلبسن تنورات (الميني جيب)، إذ يتراوح طول التنورة كلها من شبر إلى شبرين فقط، وقد تغطي أو لا تغطي الأفخاذ التي تتحرك في ساحات الكلية، مربربة نحيلة طويلة قصيرة سمراء شقراء سوداء حنطية بيضاء.. وبعضها قد لا تغطي شيئاً، خاصة عندما تجلس الطالبة في مقصف الكلية، أو في مكان يضطرها لوضع ساق فوق ساق!

وعلى سيرة (الميني جيب) كنا ذات مرّة أنا و**محمد محمد** نصعد سلم عمارة، لزيارة أحد معارفه المنصوريين الذي كان يسكن في الطابق الرابع بينما فتاة تنزل من الطابق العلوي، فنشاهد ونحن ننظر من أسفل السلم إلى علٍ لوناً أحمر رقيقاً تحت تنورتها الزرقاء القصيرة جداً. نلتقي نحن الصاعدين، وهي النازلة، فيقول لها **محمد** بوقاحة: "لا تخافي، فنحن لم نشاهد شيئاً!" فنفاجأ برد الصبية البريئة

المظهر، وهي تقابلنا على السلّم، وتصرخ بصوت متوتر، وعيناها مفتوحتان على الآخر: "ليه، عاوزين تشوفوا؟!" فنخاف من (فضيحة بجلاجل)، ونسرع في الصعود، وأنت تقول له: "لعنة الله عليك! كنت سترمينا في داهية!" فيقول لك خائفاً: " لم أكن أتوقع أن (البت) عينها بيضاء لهذه الدرجة! "

الطالبة تهاني الكفراوي تتعرض كل يوم لكثير من السخريات والتعليقات المحرِجة من قبل زملائها الطلبة، خاصة الذين لا يعرفونها، والذين لا يستحون من المواجهة، فما أن تدخل المسكينة إلى حرم الكلية، حتى يفاجئها أحد الفاقدين قائلاً وهو يمضي بسرعة: "إيه يا جميل؟ بردان النهارده؟" وفي ساحة الكلية، حيث تمشي وحدها برومانسية حالمة فوق مسطحات النجيل، فتشاهد أحواض الزهور المنسقة بأشكال هندسية، فيواجهها..! من الذي يواجهها؟ نسيتَ عمّن تتكلم! يبدو أنك صرت تُخرِّف! الكبر أضاع ذاكرتك! ماذا كنت تقول؟ آه، تهاني الكفراوي.. يواجهها طالب قليل الأدب معاكساً بقوله: "هُمّ بيلبسوا بطانيات ليه؟" ويعلق زميله: "دول بيكتموا الحر." ويقول ثالث: "أي نعم الجونلّة صوف، بس صوف صيفي مفتخر!" ويقول سابع: "دي لبخة في عز الصيف، تدفي الصدر!" ويعلق عاشر: "أكيد إنها آخدة الستاير بتاعتهم، وعاملاها جونلّة."

تدخل تهاني الكفراوي إلى المقصف، فيشاهد طالب

مشاغب ملابسها، ويقول لها، وهو خارج: "ليه؟ همّ بيوزعوا هدوم ببلاش؟" فيجيب زميله: "دي لابسة فستان أمها الفلاحة!" ويتساءل طالب اسكندراني فاقد: " هيّ كلية هندسة، ولا عزبة فلاحين؟" تتعقد الطالبة الحيِيّة تهاني! وفي السنة الثانية نفتقدها، إذ تغادر الكلية التي غدرت بها، وتترك الدراسة وما يدرسون! ويقال إن والدها كان قد أجبرها على ارتداء الثوب الطويل، وهي مخنوقة في مثلث الرعب ما بين ضغط ولي الأمر، وضغط طلاب الكلية، وضغط أحاسيسها الذاتية! وفي النهاية، تنهار مقاومتها، وتضطر للعودة إلى البيت، ويكون مآلها الزواج من ابن الحلال (اللي يلمّها ويشكمها!) تحزن على تهاني الكفراوي التي تدفع ثمن.. ثمن ماذا؟ لقد راحت المسكينة بلا ثمن!

وعلى الطريق العريض المؤدي إلى قاعة الرسم، يقول لك محمد محمد تعليقاً على انهيار حفريات الكلية التي ماتزال حديث الطلاب والطالبات: "إذا أنتشل من هذه الحفرة ثمانية قتلى تحت الردم، فكم ألف قتيل اختفى تحت أنقاض قناة السويس التي استولت عليها بريطانيا "العظمى"، دون تعب؟ وكم مليون قتيل راح ضحية أهرامات ومعابد ومدافن وتماثيل الفراعنة، كي يحققوا البقاء لنظام الفرعون؟" يتألم محمد محمد وهو يقول "هذا الشعب البسيط الطيب، يضحي، ليرسم ملامح حضارة عروبة مصر. لاحظ أنهم يحفرون الوطن بأرواحهم، ويكافحون ويموتون تحت ترابه!

تصور أنه كل يوم، يُستشهد لنا ثلة من العمال في بناء السد العالي، وفي المصانع والمزارع، وفي مشاريع السويس، وفي تشييد مباني الجامعات والمعاهد والمستشفيات. نحن نبني الوطن يا **مشهور!** الدنيا قائمة قاعدة، بينما أنا وأنت نضحك هنا وهناك! وليكن معلوماً لديك، أننا لن نستطيع أن نضحك ونفرح، لولا هؤلاء المضحِّين بأرواحهم، كي تعيش مصر حرة عربية!"

يسمع **محمد محمد** خطاب عبد الناصر في عيد العمال، فينتفض كبرياءً وهو يقول: "عندما صار عبد الناصر رئيساً، طلب أبوه أن يبقى في وظيفته عاملاً في مصلحة بريد رأس التين، ولم يتكبر على زملائه العمال البسطاء!" أين أنت يا **محمد محمد محمد** الذي كنت تقول: "يجب أن يكون لكل إنسان منا **موقف**؟" صار كل منا هذه الأيام يبحث عن **مقعد!**

فوضى حواسّ اسكندرانية!

المشاة في طرقات اسكندرية منتصف القرن الواحد والعشرين نادرون. لا تواجهك وأنت تطير فوق شوارعها سوى هذه العمارات الزجاجية المتصافحة بعضها مع بعض في عنان السماء، والتي تلمع جدرانها شبه الزجاجية في النهار وهي تمتص أشعة الشمس وتخزنها، وفي الليل تجد هذه الجدران تعيد ما اختزنته من نور الشمس، فتضيء المدينة وتحول ليلها إلى نهار، دون أن تكلف شركة الكهرباء شيئاً!

كان الناس أيام شبابك يتزاحمون هنا وهناك. والترام يُحذِّر المشاة بالابتعاد عن خط سيره، مجلجلاً بجرسه، والجابي (الكمسري) ينظر من الباب وهو يقول لامرأة متباطئة في الصعود: "تطلعي يا وليّة، ولاّ اصفّر؟" وامرأة تغطي هيكلها الضئيل بملاية لف من فوق إلى تحت، تصطدم بالترام، فترتد إلى الخلف منثنية عن عجلاته الحديدية التي تقضم أصابع قدمها اليمنى وتأخذها معها، فتنطّ الأصابع دامية بين قضيبي السكة الحديد، ذلك لأن الوليّة تتفاءل بدخولها السكّة برجلها اليمين، ويلتم خلق الله حولها مثلما (يلتمُّ المتعوس على خايب الرجاء!) والبائع على الناصية

يحلف بأنك ستأخذ مشترياتك من الخضار والفواكه، حتى ولو لم يبق معك نقود. "بكره يا راجل تجيب الفلوس، وعلى أقل من مهلك." وفجأة يعلنون نبأ وفاة الطالب منذرٍ الخراساني وصاحبته ميّ مسلّم، إذ وجدوهما قد ماتا اختناقا بغاز منفلت من أنبوب سخان الماء، وهما يستحمان داخل بانيو الحمام، والفنان الرسام سيف وانلي بشعره الخنفسي الطويل يعلن افتتاح معرض الصيف في بينالي اسكندرية، ومحمد شبلي يبيع سميطاً وبيضاً وجبنة وسجائر كليوبترا، على رصيف ميناء اسكندرية، للكباتن الواقفين في السماء، على سطوح سفنهم التجارية العملاقة، فيُنزلون له السلة بالحبل من السماء، وهو يضع الأغراض فيها ويقول لجورج في قمة جبل السفينة: "يا جورج شد الحبل.. يا جورج، شد الحبل! " ولا تقدم في العملية التجارية، فيتقدم منه زميله قائلاً: "أي هوّ جورج بيعرف عربي؟ إوعى كده"، ويصيح في جورج بالإنجليزية: "يا جورج: يو سبيك إنجلش؟" فيستأنس جورج بمن يتكلم الإنجليزية، ويجيب: "يس، يس"! فيقول له بالعربي: "طب ما دام بتعرف شد الحبل بقى! " وامرأة غبراء بثياب مهترئة تقعد على الأرض وهي تقحف بأسنانها نصف بطيخة يبدو أنها تالفة إذ تناولتها من جوار حاوية النفايات، وألبان الدفراوي على باب محطة ترام كليوبترا تُسخّن عسل نحل البحيرة وتُسيِّله من علٍ مثل الزيت السائل، كي يسيل معه لعاب المارّة، فلا يقاومون إغراء

شرائه. وفي المحل يقولون لك: "صباحك قشطة وحلاوة شعيرية (تستاهل بُقّك) ومساءك جبنة قريش ممشِّش وجبنة دمياطي وبسطرمة وبيض، وليلك حليب لبن إن شاء الله!" والبوارج الحربية السوفياتية الحاملة للرؤوس النووية تقف في ميناء الإسكندرية في زيارة ودية، فيسأل صحفي قائد الحربية السوفياتي: "نحن لا نرى شيئاً نووياً على سطح السفينة، فكيف تعمل هذه الصواريخ التي لا نراها على السطح؟" فيجيبه القائد السوفياتي بوقار: "أتمنى أن لا تضطر للعمل، فلا تراها!" وإلى جوار قضبان المحطة تقعد امرأة ضئيلة الحجم، بملايتها اللف أمام طاولة، شبر في شبر، تبيع الليمون البنزهير، كل عشرين حبة بقرش صاغ، ويقعد إلى جوارها رجل عجوز أعمى يكاد يذوب في الأرض لشدة هزاله وهو يدندن ويغني:

(يا اللي شفايفك كرز، والخدود برقوق،
وايديك موز مغربي، يخلص قوام من السوق،
وعن شاعر اسكندري، ساكن منِّنا وفوق،
القلب يعشق قبل العين أحيانا،
إذا رأى من بعيد أيّ فستانا.)

فتقول له صاحبة الملاية اللف: "طيب قوم شوف لك شغلانة تنفع بها المسلمين، أحسن من الكلام الفارغ اللي بتقوله ده!" وسامية الشغالة تتخانق مع بائع الطماطم المتجول بعربته على فَرق تعريفة. كان الملعون قد زوّد سعر الكيلو،

من قرش ونصف إلى قرشين، فَرَقَعَت بالصوت، متهمة إياه بالتحرش، والتمّت العالم، ودون استفسار أو سؤال، تجد كلاً منهم يدلي بدلوه، وإلهي لا يذيقك عذابه! (دا يا راجل أكل ضرب، ما أكلهوش حرامي في سوق!) والناس يتزاحمون، والفنانة الشقية شادية تتمرقع في شوارع اسكندرية مع فريق سينمائي ضخم، وهم يصورون فيلم ميرامار عن رواية نجيب محفوظ، وامرأة تضرب سجادتها المعلقة على شرفة الطابق العاشر من العمارة، فيسقط من يدها مضرب الخيزران، فتنظر إلى طفلة شغالة، تلم شعرها بمنديل مربوط على جبينها الصغير، وتقف على ناصية الشارع، فتطلب صاحبة المضرب منها أن تمسك بالمضرب لحين نزولها الطوابق العشرة، فتطمئنها الصغيرة التي في الشارع بأنه في الحفظ والصون. تصل المرأة إلى باب العمارة بعد دقائق، تنظر هنا وهناك فلا تجد أحداً. كانت البنت البريئة قد اختفت منذ سنة، (وضربتها زومبة)، وقامت بدور "حاميها حراميها"، وفي الصباح الأول بعد ليلة رأس السنة، تنظر إلى شوارع اسكندرية البحرية الإغريقية الهوى، والتي شملها إعصار سهرة ليلة رأس السنة، فتشاهد جميع صحون الدنيا القيشاني الصينية البيضاء والمزركشة وحتى قلل الفخار القديمة، قد أسقطت عمداً من الشرفات والشبابيك العليا في العمارات، قبل انتصاف ليلة رأس السنة، وتهشمت شظايا على الأرض. يقولون إنهم قد كسروا قُلّة وراء العام الذي

مضى، ويتفاءلون بعام جديد خال من الكسر، وهكذا نحن العرب، نكسر وراء المغادر قُلّة، ولذلك يرفض عماليق العرب أن يغادرونا، كي لا يُغدر بهم، فيكسروا خلفهم قُلّة! وشرطي القسم يحقق مع البنت الشغالة في قضية السرقة التي اتُّهمت بها، فيشاهد حاجبيها منتوفين، وهي ما تزال صغيرة على الحب، فيشخط فيها بسؤاله: "إنت بتنتفي يا بتّ؟!" فتجيبه بكل صلف وعين بيضا تِندَبّ فيها رصاصة: "دا مش شغلك!" ومدفع رمضان يقصف من بعيد، فيقعد شرطي المرور تحت مظلته يفطر فولاً ويتحلى بالعجوة، وهو يؤشر لتنظيم مرور السيارات، وموائد الرحمن لفطار الصدقات على طاولات ممددة في شارع السوق التجاري لكل من هبّ ودبّ، والكل يأكل المقسوم كإخوة. وفي منتصف الشارع يقف بائع العرقسوس إلى جوار بائع التمرهندي، وثالثهما بائع شراب الخروب، بمآذن براميلهم النحاسية المزركشة بكل طقّاشات البلد، وهم ينادون بأعلى الأصوات، ويدلِّعون مشروباتهم، فيلتَمُّ عليهم خلق كثير. وأهبل تائه، يسأل مغفلاً يقف أمامه: "تعرف العمارة اللي عاليمين، المقابلة للعمارة اللي عالشمال؟ العمارة يا راجل العالية فوق فوق؟ العمارة اللي من غير سلّم والمصعد واقع حتى! دي اللي تحتها قهوة كبيرة من غير كراسي، والناس اللي فيها حتى بيشربوا الشاي، بس من غير كاسات. وبيقولوا فيه عندهم سندوتشات، بس مفيش للسندوتشات عيش، وفيه قهوة بس

الغاز خالص! في الشارع اللي هناك! أصلي تهت وا..!"، فيقول له المغفل: "لأ معرفهاش." وفي الليل يقول الكمسري لزوجته التي سقطت من سريرهما الزمبركي وهما يتفعفلان: "تطلعي يا وليّة ولاّ اصفّر؟"

أفكار سخيفة من هذا النوع تتجمع في ذاكرتك، فتصيبك بالدوار وهي تصدر منك دون لباقة، وليس لها جمالية في الشكل، ولا حتى قيمة في المضمون! قد يكون(الكِبَر عَبَر)، فلم تعد تميز الثور من الطحين!..

تغفو وتنام قيلولتك في الطابق التسعين، فتأتيك هلوسات العجائز إذ تحلم بأنك تحقد على هذه الرافعات التي تتحرك في السماء برجالها الآليين، حاملة معها جسوراً قوية مُصَنّعة، خفيفة الوزن، وغير قابلة للكسر، وواجهات معمارية شبه زجاجية، تغلف الهياكل الصلبة لأبراج ناطحات سحاب الإسكندرية! أين اختفى أولئك الفلاحون الذين بقوا ولم يموتوا تحت رمال الأساسات؟ كانوا يشغلون عمال التراحيل في أعمال البناء، كي يمتصوا البطالة، ويأكلوا هم وعائلاتهم عيشاً وحلاوة، وأما اليوم، فلقد امتصت البطالة عمال التراحيل، ونقلتهم إلى مناطق بعيدة، ثم حرقتهم بجاز! تبحث عنهم، تطارد وراءهم وهم يركضون باتجاه جنوب ملاحات البحيرة المجففة، عاضّين على أثوابهم فتظهر عوراتهم ذابلة للعيان. تلحق بهم فيدلونك على الخراب. مدينة أخرى في صحاري إفريقيا بعيدة عن شواطىء البحر. عالم آخر من

بيوت صفيحية صدئة متراكمة بعضها فوق بعض وبيوت طينية تفصل بينها طرقات هي ليست طرقات بل قنوات تمر فيها المجاري المتعفنة ويمر فيها الحفاة وهم عجاف محنيو الظهور، فيدوسون بالمَيل وأحياناً بالمَيلَين كي لا يقعوا في المحظور. تبطىء ركضك وتسير الهوينى وتنسى نفسك وسط الزحام وتعتقد أنك في الطرقات والحواري والأزقة الضيقة لمخيمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين اللذين دهمتهما "تسونامي لبنان" ولكنك لست في لبنان بل في بيوت صفيح صومالي عزيز لا لست في ضواحي مقديشيو الخاوية على عروشها إلا من الذباب تنظر وتحدق في الأشياء غير الواضحة المعالم أمامك في دارفور تجمعات العرب في الصحراء الغربية وإعلان بعض المناطق منكوبة في موريتانيا حيث تجد في الصحراء المغربية مخيمات دير البلح والمغازي التي سموها بهذا الاسم لكثرة ما طحن الغزاة الغرباء العابرون أطفالها وخلطوا لحومهم هم مع الاسمنت المسلح فبقيت رؤوسهم مرفوعة بين حطام الاسمنت وقضبان الحديد وحي الشجاعية وجباليا في الجنوب والضاحية الجنوبية في الشمال وتل الزعتر في الجنوب ونهر البارد الذي صار ساخناً بسبب الثلوج المتساقطة عليه في عز الصيف وعين الحلوة التي فقأوها وحي الأعظمية الذي صار عظْماً قَسَماً عَظَماً بلا لحم وتحفة من متاحفها البالية البابلية الآشورية بطن التاريخ العربي المبقور حيث يوسعون سجن أبو غريب ليشمل الوطن العربي كله

فيوحدوه مع غوانتنامو لتغطي خيوط العنكبوت السامة الكرة الأرضية كلها قد تكون صوملة مخيفة ولكن من نوع اسكندراني الطرقات ضيقة لدرجة يكاد السور الأيمن فيها يلتصق بالسور الأيسر كصفحتي كتاب عملاق وأنت بمرورك هذا معصور بينهما مثل اللحم المعلوك الذي يضعونه داخل صفحتي شطيرة ساخنة من لحوم البربورغر الكاوتشوكية الشطيرة ساخنة والطرقات ساخنة والبيوت ساخنة والقلوب ساخنة تذوب وتنقط أرواحها رويداً رويداً والغبار والحرائق والدخان يغلفان الجو وحمار ينحشر بحمولته من البرسيم بين ضفتي القناة التي تضيق تضيق تضيق فيحشره السرداب المروري فلا يستطيع أن يتقدم ولا أن يلف رأسه ولا أن يدور فالأسوار العالية بين الجيران ضيقة لدرجة لا يستطيع المرور فيها إلا كل من ذاب شحمه وهزل لحمه وبقي على الجلد والعظم ونساء يجلسن على الأرض هنا وهناك متقابلات تتدلى أثداؤهن العارية المجففة مثل أكياس اللبن المعصورة من محتوياتها فيغسلنها بمياه المجاري المعالجة والمكررة والتي دفعوا بها إليهم مدّعين بأنها صالحة للشرب والغسيل وأطفال يلعبون في المجاري ويقذفون بعضهم بعضاً بمحتوياتها وقد اختفت صناديق نحل الفلاحين التي كانت تنتج عسل البحيرة وحلت محلها طرود الذباب والبعوض الذي يهيج بغزارة طرود النحل والذباب يأكل جيفاً متحللة داخل أكوام قمامة لا تعرف فيما إذا كانت لأناس أم

لحيوانات انتهت صلاحيتها مبكراً فانطفأت على قارعة الطريق ويختفي الرجال والنساء من الأزقة ويدخلون بيوتهم المخنوقة كي يداروا سوءات زمنهم فيأكلون لحم بطونهم وهم يتلاشون كلطع البقر المحترق ذلك لأن فرص العمل قد ضاعت منهم واختفت أراضيهم ومزارعهم بقدرة قادر فجرفوهم إلى مناطق بعيدة عن أعين السياح والمستثمرين الأجانب وأصحاب الشركات "الاستراتيجية" خوف أن يفضحونا ويخزونا ويقولون إن منطقة الإسكندرية غير مؤهلة للاستثمار فيقذفونهم إلى خارج المدينة الجميلة حيث لا حاجة لهم بهم بعد أن حلت محلهم في مناطق العمار "الواعدة" الرحبة تلك الرافعات والجسور والقضبان المعدنية المعقدة التي لا تتفاهم مع أحد ولا تأتمر إلا بالكمبيوتر الذي يبلغها عن زاوية المعمار والوزن المسموح به والسرعة القصوى في الإنجاز وتفاصيل الأعمال المعمارية والمدنية والميكانيكية والإلكترونية والكهربائية والمائية والاتصالاتية والديكورات والتصاميم والتشطيبات الداخلية والخارجية وحتى الحدائق الجميلة والطرقات الرحبة حول المباني ومواقف السيارات المخفية فوق أسطح العمارات وكل ما له علاقة بالمعمار الحديث تجد هذا العفريت الآلي يحشر قلمه فيه وينفذه حسب المواصفات النموذجية!

تفتقد أولئك الفلاحين الصعايدة وعمال أهل بحري الذين كانوا يجلسون هناك على الأرض، إلى جوار حفريات مبنى

هندسة العمارة! أين ذهبوا؟ لقد كانوا يضعون خبزاً على صرة قماش مفتوحة، وحلاوة طحينية على ورقة حلاوة، نشاهدها نحن الطلاب وهي تلمع بالزيت الذي يتصبب منها، وينقع تحتها مثل عرق جباههم الذي.. وكلما مر عليهم عامل أو حارس، أو حتى طالب كلية، يقولون له: "تعال كل! تعالَ!" إنهم لا يقولون لك: "تفضل". كما يقول المثل الإسكندراني: (عزومة مراكبية!) بل يقولون لك: "تعال!" إنه كرم صادق، وأمر بالمشاركة في الأكل "تعال!" وماذا يأكل الواحد منهم - يا حرام- محتويات علبة سردين؟ أو تجده يقضم قطعة جبن ممشِّش، أو ينطح فحل بصل، وأحياناً يفعص على رغيف خبزه قرصي طعمية، أو يكتفي بصحن فول دون زيت! يقول لك الفلاح المصري وهو يحمد الله: "دا جميل جداً!" كل شيء عندهم جميل جداً. وهم لا يعترفون بغير مصر، ولا يتنازلون عن مصر درجة لأحد!

"الكنافة عندنا جميلة جداً في اسكندرية.!". تقول لك أم عربي.

"الكنافة النابلسية، أم الحلويات العربية يا خالتي!" تجيبها مُحتجّاً: "قولي الكنافة في اسكندرية عليها سكر قصب حلو جداً. ولكنها لا تصل إلى درجة لذّة الكنافة النابلسية! اعترفي بشيء واحد غير مصري على الأقل على أنه الأفضل، فالكنافة النابلسية هي سيدة حلويات العالم!" فتجيبك بإصرار:

"لأ، دا الكنافة عندنا في مصر جميلة جداً!"

يسمعكما صديقك محمد محمد، فيقف ضدك هذه المرّة وهو يقول:

"يجب أن تعلم يا مشهور أن مصر هي أم الدنيا، فالأهرامات هي أعظم معمار هندسي في العالم منذ خمسة آلاف سنة، يا أبو الهندسة أنت، وأبو الهول العظيم هو أعظم تمثال حجري قديم في العالم، والمومياوات المصرية حنطها أعظم طب في العالم، وفنار الإسكندرية هو أعظم معمار منارة بحرية في التاريخ، ومن عجائب الدنيا السبع. واليوم سنفتتح استوديوهات مبنى الإذاعة والتلفزيون في مسبيرو بالقاهرة، وهو أكبر مبنى من نوعه في العالم، وإذاعة صوت العرب من القاهرة هي من أقوى محطات الإذاعة في العالم، تسمع بوضوح تام من موريتانيا إلى البحرين.

كل ذلك يتم ونحن ما نزال في السنة الجامعية الأولى. ترى ماذا سيكون عليه الوضع بعد عشر سنوات، أو عشرين سنة؟ وما هذا الناصر الذي يؤسس كل يوم مشروعاً عظيماً، ويفتتح كل يوم مصنعاً عظيماً، وينجز كل يوم إنجازاً عظيماً!

يقول هذا وهو لا يتوقع أن كل مراكز القوى المعادية تتربص بالرجل، لتنكس وتكنس منجزاته، وتقضي عليه في شبابه، فلا تمهله حتى يحقق أحلامه العظام!

لم يكن محمد يدرك شراهة الشركات "الاستراتيجية" العابرة للقارات، التي ستشتري الأرض وما عليها من مصانع

وجامعات ومباني منجزات مرحلة طموحة! ولم يتخيل مجرد خيال، أنها ستشتري الأهرامات بسعر رملها، وأنها ستعيد المزارع التي أممت إلى إقطاعييها، وأنها ستسير على طريق عبد الناصر، ولكن (بأستيكة)!

أبو فطومة!

الصباح مشرق جميل، وبحر الإسكندرية يختلف أمام ناظريك عن كل البحار، خاصة وأنت تُحلِّق فوقه ناظراً من الواجهة الزجاجية الواسعة في الطابق التسعين! يبدو أنك غير قادر على التعامل مع اسكندرية ألفين وخمسين، بل تبدو مصرّاً على تلبُّس دور الشباب في ستينيات القرن العشرين، ومصاباً بمرض الحنين إلى أيام زمان. تقف على باب البحر من هذا الارتفاع الشاهق، ولكنك تنزل منه إلى الطابق الثالث، حيث غرفتكما المستأجرة في شقة **(أبو جرجس)**، التي انتقلتما إليها بعد المشكلة التي حصلت في شقة أم عربي، يوم حشرك **محمد محمد محمد** في غرفتك، وتحداك في لعبة المصارعة. كنا نلهو باللعب كطفلين، وعندما حمي الوطيس، رفعته وخبطته على السرير، فانكسرت إحدى أخشاب قاع السرير العرضية، التي تحمل الفرشة! شعرنا ساعتها بذنب كبير، ولم نعرف كيف نتصرف، فأخفينا الجريمة المكسورة، تحت درج الخزانة.

وعندما جاءت أم عربي من رأس التين، ورتبت السرير،

اكتشفت الجريمة، فواجهتك بها قائلة: "لو قلت لي إنك قد كسرت اللوح، لما. . " تقف أمامها، وعيناك في الأرض، كطالب مذنب في مدرسة ابتدائية، وهي تؤنبك بهدوء محققة مباحث: "ولكن إخفاءه بهذه الطريقة، يجعلني أرتاب فيك!"

لم تجب بشيء، ولكنك جمعت لنفسك الخطأين؛ إساءة التصرف مع نادية من جهة، ومن جهة أخرى، كسر لوح سرير غرفتك! وعندما قالت لك الولية "إنني بدأت أرتاب فيك"، فلقد حق عليك الرحيل! تشاورت مع **محمد محمد** الذي قال لك: "أجرة الغرفة هنا خمسة عشر جنيهاً لكل شخص تعتبر عالية، ولا نستطيع الاستمرار في دفعها. وما دمنا قد تفاهمنا وصرنا أصدقاء، فما رأيك أن نرحل، ونبحث لنا عن غرفة واحدة بسريرين عند عائلة، فندفع مبلغاً أقل من هذا؟"

وبعد تفكير عميق، استشرنا **المكوجي أبو فطومة**، الذي كان بالإضافة إلى الكيّ يعمل سمساراً للعقارات، والذي ستتعرف فيما بعد على زوجته **أم فطومة**، البيضاء النحيلة، ذات العينين الخضراوين، التي تجمع وتوزع ملابس الغسيل والكي من وإلى شقق أهالي الحارة، وفي نفس الوقت، تجمع له معلومات عن الشقق والغرف الفارغة، والمطلوب تأجيرها، مقابل عمولة لمن يحضر مستأجراً جديداً.

يرفع أبو فطومة المكوى الساخن عن بابور الكاز، ويمسحه على خرقة قماش رطبة، كي يزيل السناج عنه، ويضع الذي برد مكانه، ثم يواصل الكي اليدوي، والبخار يتصاعد من غطاء الملابس الخاضعة للكي، فتشم رائحة مشعوطة، بينما هو يقول لنا: "هناك عائلة محترمة، ناس أكابر، ولكن الزمن كبس عليهم، فاضطرهم لأن يؤجروا غرفتين من غرف شقتهم، واحدة مشغولة، يسكنها طالب في كلية الطب، والأخرى خرج منها ساكنها بالأمس، فتعالا معي لمشاهدتها."

نطلع مع (أبو فطومة) بالمصعد الذي يبدو على شكل قفص داخل قفص من الحديد الصدىء، يصعد وينزل في بئر سلم مكشوف القاعدة، فيستقبلنا عند باب الشقة رجل خمسيني العمر، وجهه بشوش ومتعب، مربوع القامة، حنطي البشرة، أذنه اليمنى مقطوعة، وأسنانه سوداء منخورة.. يرحِّب الرجل بنا، ويطلعنا في البداية على مطبخ نظيف، مساحته حوالي تسعة أمتار، ثم يتقدمنا إلى حمام أبيض البلاط المصقول، فتشم رائحة الفليت التي لا تحبها، ولو أنهم هنا يضعونها لقتل الصرصار الأمريكي الأحمر، الذي يخرج لك متبختراً وواثقاً بنفسه من كل جحر، فتشمئز من حركة أجنحته الحمراء المسودة، ولا تملك إلا أن تفعصه بحذائك، أو أن تستخدم له مبيداً! وتلاحظ أن الغرف هنا أوسع وأنظف وأحسن ترتيباً، وأفضل من مطبخ وحمام أم

عربي. ثم يتقدَّمنا إلى غرفة نظيفة واسعة، فيها سريران مفردان. يفتح الرجل الشباك، فتدهشك إطلالته. الشباك يفتح مباشرة على البحر الأبيض المتوسط! تفرح بالبحر الواسع! وتدور بخلدك وشوشات ونغمات غنائية فيروزية: (شط اسكندرية يا شط الهوى..!) بينما يقول أبو جرجس وهو واقف في الغرفة: "أجرتها خمسة وعشرون جنيهاً في الشهر، وإكراماً (لأبو فطومة)، خمسة جنيهات خصم.. عشرون. تستطيعان أن تسكناها معاً، فتكون دفعة كل واحد منكما عشرة جنيهات (ببلاش.)" فيأخذك محمد محمد إلى جانب، ويوشوشك قائلاً: "عشرة، عشرة. ليكن! فالعشرة هنا أقل من الخمسة عشر في الزقاق المعتم هناك!" وفوراً نقرر الموافقة، فنبلغ أم عربي التي لم توافق على رحيلنا، لأن هذا يخسرها أجرتي غرفتين مرّة واحدة من شقتها المفروشة. تحاول الولية استرضاءنا، ومن ثم استعطافنا قائلة: "لقد أحببتكما مثل عربي ونادية والله!" فيوشوشك محمد ساخراً:

"ترى من منّا يكون عربي، ومن منا يكون نادية؟" فلا تضحك على مزاحه البائخ، الذي ليس في وقته!

لم تهتم نادية بخبر رحيلنا. وكأن شيئاً لم يكن! قد يكون السبب أنها ما تزال مصدومة بسوء تصرفك معها يومذاك.

***

الناس الذين يسعون في الأرض لونهم أخضر، وبعوضة

وذبابة خضراوان تلاعبان نحلة وفراشة خضراوين بسعادة بالغة وهن طائرات بين أفرع شجرة وارفة الظلال، وعلى أحد أغصانها يأتلف نسر وحمامة أخضران، وتحت الشجرة خراف وماعز خضر تتعانق مع أسود ونمور لونها أخضر بمحبة واسترخاء! تنظر في المرآة، فترتعب إذ تشاهد لونك أخضر مثلهم! وعندما سألت عن أبناء آدم التقليديين، قالوا لك إنهم قد انقرضوا ودالت دولتهم، بعد أن فسدوا وأفسدوا الأرض بفرديتهم وجشعهم وتوحشهم في القتل والتدمير.

تصحو من نوم القيلولة مذعوراً بما حلمت وشاهدت! تنظر إلى وجهك الذي ما يزال يقاوم انتهاء الصلاحية، فتضحك على أحلامك السخيفة، وتحاول أن تدفن رأسك في الرمل كالنعامة، وذلك بتذكر الذي مضى وانقضى، إذ تحمل في ذاكرتك كل عمارات ومدرجات الطلبة، ولا تريد إعادة تجمعات الطلبة والطالبات في قاعة الرسم الهندسي، بقدر ما تتذكر دراستك لمادة المجتمع، التي اسمها (اشتراكية)، إذ يضبطك أبو جرجس، وأنت تذاكر تلك المادة، فيسألك:

"ماذا تذاكر يا جدع؟"

"مادة اشتراكية." فيضحك تاركاً بقية شحمة أذنه المقطوعة تهتز: "مهندس وتدرس اشتراكية؟ لا أعرف لماذا يدرّسون طلاب كلية الهندسة مادة اشتراكية!" فتجيبه مدافعاً

عن دروسك: " ولماذا يُدرِّسون طلاب كليات الهندسة في أمريكا تاريخ الثورة الأمريكية؟" هذه مواد ثقافة عامة، لابد منها. " فيواصل أسئلته التي تُبرز بقايا أسنانه السوداء المهترئة: "ما هو تعريف الاشتراكية عندكم؟ "

"الاشتراكية هي (كفاية وعدل)! " فيمتحنك بسؤاله:

"ما معنى كفاية وعدل؟"

"(كفاية وعدل) معناها؛ أن يكون لدينا إنتاج ومعطيات وطنية تكفينا، وعدالة في توزيعها". فيقهقه فاتحاً فم (سيد قشطة) على الآخر، بينما تتضاءل بقية شحمة أذنه على الآخر، ثم يقول: "لا يا حبيبي، أنت مخطيء! (كفاية وعدل) يا عبيط، معناها: (إن الريِّس يكفينا، نتكفي، ويعدلنا، نتعدل!)" تضحك هذه المرّة على سخريته!

وليس دكتور المادة **محمد منير الخولي** أكثر التزاماً من **(أبو جرجس)** بهذه الاشتراكية الدخيلة على بلد الفلاحين والباشاوات، الأقنان والسادات. ففي المدرج رقم واحد، والذي كان لا يقل استيعابه عن ألف طالب، ليستقبل كل التخصصات في السنة الأولى، ولكن حضور الطلاب محدود، ولا يتجاوز الثلاثمائة، فتجد **الدكتور محمد منير الخولي** يقول لنا: "إنتوا النهارده مستنيرين أوي كده ليه؟ طلاب السنة اللي فاتت، مكانوش مستنيرين زيكم، كان

المدرج فاضي، مفيش فيه طلبة!" ويبدأ المحاضرة مستهتراً إذ يسأل: "بصوا لي بقى، الواحد فيكم أول ما يقوم من النوم، يعمل إيه؟" فيجيبه أحد الطلاب قائلاً: "يذاكر يا دكتور!" فيشير الدكتور محمد منير بيده من على المنصة: "لأ!"

ويجيب آخر: "يروح الحمّام يا دكتور!" فيقول: "لأ!"

"يتوضأ ويصلي يا دكتور." فيخطِّئه قائلاً: "لأ!"

"يغسل أسنانه يا.."

"يروح الكلية يا..." فيقول: "برضُه لأ!"

"يغير ملابس النوم يا.." فيبتسم وهو يقول: "وكمان لأ!"

"يبص من الشباك لبنت الجيران يا دكتور!" فيضحك أولاد فاقدون الحياء! وعندما (يغلب حمارنا)، يتجلى الدكتور محمد، فينطق بالدُّرَر: " الواحد أول ما يقوم من النوم، أول حاجة يفكر فيها، هي إنه.." يصمت قليلاً وهو يتمتع بفضولنا ثم يقول: "ياكل فول! وبعد الفول يقرر؛ إما إنه..ما يقدرش يقوم، أو إنه..يتمشى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، أو إنه..أو إنه يروح الكلية!"

لست تعرف لماذا كان الدكتور الخولي مستهتراً! هل كان يُدَرِّس مادة يحتقرها؟ أم إنه يستسخفها؟ أم يستسهلها؟ أم إنه مرح بطبيعته، ولا يريد أن يُعقِّد المادة؟ أم إن المادة سخيفة

بطبعها؟ أم إن الرجل كسول بطبعه؟ لم تكن تعرف! ولكنك تجد أن معظم المدرسين الآخرين جادون في علومهم، فكان الدكتور محمد حنفي، رئيس قسم المدني، لا يفكر بغير السدود والأساسات والجسور ذات الالتفافات المرورية، وكثيراً ما كان يقول لنا بسخرية المحبة: "الواحد يتصبح بمشروع كوبري، مثل كوبري قصر المنتزه الجميل، أحسن من وجوهكم الكشرة دي!" لم يكن لديه الوقت، ليمشط شعره في البيت، فنراه يدخل الكلية، قادماً من مشروع ما، ويصعد الدرجات المؤدية إلى المدرج، بينما هو يمشط شعره المجعّد، فيزيل أشياء عالقة به من غبار أو مخلفات الأساسات، فيقول طالب يقف على الحاجز الرخامي للدَرَج مع زميلته: "هذا الدكتور حنفي، تحفة! لو كان أيام زمان، كانوا أخذوه، وعينوه رئيس مشروع بناء الهرم خوفو نفسه!"

ويضحكنا أسلوب الدكتور محمد الريشة، مدرس مادة القانون، التي تعرفنا على الحقوق والواجبات، وكيفية إجراء عقود مقاولات أي مشروع مدني نقوم به. فيرتقي درجات منصة مُدرّج واحد، وهو يحمل نفس حقيبتك الكرتونية البُنِّية اللون، التي تاهت في مطار القاهرة، ولكن هذه بحجم حقيبة يدوية صغيرة، يضعها على طاولة المدرج، ثم يحمل الطبشورة، ويكتب على اللوح عبارته المعتادة: "يا

صبـــــاح الـخيـــــرا" فيصيح فيه أحد الطلبة المشاغبين، والمختفي في مكان ما بين الطلبة الستمائة سائلاً: "شاريها بربع جنيه يا دكتور؟" يقصد الحقيبة الكرتونية الرخيصة! يرمي الدكتور الطيب طبشورته، ويلتفت إلى طلابه العاقّين، ويقول مستنكراً: "مين ابن الشغالة اللي بيقول الكلام ده؟" ثم يلتفت إلى اليمين وإلى اليسار ويتابع شتائمه: "مين ابن الغسالة اللي بيقول كده؟ لكن العيب مش عيبكم! العيب عيب الثورة اللي جابتكم هنا! كان المفروض يا أولاد الـ.. تكونوا دي الوقت شياليين في الميناء، ولاّ عمال تراحيل في المجاري والغيطان!"

تقعد بين الطلاب والطالبات مثل الأطرش في الزفّة، فلا أنت من المشاغبين، ولا أنت من جماعة الثورة، ولا تعرف من هم عمال التراحيل! ولكن بعد انتهاء المحاضرة، يقول لك **محمد محمد**: "هل سمعت ما قاله الدكتور الريشة للطلبة الصائعين؟" فتجيبه محرجاً: "سمعت. ولكنني لم أفهم ماذا يقصد!"

"قال(العيب هو عيب الثورة اللي جابتكم.) فالثورة هي التي سمحت لهم بدخول الجامعات، وكانت محصورة بأبناء الباشاوات والأغنياء، فقام عبد الناصر بتأميمها، والسماح لكل الناجحين في امتحانات الشهادة الثانوية بدخولها

سواسية، وكما تعرف، صارت الأولوية لصاحب العلامات العليا المعلنة على اللوح المحفوظ، دون وساطة أو محسوبية". يسير محمد معك في الطرقات القريبة من المدرج كي نعود إليه ثانية بعد استراحة الدقائق الخمس، وهو يتابع قوله: "وهكذا دخل ابن الغفير، وابن الفقير، وبنت الشيال، وبنت البواب إلى الجامعة. وصار من حق ابن عامل التراحيل الجامعي أن يصير ضابطاً في الجيش، ودكتوراً في الجامعة، وطبيباً في المستشفى، ووزيراً في الحكومة، وكان ممنوعاً من هذه وتلك. كان الفلاح يا مشهور محصوراً بحفريات قناة السويس، ومختوماً على قفاه بحفريات ترعة المحمودية وترعة الإبراهيمية، ومبرمجاً لخدمة الإقطاعي. كان خادماً لا يستطيع اختراق طبقته، وكان جندياً نفراً في الجيش، فلا يستطيع في أحسن الظروف تجاوز رتبة (ح الصول)، وهو غير مؤهل إلا ليطلِق النار على الآخرين، أو أن تُطلَق عليه النار من قبل الآخرين.. ولا تعرف من هم الآخرون، فقد يكون الآخرون هم الفلاحين من أبناء جلدته، المُمَرّغين في غُلبهم، ولا سيطرة عليهم إلا بهم، فلا يقول الإقطاعي: (منهم لله)، بل يقول: (منهم لهم!) فيسلّط بعضهم على بعض، ويجلس وهو يقهقه، رافعاً إلى أعلى شعار الانتصار بالسبابة والوسطى، وما بينهما سيجار كوبي طويل وغليظ وابن كلب، بينما هو

يعيش مستمتعاً بشهد عسلهم، وحبوبهم وبقولهم وثمارهم! وعندما يقترب منهم في الغيط، تجده مشمئزاً من رائحة البصل المتصاعد مع سخونة أنفاسهم، وزخم رائحة عرق جهدهم، التي لولاها لما نضج واحلوّ العنب!" تسأله وأنتما تدخلان قاعة الرسم: "وهل الطلبة الفلاحون هم المشاغبون داخل المدرّج؟" فيحك **محمد محمد** ظهره بمسطرة الرسم الطويلة وهو يقول: " أبداً، فالفلاح لا يجرؤ، حتى ولو بطبيعته المتوارثة على السخرية والاستهزاء! ولِمَ لا يكون الصائعون هم من أبناء الطبقة الأرستقراطية المهترئة، الذين تعودوا على الدلال والسخرية من الآخرين؟"

والحديث عن الفلاحين يذكرك بتلك الفلاحة بائعة الزبدة، عندما كنت وحيداً في شقة (أبو جرجس)، وطرق الباب الخارجي، ففتحت، فإذا بها صبية فلاحة ناضجة القوام، مرافقة لأمها، تعرضان بيع الزبدة. والأم ذات الثوب الأسود البلدي تقول: "هذه زبدة جاموس بلدي. (الوِقّة بريال.)"

ودون استشارة **محمد محمد**، أو تفكير عميق، توافق على الشراء، فتندفع الصبية البيضاء الطويلة الممتلئة الجسد، ذات الصدر العامر، مستبقية أمها خارج الشقة، وتدخل بثوبها الفلاحي المخملي الأخضر، والمطرز ببضع رسومات،

وخطوط متشابكة ترفزف على صدرها، كسياج مزخرف لشرفة مطلة من عليّة خضراء، لتضع الزبدة في الثلاجة، وتقبض العشرين قرشاً. وهنا في المطبخ تفاجئك الأنثى ذات الشفتين الشبيهتين بثمرتي تين مشطب ينضح بالعسل، بأن تنقض عليك دون سابق استعداد أو تهيؤ للعواطف، ودون استدراج نظراتك إليها، أو على الأقل ابتسامة أو غمزة منك أو منها، فتحتضنك وتقبلك في فمك قبلة شديدة التعطش، تنفر الدموع من عينيك! وأنت لا تفهم إن كنت ساذجاً أو غبياً، أو جاهلاً في أمور الحب والغرام والجنس! لقد فوجئت بالفلاحة، ولكنك بدل الانغماس معها في اللذة، رحت تراقب وتتعرف على ملامح وجهها الممتلىء، وغير المدهون بالأصباغ الإسكندرانية، وغير المحفوف أو المنتوف، وتراقب شعر الحرام الأبيض الناعم القصير على صفحة خدها وذقنها، والذي لا يلتقطه ملقط، وتتأمل حاجبيها الغليظين، وشفتيها غير المدهونتين حتى بالزبدة البلدية! ففي إحدى المسرحيات التي حضرتَها، يسأل الفلاح "عبد الله غيث" زوجته "سميحة أيوب": "مفيش عندك شوية لبن؟". فتجيب الفلاحة: "لا والله!" فيعود يسألها: "ولا حتة جبنة؟" فتقول متألمة: "منين يا حسرة!" فيضيف: "ولا حتة قشطة؟" فتضربه الفلاحة على كتفه بحزن وانكسار، وهي مستاءة من ظروفها

الصعبة: "ولما عايز تاكل في الدنيا قشطة، أُمال في الجنة حتطفح إيه؟" تشعر وأنت تتفحصها بنظراتك، أن شفتيّ الصبية المحرومتين كانتا ممتلئتين حرارة وشبقاً وشهوة لشفتي شاب غرير، غريب على الفلاحين، وعلى الإسكندرية كلها. والبريئة تطلب الستر! وهي لا تريد أن تفضح عريها الأنثوي، وهي المكسوة بكومة ملابس خضراء مخملية، تستر القرية كلها، وتتكاثف متدلية فوق جسدها الفائر، المصفّد بالأغلال، تحف بها حتى قدميها الكبيرتين الخشنتين الملجومتين بفردتي شبشب زنوبة، ومشققتين من أسفل الكعب. ولكن جسدها ثائر على كل القيود!

تشعر الصبية أنها قد اندفعت وتهورت، وأنه (ما هكذا تورد الإبل!) وأن هذا الشاب" اللّطعة" غير منفعل بها، فهي تذيقه طعم شهوتها، ولكنه لا يستطعم لذتها. شعَرَتْ أنك لا تتفاعل معها، بل تراقبها وتتفحصها، وتتعرّف على حالها، ولم تتصور المضغوطة أنها ستُقَبِّل ذكَراً مخصياً، بارداً محنطاً مثل صنم لا حياة فيه، ولم يسبق لها أن دخلت مرصداً كهذا غير مُعدٍّ إلا للمراقبة والتدقيق.

كنت بصراحة تافهاً وحقيراً معها أيها الغرير، فلم ترأف بحالها، ولم تتعاطف معها، ولم تفهمها، ولم تتجاوب معها، بل بقيت هكذا مثل شخصية الـ(إي تي) الساذج، الذي يعيش

في الغابة، ويراقب من بعيد، تتمعن في هذا "الشيء" الأنثوي الذي أمامك. الفلاحة المندفعة تخجل من نفسها، وتشعر وكأنها قد قذفت رأسها في بركة سباحة ضحلة لا يزيد عمقها عن خمسة سنتيمترات، فينفجر رأسها!

أنت لا تعرف لماذا تتصرف هكذا مع الصبايا الجميلات، مع أنك جنس بشري مشحون بالجنس، ولا تعرف ما إذا كانت لديك حوافز أو موانع مغروسة في جهاز خارطتك الوراثية، تحدد سلوكك، وتبعدك عن الجنس الذي ولا شك ترغب فيه بالغريزة!

تخرج الفلاحة الصبية فائرة معمية النظر، دون أن تقبض شيئاً، حتى ثمن الزبد. فتلحق بها، وتدفع الريال إلى أمها، فتمضي الحُرمتان إلى حال سبيلهما، نازلتين على درج العمارة، طارقتين بيوت سكان آخرين، لعل وعسى تَنفُق بضاعتهما!

كنت تقف مع الصبية الفلاحة، وأنت تفكر بجدتك أنيسة، التي قالت لك وعمرك لم يتعدّ الخمسة عشرعاماً: "لا تعط للبنات عيناً. فالبنات لا تقول لك إلا: هات. هات!" وذات مرّة قالت لك العجوز ذات المائة وخمس سنوات: "لا تطلق العنان لشيئِك. حاول أن تحاصره، وإذا قام عليك وفضحك، متوتراً أكثر من قدرتك على ضبطه،

فأمسك به واكسره، فإنّ ألَمَ الكسر، سينسيك شبق اللذة، وينهي تطلعاتك من أصلها!" لم تفهم العجوز أن كسره يقصف عمره، ويتلف مستقبله، المسنود عليه كل مستقبل حامله. كانت تقصد حمايتك من العاديات. لم تكن تلك الجدة تعرف الأحاسيس الرومانسية التي علّمك إياها جبران خليل جبران، إذ ما زلت تحفظ رواية (الأجنحة المتكسرة) عن ظهر قلب: "كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما فتح الحب عينيَّ بأشعته السحرية، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية. وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التي أيقظت روحي لمحاسنها...". ولكن جدتك لم تكن تميز الرومانسية من المهلبية. بلى لقد كانت تعرف كيف تطبخ قشر البطيخ الأخضر. فقلت لها يومها:

"لماذا تطبخين هذا القشر يا جدتي؟" فأجابتك وهي تمسح شفتيها المفترّتين عن لعاب ينز من طرفيهما بمنديل نسائي مطرز، سبق وأن قالت لك إنه من بقايا محتويات صندوقها الذي تركته في عكا: "ماذا يختلف قشر البطيخ الأخضرعن الفول الأخضر أو الكوسا؟ كلها خضراوات!"

كنت هكذا دائماً أهبل، تقف خلف جدتك، وتسمع حكاياتها، وتتأثر بها، وعندما تطلب من أبيك قرشاً لشراء شيء يخطر على بالك، ويرفض طلبك بحجّة أن الاقتصاد في

النفقة نصف العيش، مثل ذلك الولد الخليلي الذي يطلب من أبيه شلناً، فيقول له أبوه: "لليش شلن؟ ما تاخد لك قرشين، بيكفي قرش. خذ هذه تعريفة!" فيخضع الولد المطيع لإرادة أبيه، ويقول له: "ماشي. هات التعريفة." فيقول له الأب الكحتوت: "هلأ بدك أصرف لك قرش، عشان تعريفي؟!"

ومثله كان والدك يقول لك إنه يوفر القرش الأبيض لليوم الأسود، وأنت تجيبه بأن لا شيء أكثر سواداً من هذه الأيام، التي يرفض فيها دفع القرش لك! فيجيء الرد على شكل كرابيج حلب. .جَلدة، والثانية. . ثلاث جَلدات من حزام مروحة السيارة الواقف في الانتظار معلقاً على الحائط، متحفزاً للتدخل لدى حدوث أية مشكلة. تسمعك جدتك وأنت تصرخ باكياً، فتهجم وتحميك من الجَلد، شاتمة أباك، الذي لم يكن أحد يقدر عليه سواها هي والله تعالى! وتضمُّك وهي تقول لك بسرها: "إنني أخبىء قرشين تحت الحصيرة، اذهب واقلبها وخذهما."فتفرح بالقرشين، وتُقبِّل جدتك من خدها الحنون، فتشم في ثنايا شعرها الأبيض رائحة العجائز".

ترى هل كان سبب رفضك التجاوب مع قبلة الفلاحة المحرومة، كونك ملتزماً بتحذيرات جدتك المسترجلة؟ وهل وصلت إلى قناعة تامة بأن القُبلة الوحيدة المسموحة لك في حياتك، هي قبلة جدتك الحنون أنيسة؟

عالم بلا تحديات!

بعد القيلولة يدخل عليك برهان من جناح غرفته السماوية، فيمسِّي ويسألك عن الأحوال، فتصارحه بهواجسك:

"أريد أن أسألك بصراحة عن الهدف من تعذيب ولدك الأخضر بهذه العمليات المعقدة، والتي قد لا تكون نتائجها مضمونة، لا سمح الله. فقد يتعرض هذا الإنسان الثالث لأذى من أبناء الإنسان الثاني الذين قد يرونه منافساً لهم، أو خطراً على مستقبلهم، خاصة إذا سيطر جيله الأخضر على أغلبية منافذ الحياة مستقبلاً، فلا يعود لبني آدم وحواء سلطة على الأرض، ولهذا السبب قد يقضي الأشرار عليه وعلى جماعته! إنه مهدد يا ولدي!"

- كل هذه المخاطرات محسوبة يا أبي. يجلس على مقعد هوائي إلى جوارك وهو يجيب: ولهذا السبب عملنا حماية للفأر الأخضر والقط الأخضر والخروف الأخضر والأسد الأخضر، فوضعناهم في البداية فرادى، وبعد التأكد، وضعنا كل اثنين متعاديين في الطبيعة، في غرفة ضوئية واحدة، فلم يأكل القط الفأر، ولم يأكل الأسد الخروف.

وبعد ذلك وضعناهم في غابة محمية واحدة، وراقبناهم، فلم يعتدِ أحدهم على الآخر، بل عاشوا كلهم في وئام وسلام. تراهم يسترخون على صخرة مشمسة، ويتأملون الحياة حول بركة ماء طبيعية. والضبع لم يعد نتناً، بل صار لدينا ضبع برائحة الصنوبر، وفيل برائحة البلوط، وخنزير برائحة الغار.. صرنا نعيش في عالم مدهش يا أبي، وأنت تخاف على **كنعان** الأخضر من الإنسان الأبيض والأسود والأصفر؟ التحديات واردة لهذا الجيل، ولكننا نسعى لخلق **عالم بلا تحديات!** نريد جيلاً أخضر يعيش بلا خوف! بصراحة، نريد جنة على الأرض! ولو زرتنا في المعهد، لأخذتك إلى محمية غابة هيسن، حيث تشاهد هناك الحيوانات الخضراء تسرح وتمرح في الغابة، طبعاً ضمن حدود مراقبة، وشبك حديدي يمنع الطائر من دخول المحمية، كي لا يدمر المعجزة التي صنعناها! لقد لاحظنا تطوراً في سلوك هؤلاء الذين صاروا يجلسون بهدوء، غير قلقين على شيء، يتأملون الشمس التي تطعمهم، ويستمتعون بها، ويفكرون باللقاءات الجماعية، ويتعانقون بهناء وبرومانسية، ويمارسون الجنس بهدوء وبلذة تختلف عن استمتاع الإنسان الثاني. لذة غير مصحوبة بالقلق والخوف والحذر.. يمارسون الجنس للمتعة، وليس للتكاثر، الذي صار يتم هذه الأيام بالخلايا. وإذا لم نكن نحن العلماء مؤمنين بما نبحثه ونطبقه في المعامل، فكيف يؤمن به عامة الناس، وكيف يتطور الكون؟

تبلع حبة إكسير الحياة، وتشرب فوقها قليلاً من ماء الزجاجة الصغيرة التي لا تفارقك، ذلك لأن لعاب حلقك يجف بسرعة، ويتطلب منك ترطيبه عشرات المرات يومياً، وتقول له:

"أنت تطمئنني بأفكارك الجريئة هذه، وأما أنا فرجل عجوز، يخاف من جر الحبل، ويخشى على حفيده من الاندثار لا سمح الله!"

- اطمئن يا والدي، فإن **كنعان** سيكون غداً في أيدٍ أمينة، وليس من مصلحة (مستشفى شنغهاي) أن يسيء إلى سمعته العلمية والطبية، فهم علماء وشركاء معنا في تحمُّل المسؤولية، وأي فشل علمي أو جراحي - لا سمح الله- سيجعل أسهم شركتهم العالمية تهبط إلى الحضيض، وتخسر خسارات مالية مدمرة! الاهتمام بالمرضى هنا ضرورة قصوى، والعِرق الصيني لا يرحم في الإدارة، إنه نظام يدفع إلى التطور بقوة الصاروخ، ولهذا السبب تعاوَنّا معهم، وصار الصيني والألماني وطبعاً محسوبك العربي شخصياً، مؤتلفين فكرياً وسلوكياً واقتصادياً ومصلحياً لتحقيق حياة جديدة! مشكلة **كنعان** أنه لا يستخدم كثيراً من أجهزته التقليدية، كالجهاز الهضمي مثلاً، ولا يستخدم رئتيه للتنفس. والتمثيل الكلوروفيلي الذي يتم داخل جسده يستهلك ثاني أكسيد الكربون، ويفرز الأكسجين الذي يستهلكه جسمه، وبذلك

يتعادل لديه الأكسجين مع ثاني أكسيد الكربون. ولذلك تضغط رئتاه على صدره، لعدم انقباض وانبساط التنفس. ولكن لا مشاكل أساسية في بنيته الصحية، فهو إنسان رائع يا والدي، فكما تعرفه، رائحة فمه ونقاء حلقه مثل رائحة ونقاء مياسم وبتلات زهر البرتقال، وما دام لا يتنفس، فهو لا يشخر ولا يضرط!

"هكذا حققتم يا ولدي حلم الرومانسية التي جاء بها جبران (هل تحممت بعطر، وتنشفت بنور)!"

- ومن الذي يستحم بالعطر يا والدي، ويتنشف بالنور غير **كنعان** الأخضر وأمثاله؟ صارت الرومانسية واقعية. لقد دمجنا الرومانسية بالواقعية التي كانت مناهضة لها، وربتنا الكون بهذا **الكائن الأخضر!**

"أقول لك الصراحة: في البداية أرعبَتْني تجربة تنفيذ أفكارك على أبنائك، وجعلتني غير مطمئن على استمرارية أجيال العائلة، فنحن ناس لنا عاداتنا وتقاليدنا ووطننا الفلسطيني العربي، الذي نعمل على منع انقراضه، ومن أجل بقاء أجياله يركضون على الأرض إلى يوم الدين!"

- أنا منتبه إلى هذه التحديات يا والدي!

"لا أفهم ما يدور داخل هذا المستشفى، فهذه الخرائط الوراثية المتشابكة للكائنات الحية، معقدة، وتحتاج إلى ملايين من الباحثين الكونيين العاملين كفريق متكامل، ليغيروا سُنّةَ الحياة على الأرض، ومن ثم يؤثرون في الكون الذي

انتظم خلال مليارات السنوات، وهذا شيء يصعب تحقيقه بهذه السرعة، إن لم يكن ذلك مستحيلاً!"

- العلم يتطور بسرعة يا أبي، فما نكتشفه في شهر واحد، يعادل علوم ألف سنة مما تعدون. ونحن نراقب صحة كنعان منذ ولادته، ونتابع فحوصاته على الشبكة الدولية، ونتعاون مع أطباء الإدارة في شنغهاي، ونعتقد أنه ليس بحاجة إلى أية عملية جراحية. وأما باقي الفحوصات، فنستطيع إجراءها بالمراسلة. وغداً ستحيط به لجنة أطباء، ويفحصون كل صغيرة وكبيرة في جسده.

" في أيامنا، كانت حتى الدراسة الجامعية بالمراسلة ممنوعة، ليكون هناك علاقات اجتماعية إنسانية داخل الحرم الجامعي. والآن جاء وقت سيطرت فيه المراسلة على كل الوسائل التعليمية!"

يستأذنك برهان، ويذهب لمشاهدة ولده الأخضر قبل أن ينام، فتستعد بدورك لإجراءات ما قبل النوم!

فبعد مرور عشر سنوات على وفاة زوجتك أميمة، تضطر للتعامل مع هذه المرأة الآلية نرجس، المرافقة لك في الحل والترحال. ففي الوقت المحدد تأتيك ومعها حاجاتك:

"جاء الآن موعد حبة دواء الضغط." تقول وهي تداعبك: " تَفضل هذا كأس الماء مع حبة الدواء." تشربهما

بينما هي تدعو لك بالصحة والعافية والعمر المديد. وحسب ما تطلبها، تجدها ترحب بك قائلة: "دعني أردُّ لك على رسالة سمر." وبعد إرسالها بالمحمول تضيف: "سأقرأ بريدك الرقمي". تقول وهي تضحك " انتبه، تابع معي كي نرد عليه." وبعد قراءة البريد والرد عليه، تقول لك: "لقد غسلت الغسيل، وجففته بالنشافة، فخرج منها مكوياً." تفتح لك على أغاني فيروز التي تحبها، وتدخل معك إلى الحمام، فتحضر لك أشياءك، وتساعدك في خلع ملابسك، وتفرك ظهرك، ثم تجفف جسدك بثوب الحمام القطني، وتعود بك إلى سريرك قائلة بحنان: "أرجوك أن تتمدد على السرير، ودعني أدلك لك عضلاتك." فتتنهد: " الله يا نرجس، لقد استرخيت، وزالت كل توتراتي." لولا هذه النرجس الآلية، التي تسألها، فتجيبك، وتطلب منها، فتفتح لك ذاكرتها الرقمية على المجلد الأول من رواية ألف ليلة وليلة قارئة: "وصلنا عند(بدر باسم):

اعلم أيها الملك السعيد أن اسمي (جلنار البحرية)، وكان أبي ملكاً من ملوك البحر، مات وخلّف المُلك لي ولأخي صالح، فاستضعفَنا ملك من ملوك قيعان البحار المجاورين، وطمع فينا، فاغتصب مُلكنا، فغضبتُ من أخي واتهمتُه بالتقصير، وأقسمتُ أني سألقي بنفسي إلى رجل من

رجال البر. وخرجت من البحر، وجلست على صخرة قرب الشاطىء.. " تسرد نرجس روايتها وكأنها شهرزاد القاعدة في حضرة الملك شهريار، وتستمر تمتعك بقراءتها حتى تنام، فتنام معك في سريرك لتؤنسك في وحدتك، وتغطيك إذا.. فتغفو وتشخِّر و.. في حضنها دون أن تتضايقَ أو تزعلَ منك، فتتأكد أن الرجل الكبير بحاجة إلى امرأة آلية من هذا النوع!

سراويل!

تطل في الصباح المشرق الجميل من واجهتك السماوية في الطابق التسعين، المشرفة على البحر كله.. بانوراما ساحرة! وأنت تستعد للخروج مع برهان لتناول طعام الإفطار في الطابق الأول من فندق **جوانج تشو**.. وفي انتظار جاهزية برهان للخروج معك، تنتقل ذكرياتك مباشرة إلى أيام الصبا. ما زلت مرعوباً من ذلك اليوم الرهيب! يوم نزلنا أنا و**محمد محمد** من شقة (**أبو جرجس**) لنستمتع بالبحر الذي هدوؤه لا يصدق! وتماماً مثل أهل اسكندرية، يلبس كل فلاّح منا (مايوه) البحر، ونخرج حُفاةً باتجاه قفص الحديد الذي يقوم بدور المصعد، فنلتقي جارنا العجوز، الأستاذ **محمد اسماعيل مبرور**، عضو مجمع اللغة العربية، فنشعر كسباحَين ساذجين أننا محرجان أمامه في شبه عرينا هذا، فتقول له:

" نحن نعتذر يا أستاذ محمد، لنزولنا (بالمايوه) من داخل العمارة إلى البحر. "

ينظر الرجل إلينا، ويبدو أنه لا يفكر بما نفكر فيه، ذلك لأنه يعترض فوراً على كلمة (مايوه) قائلاً:

" لا يجوز يا ولدي أن تقول كلمة (مايوه)، والصحيح أن تستبدلها بكلمة سروال". فتجيبه بنفس لغته:

"يا أستاذ عندما نلفظ كلمة سروال، فالمستمع لا يفهم ما إذا كان المقصود سروال جدتي، أم سروال أبي الذي يلبسه تحت ثوبه العربي، أم السروال الذي نذهب به إلى الجامعة، أم سروال النوم، أم الكلوت الداخلي الرقيق لفتاة مراهقة؟" فيضحك **محمد محمد**، ويقول ساخراً: "كلها صارت سراويل!"

لا يعرف العجوز الذي يلبس الروب الحريري الأحمر، المعقود بحزام من نفس القماش على وسطه، فوق منامته المخططة، لا يعرف بماذا يجيب، ومع ذلك تتابع قولك:

"أنتم أساتذة مجمع اللغة، الذين تضطروننا لقول (مايوه وبنطلون وشورت وكلسون وشروال وبنطلون بيجاما) كي نُميِّز كل هذه الأسماء من سروال جدتي." تتبسم وأنت تقترب منه قائلاً:

"أنتم الذين تخذلون لغة الضاد، وتُبَشِّعون التي قال عنها طه حسين: (لغتنا الجميلة)! فيتضاءل العجوز وهو يجيبك قائلاً:

"الحق على حكوماتنا التي حرمتنا من الريادة في التقنية. فلو ابتكرنا نحن المايوه الذي تقصده، واخترعنا العلوم والفنون وصنعنا الأجهزة الحديثة، لأصدرنا لكل قطعة صغيرة داخل التلفاز أو المضخة أو محرك السيارة أو الصاروخ اسماً عربياً. العيب عيب جامعة الدول العربية التي ولدت محنطة، ولم تستطع أن تنجز مقومات الوحدة العربية ومنها اللغة، فهي

لا تملك الميزانية، ولا الإدارة، ولا الإرادة، لضبط مجمع موحد للُّغة، تكون كلماته العربية أو حتى المعرّبة موحدة، وملزمة قانونياً لجميع المتعاملين بها."

نترك اللغوي محنطاً في تابوت مجمعه، وننزل من الشقة البحرية إلى رمل الشاطىء مباشرة. نستأجر شريحة خشبية تسمى (فالوكة) تتسع لشخصين. نركبها معاً وكأننا على ظهر حمار، وأرجلنا غارقة في البحر اللجاج. ندخل معاً في اليم. ندفع الماء بمجذافينا، جناح ينحر البحر، وآخر يخرج من عبابه! البحر في هذا الصباح ساكن كلوح زجاج لا نهاية له، ونسيم الهواء الناعم دافىء رطب، وتجربتنا المدهشة سالكة بسهولة، وضحكاتنا تملأ البحر، وتدفىء قلبينا، وتنسينا مرور الوقت.

وهكذا نستمر في التجذيف: يمين يسار، يمين يسار، يمين يسار، حتى نصل إلى ما قبل قبرص بثلاثة سنتيمترات.. تنظر إلى المدى البعيد، وتراقب صفحة البحر المفتوحة على الكون كله. الكرة الأرضية والسموات العلا..! تنظر في بطن اليم. تفاجأ بمشاهدة سمكة ضخمة تنطلق تحت أرجلنا. تدقق النظر! إنهما سمكتان ضخمتان. ثلاث سمكات. عدة أسماك رصاصية طويلة جريئة تنزلق تحتنا. لم تكن يومها تعرف سمك القرش من سمك التعريفة. ولكنك تشعر برعب وخوف شديدين!

لا تبلغ **محمد محمد** بما تشاهد. تحاول أن تقنع نفسك

بأنك لم تشاهد شيئاً يذكر. وتعتقد أنه قد شاهد كل شيء، ولكنك تنضبط، ولا تُصَرِّح بشيء. قد يكون السبب هو عدم إرباك الرفيق القائد الرائد لهذه المركبة القشرة. وقد يكون المعنى في بطن الشاعر، والقرش في بطن البحر، والبحر في بطن القرش، ونحن في بطن البحر، والقرش في بطنينا. تتجاهل المنظر تماماً. وفي الحقيقة نحن أحياناً نتصرف بطريقة لا نعرف معها كيف ولماذا ومتى وأين..؟ ففي مثل لحظات الإرباك هذه، يدور عقلك دورات لانهائية السرعة، لدرجة لا يمكن معها تفسير هذا التصرف! فلا وقت للتفسير والمناقشة وبحث جوانب الموضوع. أنت تفكر في شيء واحد فقط، هو كيف تنجو أنت ورفيقك بزلاجتكما القشرة هذه، دون نهش أو غرق نهائي، ولا تريد لتحقيق ذلك أية مناقشات، أو لومة لائم، فتسأله: "هل تعرف السباحة يا صديق؟"

"لا!" يقولها هكذا، ويصمت بجبن وضعف واضح في نبرة صوته! ومثلك يدرك **محمد محمد** الخوف الذي يمد أظافره في أعيننا! وأنت لا ترى استكانة الخوف في عينيه المحاصرتين بأنياب الموت الزرقاء غرقاً، ذلك لأنه يجلس أمامك في مركز القيادة. ولكن صمته يفضح جبنه، وعدم وضوح الرؤيا لدينا.

الأوامر الدماغية والحالة النفسية تكتمان الصورة والصوت، وتتجاهلان الخوف، وكأن لا شيء يهم. إنه

خوف صامت! صمت خائف! صمت صامت! خوف خائف! تحاول الابتسام متجاهلاً الموقف، فلا تحس بتجاوب بشرة وجهك مع الابتسامة المصطنعة! وبقدرة قادر، تديران دفة الرقاقة، والتي لا تعدو كونها مجرد شريحة خشبية مسطحة لا تحمي مُبحرَين!

تتحول الإسكندرية في ناظريك إلى منظر بانورامي بعيد، والناس على الشاطيء لوحة تشكيلية حداثية، لا تظهر تفاصيل أجسادهم، والبحر يتقوّس كبطن الحبلى، فيؤكد كروية الأرض، ونحن في السفح الأدنى من سطح البحر، نحاول تسلق الكرة الأرضية بحرياً، وكأننا نمسك بخيط رفيع مثل خيط العنكبوت، فنشد الخيط، لننزلق على زجاج الكرة الأرضية المائي، محاولين الوصول إلى المياه القريبة من الشاطيء، فإذا انقلبت (الفالوكة) بعدها، نسبح المترين الباقيين، ولكننا لا نستطيع حتى سباحة المترين الباقيين، إذا ما..!

صرت تشعر بشدة انتمائك للإسكندرية، وحمي في داخلك مرجل الرغبة المحمومة في الوصول إلى شاطئها. (ما أحلى الرجوع إليه!)

في هذه اللحظات الفاصلة يسبح حولنا **أبو عربي**، وجدّ عربي، وكل مراكبية وصيادي الأسماك الذين كانوا قد ماتوا غرقاً في هذا البحر الذي لا يتردد في التآمر على مبحريه، تشاهدهم بصديرياتهم الأنفوشية الساتان المخططة، والهوامير

المياسة البلطية نفسها! كلهم يخوضون معنا في هذا البحر اللجاج، ويتحلقون حولنا بروائحهم السردينية المحاصِرة، وهم يغنون مع فيروز (هيلا يا واسع! هيلا، هيلا هيلا! مركبك راجع، هيلا هيلا هيلا!) لا تعرف ما إذا كانوا يحاولون إغراقنا، أم إنقاذنا من هذه الورطة النهائية. وماذا يهم، فإن أعتى الصيادين من جهابذة البحر قد غرقوا، وانقطعت أخبارهم، فكيف يعودون ويتجمعون ويقتربون منا، ويلاطمون البحر معنا؟ وإذا كان هذا هو ما حصل مع وحوش البحر، فكيف سنصمد نحن الفلاحَين الجاهلَين، واللذَين نغرق في شبر ماء؟ تلك هي المسألة!

يبدو أن عقدةً تُفرِّق بينك وبين هذا البحر، الذي أغرق (أبو عربي) وجدّ عربي، وكل أهل عربي، وأغرقك معهما قبل أن تولد، بأن طردتك عاديات أمواجه من شواطىء عكا المليحة! وها هو البحر يطردك من جديد، والبحر لا يُمزح معه. .فهو عالم متكامل، فيه الحياة والموت، وفيه الخيال والواقعية، والبراءة والتوحش، وفيه الجمال والبشاعة، وفيه الماء والعطش!

تصير الإسكندرية منظراً بعيد المنال، وتشعر بأنها مأواك ومنقذك، وأنكما بهذين المجذافين اللذين لا يختلفان عن ذيلي فأرين مبتلين بالنفط، ستعود مع رفيقك إلى قواعدكما سالمين. ترى بأم عينيك أسماكاً ضخمة تتسابق تحت أرجلكما. تنتبه الآن إلى أنكما كنتما في دخولكما البحر قد

دَلَقتُما الهبالة على التنبلة، وتجاهلتما كل أجهزة الإنذار والرقابة. وكي تعيشا، فلابد من الانضباط الشديد في طريق البقاء والوصول.

يستمر المجذافان يتخبطان بتثاقل في الماء الذي بدأ يدب فيه الموج أسافينه. موجات سطحية أخذت تسبق هجوم الغولة ويأجوج ومأجوج والأعور الدجال وكل هوام البحر المصاحبة للزفّة التي تقودنا، ونحن نصمت شاعرَين بغلطتنا التي قد يكون فيها حتفنا.

واللامبالاة قد تكون أحياناً ذات فائدة، فكثير من الولاة العرب يعتقدون أن لامبالاتهم بما يمارسون من قهر واستعباد ضد شعوبهم، هو سبب بقائهم في هذا الكون المتطاحن!

تشارك محمد المُجذِّف أمامك شعوره بالرعب، ومع ذلك نحن نتقدم بمجذافينا المطواعين بدقة لم تعهدها فوضانا المعتادة.. أنت تعرف كيف بدأت الرحلة، ولكنك لا تعرف كيف ستنتهي بوصولنا سالمين، مستسلمين إلى شاطئ الإسكندرية!

قدرنا أن نعيش!

ومن يومها لم نبحث الموضوع، ولم نعد إلى شاطىء البحر مطلقاً.

حزب الخُضْر

تذهب أنت وبرهان إلى مطعم الإفطار الصيني في فندق جوانج تشو، تاركين كنعان الأخضر يسترخي في نومه حتى الموعد المحدد، وعلى طريق المطعم تستنشق رذاذ بخاخ الأنسولين، الذي يحشر أنفه في أنفك في كل مناسبة. وعلى المائدة، يقول لك برهان:- الحمد لله الذي تخلص كنعان من إشغال نفسه بقضايا الأكل. خاصة وأن تكاليف الطعام في رحلتنا هذه تعادل عشرة أضعاف تكاليف الإقامة في الفندق. ولهذا كان جسمه الكلوروفيلي مصدر اقتصاد في النفقة، وانتصاراً للحياة التي تتلاشى بين مليارات الفقراء المعدمين، والذين لا يجدون لقمة الخبز. وليس هذا فحسب، بل هو توفير للعمر الذي نقضيه في انتاج وتداول وتحضير الطعام ومستلزماته، والوقت الذي نقضيه في تناول الطعام، وما ينتهي إليه من فضلات تلوث البيئة، فلا نملك الوقت للتحديق والتمتع بجماليات الكون، وتحقيق أهدافنا من الحياة.

تمسح فمك بمنديل الطعام، ثم تسأله: "ترى هل كان لحزب الخضر الألمان دور في خلق الحيوان الأخضر؟"

فيجيبك وهو يمضغ:

- لا أعرف مدى تبنِّي حزب الخضر لنشاطنا المتدفق هذا، ولا أعرف مدى تعاون السلطات الحكومية أيضاً، فلمثل هذه الأعمال أسرارها التي تخفى حتى علينا نحن علماءها! صحيح أن حزب الخضر يؤيد خلق كائن أخضر، وقد يكون داعماً ولو معنوياً للمشروع الكبير، ولكننا بالتأكيد، لا نسمح لأي جهة خارج المعهد بالتدخل في حيادية هذا الإنتاج المذهل، لسبب واحد فقط، وهو عدم ادعائهم سبق الاختراع، وعدم مطالبتهم بحقوق، فنحن نشارك حزب الخضر الألماني في كوننا مؤسسة ذات بصيرة إنسانية بحتة، وكلانا يرفض احتكار الجينات الوراثية تحت مسمى(حقوق الملكية الفكرية)، ولا نسعى للربح.

تبدو الفكرة جريئة، رغم عدم اقتناعك بتكاملها. فتقول لبرهان:

"أتمنى أن أعيش لأشاهد إنجازاتكم العظيمة!" فيشرب قليلاً من عصير البرتقال، ثم يقول:

- أطال الله عمرك يا والدي. هذا هو قرن العلوم والأعمار الطويلة. ماذا تريد؟ قلباً؟ تقدمه لك مزرعة الأعضاء البشرية على طبق من فضة. كُلية؟ يقدمونها لك ضمن تأميناتنا الصحية!

يمسح فمه بمنديل الطعام ثم يضيف: لقد أنشأت مزرعة الأعضاء البشرية مدينة طبية إكثارية قريبة من مدينة (فيسبادن)، وقد بدأ نشاطها بمختبرات ومعامل للإكثار بالاستنساخ،

فأخذوا خليتين، واحدة من رجل وأخرى من امرأة نموذجيين في صحتهما وذكائهما وبهائهما، وقبل أن يكثروهما، تفحصوا خارطتيهما الوراثيتين، فاستبعدوا من كل منهما أي مرض أو نقطة ضعف، وزرعوا فيها جينات مقاومة لكل الأمراض الوبائية والفيروسية المستعصية. وبعد أن نجحت التجربة، أنتجوا طفلين ذكراً وأنثى بنفس المواصفات، ثم أخذوا خلايا من أعضاء الطفلين النموذجيين، وزرعوها، فأنتجوا أعداداً من القلوب والكلى والشرايين والأعضاء البشرية النموذجية، وزرعوها كتجارب لمرضى منتظرين الفرج. وعندما نجحت تجاربهم، اندفعوا بالإنتاج بهدف البيع.

تقوم باتجاه معروضات المطعم، فتحضر بعض الفواكه والخضار، إذ إنك عجوز لا يأكل اللحوم، ولا مشتقات الألبان الدهنية، ولا السكريات، ثم تعود وتجلس فتقول له:

"لقد اطلعت في الشبكة الدولية على مثل هذه المزارع والمستشفيات التي ينشئونها لتنتج وتبيع لحوم الجنس البشري، والبعض يقول إنهم ينتجون هذه الأعضاء من خلايا مشيمة جنين نموذجي الصحة، فينمّونها في المختبرات."

فيقول برهان:

- صار لديهم أنواع من الشرايين التي لا تنغلق، والتي يزرعونها للمريض بسهولة ويسر.

فتهزُّ رأسك وأنت تقول له:

"أسرار شركات لا تفصح عنها، لتحتفظ بما تسميه

حقوق الملكية الفكرية، والذي كان يسمى أيام الإشتراكية: الاحتكار! فصار الاحتكار البشع- بقدرة قادر- حقوقاً محفوظة!"

يشرب رشفة من قهوته ليبلل طعامه الممضوغ ثم يقول:

- والأخطر من هذا يا أبي، ظهور شركات مُدمِّرة لكل المبادىء والأعراف، لا تنتج الأعضاء، بل تنتج بشراً بمواصفات محددة، بهدف بيعهم لمن يشتري.

"عاد الرقيق من جديد!"

- البعض يشتري طفلاً لأنه لا يريد حبَلاً ولا ولادة ولا فطاماً، والبعض يريد مرافقاً لأنه يعيش وحيداً لا مؤنس له، والبعض يريد شراء خادم له. والأخطر من هذا وذاك، أن الجيوش الحديثة معظمها صار يشتري عساكره بمواصفات قتالية من هذه الشركات المتخصصة..

يشرب رشفة قهوة أخرى، ثم يتابع قوله:

- ولكن تلك التجارة ليست سهلة، فما زالت تتفاقم معارك صحفية ونيابية وطبية، مطالبين بضرورة وقف هذا الاستعباد البشري الجديد. لقد ثاروا في وجوه القائمين على هذه المشاريع صائحين: "كيف تبيعون بني آدم؟" فردّ عليهم الناطق الإعلامي باسم المزرعة قائلاً:

- نحن الذين نخلق من الخلايا بشراً مستنسخين، ويحق لنا التصرف بهم كما نشاء. فتقاطع حديثه قائلاً:

" هذا كلام مرفوض يا ولدي، فالإنسان يولد حراً، ولا يحق لأي جهة أن تصادر حياته، أو حتى سعادته، ليعيش بالطريقة التي يراها مناسبة، على أن لا يؤذي الآخرين! "

- ترافعت جمعية حقوق الملكية الفكرية ضد الصحفيين والنواب قائلة: كيف تريدوننا أن نعالج المرضى الميؤوس من حالاتهم؟ هل تريدوننا أن نسرق أطفالاً من الشوارع، كما يحصل في كثير من دول العالم، ونقطع أجهزتهم المطلوبة، ثم نزرعها سراً للأغنياء المرضى!

تصور أنهم طالبوا بحقوقهم في التصرف بمنتجهم المزرعي، بعكس ما حصل داخل معهدنا مع كنعان، الذي أُنتج ليكون حراً بلا قيود. فالباحث (بيتر هاينه) الذي جاء من تلك المزرعة، والتزم مع معهدنا في البحث والإنتاج، طالب في بداية الأمر بحقوق الملكية لخلقه الطفل **الأخضر كنعان**، وقال: إن هذا الولد، هو حق من حقوقي الملكية! فأقمت الدنيا في وجهه، ولم أقعدها، وقلت له بكل قوة:

لقد ولّى عصر العبيد يا بيتر هاينه!

" طلبت منك يومها أن تُذَكِّره بقول عمر بن الخطاب: (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟) والتي أخيراً قامت على أساسها مبادىء حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، في ثمانينيات القرن العشرين! "

- فعلاً، قلت له: إن حقوقك الملكية تعني استعباد

المولود! فردّ متفاخراً بعجرفته: "إنه ليس مولوداً، بل مخلوق في مختبري!"

"أيام سوداء، لا تُنسى يا ولدي!"

- قلت له: أنت يا بيتر هاينه ما تزال تفكر بعقلية الشركة التجارية! نسيت أنك قد تعاقدت معنا لإنتاجٍ أخضر حُر، غير قابل للبيع أو الاحتكار، أو ما يسمى بحقوق الملكية الفكرية. أنت تفكر بعقلية من يريد إرجاعنا إلى عصر أبشع من عصر الإنسان الثاني، الذي يعيش على القتل والقنص والصيد والترمم على الآخرين." ينتهي برهان من شرب قهوة الإفطار، ويحمد الله، ثم يتابع قوله:

- وكان رد المعهد حازماً، لا لبس فيه لمصلحتنا، وتضامنَ معنا باحثو المعهد، إذ قال باحث (هامبورغي): إن حقوق الملكية الفكرية تتضخم وتهيمن لتعيدنا إلى عصر العبودية. وأما البافاري (إيريش مان) فلقد قال: "إذا خلقنا إنساناً مُحَسّناً، فلا داعي لأن نُعقِّده، ونكمم فاه من أول يوم، ولا داعي لإبداعه من الأساس!" وعندما سألته: "ماذا كان رد الصحافة، والرأي العام، ورجال الدين في قضية الملكية الفكرية التي تقودها المزارع والشركات التجارية؟" أجاب: "قال رجال الدين المسيحي بأن الخلية مهما كان نوعها، فهي من خلق الله. وقال مفتي المركز الإسلامي: إن أي تحسين أو تحميل على الخلية، لا يعدو كونه تحميل

راكب إضافي في قطار متوقف في المحطة، وإن الله هو الذي خلق الخلية، وإن العلماء العاملين في هذا المجال، ليسوا سوى ثيران ترعى في برسيم الله، ويستفيدون من خلق الله، ولا شك أنهم مكتشفون مبدعون، ويُقَدّر لهم علمهم، ولكنهم ليسوا إلهاً خالقاً، فمهما ادّعوا الخلق، فهو لله، بصفته أحسن الخالقين. ولا يحق لهم ملكية البشر المحسّنين. واستمرت معارك حقوقية، واشتغلت المحاكم، وشهدت الكنائس ضدهم، بينما حسدهم علماء منافسون، وللأسف أيدهم البعض! وهذا الدعم الشعبي والقانوني لجَمَ جشع الشركات الرأسمالية المتوحشة، ودعم نشاطات معهدنا الذي ازدادت إليه التبرعات المالية العالمية، وتسارع عمله بشكل كبير.

ولكن معهدنا، قدّر موقف (بيتر هاينه) المُشرِّف في نجاحات أبحاثة المدهشة، فقرر نحت تمثال نصفي له، ونصبه في ساحة المعهد، مع زملائه المبدعين الذين غيروا مجرى التاريخ، وقدّم له مكافأة مالية مجزية، أسقطت مطالباته الشخصية. ولا تنس أيضاً يا أبي أن (بيتر) ليس حر التصرف خارج الخط الأحمر، فبعد أن جاءته الأوامر مؤخراً، وعرف أنه ملزم بقوانين المعهد، وقّع على تعهد بعدم المطالبة بمثل هذه الترّهات المرفوضة، بينما احتفظت المؤسسة بحماية إنتاجها الأخضر، ولذلك تراهم يقيدوننا مُسبقاً بالعقود القانونية الملزمة.

تَفَهّمَ بيتر خطورة الموقف، ورضي أن يبقى خبيراً في المركز، وأن يواصل عمله في المختبر كالمعتاد، بدل أن يضيع في عتمة الطريق!"

نخرج من المطعم الصيني، وحبيبي برهان الثرثار، ما يزال يبث على كل الموجات!

جامعة الإسكندرية

في الموعد المحدد نلتقي حفيدي الأخضر في قاعة الفندق الرئيسة، عند الباب الدوار.. وأنت لا تحب هذه الأبواب الدوارة في الفنادق والبنوك والعمارات الرصينة، رغم فوائدها التي.. ذلك لأنك لا تحب اللف ولا الدوران، وتفضل الدخول مباشرة في الموضوع.

وخارج الباب نستقل سيارة الفندق إلى مستشفى شنغهاي في الشاطبي، فنصل إليه، ولكنك تدهش ممّا ترى، فلم يبق من تلك الأراضي والساحات شيء يُذكر! أين هو مستشفى الشاطبي(*) للولادة والأطفال التابع لجامعة الإسكندرية، والذي أُنشىء في أيام دراستنا هنا ليكون مركز خدمات للولادة وطب الأطفال، ومركز تعليم، ومختبرات تجارب لطلاب وأساتذة كلية الطب القريبة من هناك؟ وأين هي مباني كلية الهندسة، التي كانت متألقة بطابعها الفرعوني على شارع (أبو قير)؟

(*) الشاطبي الذي سميت المنطقة باسمه هو الفقيه العلامة (القاسم بن فيرة) القادم إليها من مدينة (شاطبة) الأندلسية في القرن السادس الهجري.

وأين هو مبنى الجامعة التراثي، الذي كانت أقواس بنائه الطوبي الجميل، مأخوذة من طراز المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. تقارن أقواس المبنى بأقواس المسجد الأقصى، فتدرك سبب التطاول على المشهدين. وحيث إن العلماء هم ورثة الأنبياء، فلقد تطاولوا على المسجد الأقصى وعلى جامعة الإسكندرية معاً، بما فيها من عمارات وكليات!

تصوّر! لقد بيعت الأراضي والمباني كلها لجهة أجنبية بعشرين مليار يوان صيني - ثمن عمارتين في هذه الأيام- فاختفت كل الكليات وإدارتها الجامعية التي كانت تشع من الشاطبي، وتنشر الحضارة في ربوع الوطن، وجرفت عن بكرة أبيها. باعوها، واشتروا بثمنها حلاوة! ترى هل كانت حلاوة طحينية، أم حلاوة شعيرية من تلك التي كان يَتَقوّت بها عمال الحفريات؟ فأنت لا تعرف!

تستفسر من المحمول عما جرى للجامعة، فتقول لك الشبكة العالمية: " لقد نقلوا رفاتها إلى جناح في عمارة بعيدة، في مزرعة كلية الزراعة، في منطقة أبيس، التي تقدر مساحتها بحوالي خمسمائة وخمسين فداناً، وحتى عندما انتبهوا لوجود هذه المزرعة اللؤلؤة في وسط محارة الطين الزراعي، فرحوا بها، وقالوا إنها (لقطة!) فباعوها أيضاً بثمن بخس، فزرعتها الشركة "الاستراتيجية" بهذه الأبراج الناطحات السحاب". وأنت في الحقيقة لا تفهم سبب حشرهم لكلمة "استراتيجية" التي يخوفوننا بها، ولكنك تعرف

أنهم ألحقوا بإحدى عماراتها الخلائية متحفاً أكاديمياً، يحوي آثار معالم عصر النهضة العلمية في ستينيات القرن العشرين، وأشياء من موجودات الكليات السابقة، كدليل على البدايات، تبين كيف تطورت ثم انقرضت مباني المدرجات، وكيف كانت المكتبات التقليدية في عصر ما قبل الكمبيوتر، وقبل التخزين على الشبكة والأقراص المدمجة. حتى الطلاب لم يعد لهم وجود. ويجرّة قلم أيضاً، اختفت كل المباني، من مستشفى المواساة، حتى البحر، ومن محطة الرمل حتى منطقة الإبراهيمية ومنطقة الرياضة، كلها بيعت إلى شركة صينية، كي تقيم عليها فرع مستشفى (شنغهاي الدولي) وما لها من مشاريع وأسواق عالمية، وميادين ترفيه متطورة، ومعارض دولية من المركبات والسيارات والطائرات، ومواد البناء وهياكل مجسمات البناء المعروضة للتعريف بشركاتها، وحتى الملابس والتموين والأدوات المنزلية الصينية، وهذه الفنادق الصينية المجاورة لمكتبة الإسكندرية!

وأما الدراسة، فكما نعرف، صار الطالب يقعد داخل بيته، أو في مركز المعلومات المتخصص، فيربط دماغه بجهاز الكمبيوتر، هكذا، كما تسجل اسطوانة أغانٍ، أو فيلماً سينمائياً من خلال الكمبيوتر، ويسجل فيه مادة العلوم أو الدين أو الأدب أو الهندسة. صرت تسجل أسطوانة المادة العلمية على خلايا دماغك، فتقوم من تحت الأسلاك المشبوكة برأسك وقد أخذت المادة واستوعبتها، كما كان

الدِّيك البلدي يكبس الدجاجة، فيقوم بالسيطرة عليها، والإمساك بجسدها بملاقط رجليه، ثم يكبسها، وخلال ثوان معدودات، تقوم الدجاجة تنتفض ملقحة جاهزة من تحته. صارت تسجيلات المواد الدراسية تتم هكذا، فيكبسون دماغ الطالب أو الطالبة في غضون دقيقة واحدة، أو أكثر! لم تعد للمدرجات الجامعية حاجة، ولم تعد هناك طالبات، ولا طلاب يأتون أو يذهبون، ولا سكن طالبات يمارسن فيه خبرات الحياة والعلاقات قبل النوم.

وكما قال الدكتور محمد الريشة، الذي كان يُدرِّسنا مادة القانون الدولي، وهو يشاهد بعض الطالبات يخرجن من المدرج قبل أن تنتهي المحاضرة بربع ساعة، إذ يبدأن بالانسحاب واحدة بعد أخرى.. وعندما صار خروجهن عادة يومية، قال ساخراً، وهو يضحك: "يا أخي، البنات دائماً مستعجلات جداً، فلا يقفن في طابور تذاكر، ولا يعترفن بالدور، حتى لو كان في طابور الجمعية. وأما هنا، فقبل أن تنتهي المحاضرة، تجدهن يخرجن عصبيات المزاج، وقبل أن تصل الواحدة منهن إلى غرفتها في السكن الجامعي، تخلع حذاءها وترميه في سقف الغرفة، وربنا يستر ما تخلع حاجة ثانية!" ضحكنا كثيراً على "الحاجة الثانية"! كان العجوز ساخطاً على المرأة، فلقد ذكر لنا مثالاً على مفهوم التعاون في القانون: "يقولون إن **ماري كوري** وزوجها هما اللذان اكتشفا إشعاعات الراديوم الذرية. والحقيقة أن زوجها هو

الذي اكتشف الراديوم، وكانت زوجته تغسل له هدومه. يعني في مفهوم القانون؛ تعاون! فقالوا: (هي وزوجها.)" وعلّقت صبية كانت تجلس خلفنا في المدرج، قائلة: "تلاقي مراته مورّياه الويل في البيت، فيأتي إلى هنا ليستد ثأره منا، يا حسرتنا!"

ندخل بهو مستشفى شنغهاي، فيستقبلنا أحد الرجال الآليين الذين يتحركون خلف حاجز الاستقبال، فيعرض عليه برهان رقم ملف ولده المدون على جهازه المحمول، فيطّلع الرجل عليه، ثم يستقبلنا بحفاوة وترحيب، ويطلب سيارة نقل سريرية، فتحضر الآلية مسرعة، فينام فيها كنعان، وتنقله حالاً إلى غرفة الفحص، ونبقى أنا وبرهان واقفين في القاعة، يحدق كل منا في وجه الآخر، بينما تتقدم إلينا امرأة آلية، فترحب بنا وهي تبتسم، وتدعونا للجلوس في غرفة الانتظار. ودون سؤال، تذهب وتعود بعد دقائق وهي تحمل بيديها صينية عليها إبريق من الشاي الصيني الساخن، وكأسان صينيان أصليان مزخرفان برسومات التنين الأزرق. تنحني المرأة أمامنا واضعة الصينية وما عليها على المنضدة، ثم تصب الشاي، وتقدمه بكل حفاوة وأدب، ثم تترك الإبريق على المنضدة، وتعود أدراجها.

"هذا الكرم الصيني الأصيل" تقول لبرهان " معناه أننا سننتظر كثيراً حتى متابعة نتائج الفحوصات." يشرب برهان فنجانه، ثم يقوم مستأذناً منك، ويذهب ليتباحث أو يستعلم

عن الترتيبات المعدة لابنه، بينما تحاول تجاهل القلق الذي يعتريك على مصير حفيدك الأخضر، وذلك بتوجيه تفكيرك نحو التحسر على ذكريات شعب من الجامعيين، أزالوها من الوجود. تفكر في عمرك الذي مضى وانقضى بلمح البصر.. تُقلِّب صفحات التاريخ، الذي لم يعد لك، ولا لطلاب جامعتك.

لو أننا استمرينا دون تلكؤ في طريقنا إلى الأمام، لتحقيق أهدافنا، لكنا قد أنجزنا أشياء كثيرة! لو تابع الروائي أو الباحث القراءة والكتابة منذ عرفها حتى الممات، لأنجز أضعاف ما أنجزه وهو يواجه سكرات الموت دون أن يحقق أهدافه. تجد كلاً منا يتأوه لائماً نفسه: "لقد أضعت الفرصة الفلانية، فخسرت الشيء الفلاني. لو اشتريت قطعة الأرض التي عرضت عليّ بثمن التراب، فأصبحت الآن بثمن الذهب، لصرت... لو تابعت دراستي للدكتوراه، لصرت... ولكن ماذا ستصير يا..؟ فلقد صادفتَ الدكتور محمد حنفي (أبو الهندسة المدنية)، في أحد أسواق دبي، وذكّرته بنفسك. لم يتذكرك طبعاً. وبعد حديث عن أيام قاعة الرسم التي كنا نتقاسمها مع طلاب هندسة العمارة وهندسة الميكانيك، عرف أنك أحد تلامذته، فقال لك: "لقد جئت هنا يا بني لألقي محاضرة في بناء الهياكل المعدنية."

كان الدكتور العظيم - يا حرام - ينزل في فندق رخيص بلا نجوم، ويأكل معلبات أدفينا التي أحضرها معه، ليوفر كل

قرش يأخذه لقاء محاضراته، كي يشتري بتوفيراته جهاز كمبيوتر حديثاً، يأخذه معه، وهو عائد إلى وطنه. وعندما سألك عن عملك قلت له: "إنني أشارك في مكتب هندسي، بنسبة 50% من الأرباح " فقال وهو ينفخ بحزن: "ليتني عملت بالشهادة الجامعية الأولى، ولم آخذ الدكتوراه" "أنا أضطر للتنظير المستمر، بينما أنتم مهندسو البكالوريوس، تأكلونها والعه!" ضاع الدكتور **محمد حنفي** وضاعت معه جامعته، ولم تبق سوى مكتبة الإسكندرية التي تفتح فمها لتدفق مياة البحر، المتصاعد منسوبها بفعل الحرارة المرتفعة!

خناقة اسكندراني!

بينما أنت تراقب الداخل والخارج من مستشفى **شنغهاي اسكندرية** في الشاطبي، تسهو، وتروح تتخيل أيام زمان الجميلة، فتشعر بحنين يشدك إلى الشهيد **محمد محمد محمد**، فأخلاقه وسرعة بديهته خاصة في السخرية المضحكة، التي كانت ترفِّه عنك، وتنسيك عذابات عمرك، فتجعلك تعدّه صديقك الأوفى في حياتك الجامعية، فكثيراً ما كنا نمزح ونضحك، وأحياناً نقرأ نفس المسرحية لمؤسس المسرح العربي (أبو خليل القباني)، أو نفس الرواية لغسان كنفاني، ونتعلم من أفكار محمود أمين العالم، وفي بعض المساءات، نذهب سوياً إلى محطة الرمل، فنبدأ مشوارنا بتصفح الصحف المعروضة أمام موقف الترام، وما فيها من سطور رئيسة تقول:

* اكتمال كليات جامعة الأزهر الشريف بتوجيهات السيد الرئيس.

* الأزهر يتحول من مجرد مسجد، إلى منارة جامعة للعلم.

نقرأ ذلك، ثم نسير في الزحمة بين الناس، حيث ازدحام

المكان عند ملتقى شارع صفية زغلول بشارع سعد زغلول. وهناك بين الجموع المتراصة المتحركة، تشاهد فتاة تسير متأبطة ذراع شاب طويل، نحيل الجسم مثل قرن الخروب، ويبدو متوتراً وهو يشد بذراعه على يدها المعتقلة تحت إبطه، بينما يحشران نفسيهما معاً في الزحام، مسرعين باتجاه مكان ما. الصبية تنورتها قصيرة، لا يزيد طولها على شبرين، ولا تكاد تحتوي إليتها المنسابة بتضاريس أنثوية تبرز جمالية ربلتي فخذيها.

يدهشنا تحرش يد أحد الشبان بمؤخرتها، فتجمح المهرة وتنفعل وتصرخ، فينتبه الشاب المبهور بأنثاه، ويستنفر ضد المعتدي، ويقول له بغضب: "مش تفتح يا أخينا انت!" فيعتذر لهما المعتدي بإيماء رأسه قائلاً: "أنا آسف." فيقبل المرافق اعتذار المعتدي فوراً، وذلك بإشارة من رأسه:

" معلش! " ويستمر كل منهم سائراً في زحمته! نندهش نحن الفلاّحين الغريبَين عن المدينة، فيقول محمد:

- هذه (خناقة اسكندراني) والله لو تحصل مثل هذه اللطمة عندنا في الفلاحين، فلن يغسلها سوى الدم الذي يجب أن ينفر، إما من اليد التي امتدت، أو من أنف المعتدي! وإذا كان هذا التحرش في الصعيد، فقد يفقد المعتدي روحه في الحادث! "يا لطيف!" تقول له، فيسألك:

- كيف تتصرفون عندكم في مثل هذه المشاكل؟

" مثل هذه المشاكل لا تحصل عندنا لسبب واحد فقط، وهو أنه لا يوجد عندنا ازدحام. الزحام هو السبب! "

نضحك ونتابع سيرنا إلى سينما مترو حيث كنت قد دعوته لحضور فيلم (الرحلة العجيبة)، الذي يعرض فكرة تصغير فريق من الأطباء البشريين، فيدخلون من مسام جلد المريض إلى شريانه التاجي ثم إلى القلب، ويزيلون من طريقهم الشرياني والوريدي كل الانسدادات الدهنية، واحتشاءات القلب، ثم يخرجون من بؤبؤ عينه.

ذلك الفيلم الذي استفاد من فكرة أقزام وعمالقة **ألف ليلة وليلة**، التي قلدها الغرب فيما بعد في (جوليفر في بلاد الأقزام)، و(جوليفر في بلاد العمالقة). فكرة مذهلة ابتكرتها الآداب العربية! واليوم تطور الطب، فصاروا يرسلون فريقاً هائلاً من **الأطباء الآليين**، كل منهم بحجم رأس الدبوس إلى شرايين الإنسان وأوردته، فينطلقون في دمه وهم ينظفون الترسبات الدهنية، ويعالجون تصلبات الشرايين، ويهاجمون الخلايا السرطانية، ويزيلون احتشاءات القلب، فيعيدون الشيخ إلى صباه!

يتابع برهان فحوصات ولده، ويقضي وقتاً في مناقشة الخبراء والأخصائيين، بينما تبقى في قاعة الانتظار، تجتر ذكرياتك القديمة:

الآن تعرف سر رفضك للبحر وللسباحة فيه، فأنت لم تستمتع بصيف الإسكندرية، ولا مع المُصيِّفين فيه، الذين

يخرجون من أثوابهم، وينطلقون مع مدى واسع أزرق، من التحرر والنشاط والمحبة، نحو غسل تعقيدات الحياة والعمل، ونقعها في مياه مالحة، تُخرج منها الجن الأزرق والشياطين والحقد والحسد وكل أدران الزمن.

تفتح شباك غرفتك في بيت (أبو جرجس)، فلا تنظر إلى البحر، بل تبقي عينيك تحومان فوق شارع الكورنيش، تراقبان الطير الطائر، وذاك الرجل المومياء الذي يجلس قبالة كانون الفحم، يشوي الذرة الصفراء، ويبيعها للمارة. وهاتين الفتاتين العائدتين من البحر، بمايوهيهما البكينيين، المزركشين بألوان (دائرة قزح)(*).

وفجأة، ودون سابق إنذار، تحس بأصابع رقيقة تمتد من خلفك، وتلتف بنعومة على وجهك، لتغمض عينيك. تمد يديك لتفك العتمة عن عينيك، فإذا بها الصغيرة تيتي. لا، ليست صغيرة، ولا أنت كبير، فهي في السابعة عشرة من عمرها، وأنت في الثامنة عشرة، ودون أن تواجهك، تقبلك من رقبتك، ثم تهرب!

لم تكن تتصور في يوم من الأيام أنك ستغرق في غرام طفولي مع تيتي، التي لم تترك حبها لك ينمو كالبادرة. فلقد

(*) وجدنا في مذكرات المرحوم أن اسمها (دائرة قزح)، وليس قوس قزح، إذ شاهدها وتأكد منها، أثناء زيارته لشلالات نياجارا.(المخابرات الخاصة).

عرفَتْ أن **محمد محمد** يخرج إلى الكلية قبلك، ولم تعرف- لا هي، ولا أنت - أنه لا يسبقك إلى الكلية، بل إلى مطعم الدمنهوري، فيساعد **الحاجة عليّة** في تبديل أسطوانة الغاز، وتنظيف أدوات المطعم، والطاولات وحتى البلاط. كل ذلك مقابل إفطار وعشاء مجانيين، هو غير قادر على دفعهما، فيوفِّر وجبتين، متجاهلاً وجبة الغداء، لأن فطار الفول، وعشاء المقالي، يعملان صبّة باطون مسلح في معدته، فيقيانه شر الجوع ظهراً. وأما أنت فبعد عدة أشهر استطعت أن تضبطه وهو يقوم بالعمل، فتجاهلت الموقف كي لا تحرجه، إذ كنتما مقتنعين بأن العمل شرف! وإلا فكيف سيدفع **محمد** ابن عامل الكهرباء المنصوري تكاليف الحياة الجامعية التي لا ترحم؟ فأبوه لا يرسل له سوى.. ليس هذا هو الموضوع، بل هي تيتي التي انتبهت لغياب **محمد** في الصباح والمساء. فأطلت عليك في الصباح التالي، وبيدها ربطة عنقها المدرسية قائلة: اربطها لي، فأنا لا أعرف كيف أربطها!

تُقدِّم **تيتي** وجهها إلى وجهك، وأنت تعقد الربطة على ياقتها، فتحس بأنفاسها الساخنة وهي تُقَرِّب شفتيها منجذبة نحوك. وشفتا **نيفرتيتي** لا يمكن إنصافهما بالوصف، ويعجز كل رواة العرب عن وصف جمالهما الشهي الأخاذ، فهما بضتان غضتان، كستنائيتان، مكتنزتان بعسل البحيرة، ومستنسختان من شفتي الملكة **نيفرتيتي**. تقرِّب شفتيها من شفتيك، فتتنفس حرقة مراهقتها الساخنة الأنثوية في وجهك،

وتتلكأ أنت بغبائك وجبنك، ورفضك للنعم التي أنعم الله بها عليك! لست شاعراً لتصف رقة وبهاء طلعتها التي تثير في جسدك مكامن الرعونة، وتلهبك من قمة وجهك، حتى منخفضاتك المندفعة بخصوبة نحو الأمام، تريد أن تثقب قيودها!

تلف الربطة الزرقاء الكحلية حول عنقها، وتأخذ بعَقدها تحت ذقنها، بينما هي تقترب منك وتضغط باتجاهك، تاركة يديك تتمطّيان فوق عنقها ونهديها اللبنيين الصلبين النافرين، وتنظمان ربطتها، لتتدلى على ثوبها الأزرق الفاتح. تلمس في طراوتها وتثنيها سيالاً مغناطيسياً يذيب كل ثلوجك! وصوتها المشلوح من ناي سحري يستقوي على أحاسيسك، فلا تقوى على معارضتها.

لأول مرة تضع يديك على جسد فتاة زنبقية ربيعية. ها هي نيفرتيتي تهب نفسها لك، أنت الذي لم يعرف للحب درباً، ولا للبحر طريقاً، فتتلمس حضورها الذي يسحر العقل والقلب معاً!

ونيفرتيتي أصغر عمراً من نادية، وأطول عوداً، وأقل امتلاءً، وأبهى طلعة، وأكثر جرأة وشقاوة عيال، وهي أصلاً لم تترك لك مبادرة حبها، أو مغازلتها، أو ضمها إلى صدرك، ولم تستدرجك إلى غرفتها، ولم تستعطفك كي تحبها، ولم تحسب لك حساباً حينما بادرت هي بكل شيء، وغزتك في عقر غرفتك، بحجة ربطة العنق.

وبعد عدة زيارات تستسلم لها، إذ تضمك هذه المرّة إلى صدرها، بينما فكرك مشغول بكونك تعيش في بيتهم، وأن ذلك التصرف لا يجوز مع من تعيش معهم، ولكنك تدوخ بها! تأخذك تيتي من نفسك، ولا تترك لك فرصة لالتقاط أنفاسك! أول مرة تتذوق فيها طعم أنثى، وتتشمم رائحة أنفاسها الساخنة الشهية. وأية أنثى هي تيتي! إنها شعلة منقولة مباشرة من الجحيم، ومزروعة بأمان وطهارة دير، ومعجونة ببراءة راهبة، ومطلّة عليك من جنات النعيم، فتغرقك في ثناياها، وتحرقك بجسدها الملتهب، بينما أنت أيها المغفل، تفكر بقول الوجودي سارتر: "إذا أردت عمل علاقة غرامية، فعليك أن تبتعد عن أقاربك وجيرانك!"

وتيتي هي أقرب الجيران إليك، ولكنها ليست جارة بمعنى الكلمة، بل حورية من حوريات البحر! يقولون إن الحورية تخرج أحياناً من البحر، وتصعد عمارة قريبة، أو تدخل بيتاً، وتتماهى في جسد فتاة ساحرة الجمال، ومن خلالها تعشق حبيباً، وتنشيه بحبها، وتتلاعب فيه بشقاوتها، وتغرقه بشغفها، وتلهب مشاعره بتثنياتها وحركتها السابحة فوق السرير، وقد تأخذه معها إلى مواقعها البحرية، حيث تعيش معه هناك في سعادة وهناء! لست متأكداً من تماهي الشخصيتين، نيفرتيتي والحورية معاً!

هل سبب عدم انصهارك في حب جارف مع تيتي، هو خوفك من كونها فعلاً حورية من البحر؟ وهل ظهرت عليك

الحورية نيفرتيتي وأنت في خضم البحر مع **محمد محمد**، فأنقذتكما من الغرق البحري المحقق؟

ها هو **برهان** يعود متفائلاً كما يبدو من وجهه البشوش:

- لقد نجحنا في الامتحان يا أبي! كل الفحوصات تؤكد صحة جسده الأخضر وتفوقه على صحة الإنسان التقليدي. خلال ساعتين، سيكون **كنعان** خارجاً من المستشفى نهائياً! يربت **برهان** على ظهرك وهو يقول لك:

- تخيل متعة الحياة على الأرض، عندما يتحول عرق الناس والحيوانات الخضر إلى نتح كالندى النقي، وتختفي المراحيض من البيوت، وتتوقف مجاري النضح عن الانسياب، وتعود للأنهار بكارتها النقية، فتنساب رقراقة خالية من أي سوء، ولا يعود إنسان أو حيوان ليبول فيلوث الماء، ذلك لأنه لا يوجد بول أصلاً، ولا يتلوث الهواء بالغازات المدمِّرة للحياة على الأرض، وتتوقف تجارة الهواء الذي صاروا يبيعونه لنا معلباً، وتعود حرارة الكرة الأرضية للتوازن، كما كانت عليه أيام نقاء البيئة، صافية مريحة للنفس. يدور **برهان** حول نفسه فرحاً وهو يقول:

- حين لم تفلح الأديان ولا الأمم غير المتحدة في زراعة المحبة بين الناس، وفي تقليم أظافر النهش والقتل والتدمير والاستيلاء على الآخرين، نحن نقوم بالمهمة. الوراثة تقوم الآن بتحويل جينات الإنسان والحيوان القائمة على الاعتداء على الآخر، إلى جينات محبة للآخر، وتقوم

بإطالة عمر الإنسان وكل الكائنات الحية، لتغيير فلسفة الحياة، وتحويل الصراع إلى التناغم والتكامل. نحن نسعى لخلق الجنة على الأرض. الآن تختفي أمامنا مقولة: **إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب**. وتستبدل بعبارة **الإنسان مفكر مبدع جميل، وفنان محب، ورفيق بأخوانه: الإنسان والحيوان والنبات**.

تنتعش وتسمع ضربات قلبك بأذنك خفاقة، وأنت تستمع إلى أخبار كنعان، وإلى هذه الطموحات العظام، فتبتلع حبة إكسير الحياة، وتشرب قليلاً من الماء ثم تسأله: "وإلى ماذا ستؤول مزارع الأطفال والأعضاء البشرية؟"

- إلى الانقراض طبعاً. ومن المفروض أن تنتهي مع تقدم إنتاجنا الأخضر الذي سيسيطر على الكون، مثل السيارات القديمة المنقرضة التي كانت تسير بالنفط، والآن تسير بالهيدروجين. سينقرض جيلنا نحن القدماء المتصارعين، فلا تعود الشركات تنتج قطع غيار لنا، سواء كانت أعضاء بشرية، أو أعضاء اصطناعية. سنطور بأيدينا الإنتاج الذي سيكون مخصصاً لخدمة **الجيل الأخضر**. ترى كيف تعمل كليتك الصناعية، التي زرعناها لك في فرع مستشفى (شنغهاي للكلى في بريمن) يا أبي؟

"كليتي الصناعية تعمل جيداً. لولاك يا برهان، لكنتُ منذ زمن بين الهالكين. ولكن قل لي، ما هو سبب تعاملكم

الحصري مع هذا المستشفى الصيني العملاق، بفروعه المنتشرة في مختلف مناطق العالم؟"

- الصينيون يا والدي يسيطرون على عصب المراكز الاقتصادية العالمية، لقد اشترت شركة مستشفى **شنغهاي** الصينية الدولية معظم أسهم (شركة مان الألمانية الطبية الخضراء)، وانتشرت فروع المستشفى المتخصصة في معظم بؤر العالم الرئيسة، ونحن نثق بمختبراتهم، ونتعاون معهم بما يخصنا من أبحاث وتجارب، ومعالجات لمشاكلنا الطبية.

هذا التنين الصيني الأصفر الداهية ينتشر في العالم بسهولة ويسر، إنهم لم يفشلوا كما فشل دكتاتوريو الاتحاد السوفياتي، الذين تحطموا على صخور الغرب التي لا ترحم. هؤلاء لهم سواعد فولاذية، ولكنها مغطاة بالحرير الصيني الناعم، والمشغول بدقة ومهارة!

"التاريخ يا برهان مثل موج البحر، يرتطم بصخور الشاطىء، ثم يرتد، مدحوراً، ولكنه يلم شتات نفسه، ثم يهاجم الشاطئ من جديد!"

سمكة كبيرة!

يعود برهان لإتمام أوراق كنعان وإخراجه معنا، بينما تبقى أنت جالساً تنتظر الفرج، وتجتر ذكرياتك القديمة في اسكندرية، إذ كنت في الصباح الباكر تنزل لتدرس ماشياً على رصيف شاطىء البحر.. الرمال والمكعبات الإسمنتية والصخور والبحر على يمينك، والأبواب الخشبية الواسعة للشاليهات الصغيرة المتراصة تصطف على يسارك كحزام خشبي يُزَنِّر خصر الإسكندرية البحري. تلفتك سمكة كبيرة تتأرجح على سطح الماء، تراها تقترب من الشاطىء، يبدو أنها دائخة! قد تكون سكرانة من كثرة ما شربت هذه الليلة في بارات بحر اسكندرية وملاهيه، فلا تعرف بيتها بين الحواري والأزقة البحرية! قد تكون مريضة، وقد تكون مضروبة بالطوربيد البحري الذي يُفَجِّر به بعض الصيادين البحر، فتنبثق منه بعض الأسماك المضروبة، وتطفو فوق سطح الماء. ما هو الطوربيد؟ فأنت لا تعرف. هذا ما قاله لك أبو جرجس وهو يلتهم السمكة على طاولة المطبخ..

تضع كتابك على رمل الشاطىء، وتمد يدك لتمسكها. أنت الذي ينطبق عليه مَثَل (من يمسك سمكاً في بحر)، شيء

مستحيل طبعاً أن تمسك سمكاً في بحر، ولكنك تحاول. تمد يدك، فتغطس قدمك، ويغرق حذاؤك في مياه البحر، ولكنك ما تزال مسيطراً على الوضع، فالسمكة تجنح نحو الصخور، ثم تتخبط في الماء، وتحاول الابتعاد. وبعد مناورات لزجة، تمسكها بيديك، وتخرجها من البحر، فتشعر أن وزنها حوالي ثلاثة كيلوغرامات.. تحملها مندهشاً وتركض بها إلى الشقة، حيث يفاجأ بها أبو جرجس، وتتناولها منك أم جرجس ثقيلة بين يديها، ثم تمددها إلى جوار مجلى المطبخ. ويستلمك أبو جرجس وهو يبحلق في وجهك باستفساراته، بينما أنت تراقب بقايا أذنه المقطوعة وهي تهتز.. وهات يا سؤال، وخذ يا جواب:

"من أين حصلت عليها؟ وكيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ ومن كان معك؟"

أسئلة كثيرة، يتلوها فتح خيشوميها، والنظر في عينيها، ثم تقليبها من جانب إلى جانب.. والنتيجة أنها سمكة من نوع ميّاس معتبر، حسب تقرير الخبير (أبو جرجس). وتطمينه لك أنها بصحة جيدة، وأنها الآن في أيدٍ أمينة، ثم يبلغك أنك معزوم على غداء المياسة مع العائلة في هذا اليوم.

"كرم كبير والله يا (أبو جرجس.) طيب ومحمد؟"

فيُغلب الثرثار على أمره ضاحكاً: "ومحمد ومحمدين كمان! أمرنا إلى الله!"

تقعد معهم في المطبخ، لتتفرج على ما سوف يكون، بينما تقوم أم جرجس، فتنظفها وتبهرها، وتقطعها، ثم تغلّفها بطبقة من دقيق الطحين، وتقليها بالزيت، فتخرج مُحمّرة مُقَمّرة شهية الرائحة، فتأكل معهم أنت ورفيقك حتى تشبعوا. إنها أول سمكة شهية تذوقها في حياتك!

ليس سراً أن (أبو جرجس) يغيب عن البيت غياب النسر، ولا أحد يعرف إلى أين يذهب، فمنذ أن أمموا وكالته التجارية الأمريكية، ومزرعته السعيدة، وهو(ملطوش نصف لطشة) رجل تائه بلا رباط. يذهب ولا يعود، وفي بيته ينام فلا يقوم، وفي لياليه يشرب فلا يرتوي حتى يسكر، فيروح يهذي، ولكن الذي يعجبك فيه، أنه يضحك كثيراً!

تخرج أم جرجس مع صغيرتها نوسا وطفلها جرجس، ضجَرةً من عيشتها المرّة، وترفض تيتي الذهاب معهم إلى عمتها هيلين، بحجة أنها لا تحب عمتها من جهة، ومن جهة أخرى بحجّة دراستها، ولكن عندما يخلو لها الجو، تترك كتبها قائلة: (إيّاكش تولع!) فتنطلق وتدخل غرفتك مثل الكرة المقذوفة باتجاه الهدف، شغفاً للارتماء في حضنك، وشم أنفاسك، وامتصاص رحيقك بقبلات ساخنة! ومع مضي الوقت تقعد معك على سريرك لتبلغك أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان: اسكت، اكتشفت سراً عجيباً!" تقول لك وهي خجلة "سرّ مدهش!"

- يا ساتر! وما هو هذا السر المدهش؟

"هل تعرف أن أمي مسلمة، ومن فلاحي البحيرة؟" تخفض نظراتها خجلة وهي تتابع "إنها لا تذهب إلى دار أهلها، وهم يقاطعونها، فلا يدخلون بيتنا!"

- شيء غريب يا تيتي! وماذا أيضاً؟

" إنها تصوم شهر رمضان كله!" تلتصق بك وهي تكمل:

" معنى ذلك أنها ما تزال مسلمة!"

- وكيف تأكدت من كونها..؟

" شاهدت شهادة ميلادها." تُقبِّل أنفك بأنفها، وتعيد فركهما مداعبة وهي تتنفس أنفاسك، ثم تُغرق شفتيها في شفتيك في انزلاقات لذيذة تأخذ وقتاً طويلاً، وبعدها تأخذ نفساً عميقاً ثم تقول:

" مكتوب فيها: الإسم **فاطمة محمد عزيز**. الديانة (مسلمة.)"

- ولكن لماذا تراقبينها؟

" يا حبيبي أحاول أن أتعرف عليها، أليست أمي؟ أسرّت إلي أنها تذهب إلى الشيخ عرفات، إمام جامع سيدي جابر! من يعرف؟ فقد تكون تعترف له، وقد تكون تبكي بين يديه! كنت أراقبها، فعندما يعلن المدفع عن عيد المسلمين، تقعد تبكي بصمت، لأنها محرومة من لقاء العيد مع أمها وأبيها وإخوانها، الذين لا أعرف عنهم شيئاً. أنا أحب أمي

يا مشهور، وأحبك مسلماً، كما أحَبّ أبي أمي المسلمة!" ما رأيك أن أقلد أبي، فأتزوجك وأنت مسلم، فأخلِّف لك أطفالاً مسلمين، كما خلّفَت أمي له أطفالاً مسيحيين؟ ولكن قل لي: لماذا يولد أبناء المسيحيين مسيحيين، ويولد أبناء المسلمين مسلمين، فيتعصب كل منهم إلى دين أبيه، وتختلف توجهاتهم دون مبرر؟"

لا تستطيع أن تجيبها، لأنك غارق في شبق لذتها، ومنتشٍ في رائحة أنوثتها المُتلفة لجسدك الغرير، ولا تذكر أن تقول لها: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.)

" يبدو أن أبي قد تعرّف عليها هنا، في هذه الشقة، وكان له معها علاقات غرامية! وبعد تورطها معه، وحملها إياي منه، وعشقه لجمالها الأخاذ..! تعرف يا مشهور، كانت أمي ملكة جمال. ألا ترى أنها بيضاء وطويلة وجميلة جداً، حتى بعدما كبرت؟ قد يكون هذا هو سبب تورط أبي معها وهو الأسمر والقصير القامة و...، ولهذا كثيراً ما نسمعه وهو يغني لها مداعباً: "البنت بيضا، بيضا بيضا!

البنت بيضا وانا اعمل أيه؟"

ولكن حبه الشديد لها أيام صباها، وخوفها من الفضيحة، ومن القتل الانتقامي لغسل العار، كما يقول فلاحو البحيرة، اضطره للزواج منها، واضطرت هي للهروب من بيت أهلها، والاختفاء عنهم نهائياً، والحياة معه في بيت

الخلوة هذا! وأنت تلاحظ أن أذنه مقطوعة، وهو يقول إنه تقاتل مع الفلاحين الـ.. والحقيقة أن الذين يقول عنهم حرامية، كانوا من أخوالي، وهم الذين اشتبكوا معه، فهجم عليه أحدهم وأكل أذنه! كانوا سيجهزون عليه، لولا أنه فرّ واختفى منهم، ولم يكونوا يعرفون مكان شقتنا هذه. كانوا فقط يعرفون عزبته التي باعها بالرخيص، خوفاً من عودتهم للانتقام!

وبعد تأمل طويل تسألها:

- ألهذا السبب تجدينه يشتم الفلاحين، ويشنّع عليهم؟

"الفلاحون يا (أونكل) ثاروا على وضعهم المزري في عزبته."

- ولكن لماذا تقولين لي: يا (أونكل) وأنت تصغرينني بسنة واحدة؟

"أمي وأبي يجبراننا أنا وأختي نوسا على أن نقول للساكنين معنا:

(يا أونكل)، كي لا تقع غراميات بيننا وبينهم."

- أنت ممثلة بارعة يا تيتي!

"صحيح أنني أمثل في كلمة (أونكل)، ولكنني صادقة في حبي لك دون تمثيل."

- هل كانت أمك فلاحة عاملة عنده في العزبة، فغرر بها أو اعتدى عليها؟ أم أنها هي التي قدمت نفسها له، عاشقة طائعة؟

" لا أعرف الحقيقة. كل الذي قالته لي أنهم كانوا يحصدون القمح، ولكنهم كانوا ينامون جوعى، ممنوعين من (إردبّ) قمح هو كل طعامهم، وليس لهم إلا ما يسرقونه، فلما فسد له جاسوس كان يضعه بينهم، قامت الدنيا ولم تقعد، وهات يا جَلد! واشتغلت كرابيج الخديوي، ولكن الفلاحين يومها ثاروا وقال كبيرهم: لقد تحملنا الجوع، ولكن كرامتنا لا تقبل الضرب! وصاح بأعلى صوته: يا رجال رُدّوا له الصاع صاعين. الكرامة ولا المهانة! وهنا هجم الفلاحون عليه، وضربوه علقة، كاد يموت فيها. وحمي الوطيس، فعض أحدهم أذنه وشد عليها. كان الفلاح جائعاً، ومشتهياً اللحم، فقطعها ومضغها بأسنانه ثم..! "

- تقولين إن أخوالك هم الذين قطعوها، ثم تقولين إن أحد فلاحي العزبة قد أكلها بأسنانه!

"أنا لا أعرف الحقيقة ". تجيبك متلعثمة: "كلٌ يروي الحكاية حسب ما يتخيلها، فقد يكون أخوالي هم الذين فعلوها، وقد يكون الفلاحون، وقد يكون أخوالي هم الفلاحين الذين كانوا يشتغلون لديه، هم وابنتهم، أو هم وأختهم، التي هي أمي! "

- قد لا تكون معركة جوع وسرقة وضرب، بقدر ما هي معركة شرف! تضيف هذا التحليل من عندك.. وقد يكون الفلاح اكتشف سر العلاقة التي ورطت ابنته مع صاحب

المزرعة، فقرر هو وجماعته أن ينتقموا لشرفهم المهدور! وهذا ما يفسر سبب ضياع الخمسين فداناً التي استبْقتها الثورة لأبيك، فباعها للهروب من منطقة (أبو قير)، والتخلص من القتل. وقد يكون باعها لدفع مصاريف الشرب والقمار مع الخلان! على أية حال، العملية لم تتعد كونها صراعاً بين فلاحين، ورجل إقطاع!

راهب الدير

تتقلب في مقعدك وأنت تنتظر بزوغ فجر كنعان بفارغ الصبر. الحمد لله الذي خلقك يا حفيدي في أحسن تكوين. اصبر يا قلبي لحين إطلالة الغصن الأخضر. تحاول أن تتصبر لحين ملاقاة أملك المنشود، وليس أمامك سوى الذكريات السكندرية الجميلة... فأثناء سكنك في بيت (أبو جرجس) كنت تذهب إلى دير هناك، قرب مسجد سيدي جابر، فتدرس فيه كل موادك، وكان راهب جليل القدر يستقبل الطلاب في مدخل الدير ببشاشة، فيعطيك غرفة خاصة، تتوسطها طاولة رسم خشبية محترمة، تتسع لمخططاتك المدنية، وعلى الجدار لوح واسع، وطباشير ملونة وممحاة، ويعرض عليك المساعدة، فيجلب لك بناءً على طلبك من مكتبة الدير، كل أدوات الرسم التي تطلبها. المريح في الأمر، أنه لا يسألك ما إذا كنت مسلماً أم مسيحياً، أم عفريتاً أزرق، ولا يطلب منك هوية. وأصلاً لا يسمح له الوقت بالتعرف على شخصيتك. كثير من طلاب الحي كانوا يأتون ليدرسوا في مكتبة الدير العامة، الغرف الخاصة لمن يأتون مبكرين، والقاعة العامة لباقي الطلبة. كان الدير يقدم خدماته مجاناً

للجميع دون رسوم، تماماً مثل الجامعات التي فتحها عبد الناصر لجميع الطلاب من أهالي المدن والفلاحين، صعايدة وبحري وطلاب عرب على السواء. كلهم سواسية كأسنان المشط! اليوم لا يوجد أسنان مشط، لأنهم يحلقون لهم على الصفر!

يركض راهب الدير وهو أربعيني قصير ممتلىء الجسم هنا وهناك بملابسه الحليبية البياض، وهو يفكر طوال الوقت في المزيد من الخدمة! يركض مُحضراً (ميكروسكوباً) لهذا الطالب، ثم يعود ومعه قاموس لذاك، أو مسطرة رسم وأدوات هندسية إلى الطالبة تلك. كبير القوم خادمهم. وبعد انتهاء الدراسة تمرُّ على جامع سيدي جابر الأنصاري، فتصلي فروض العشاء، ثم تسأل نفسك:

- لماذا لا يوجد في هذا الجامع العريق مكتبة عامة مثل مكتبة الدير، تخدم قراء الحي، مع أن أول كلمة في كتابنا الحكيم هي (إقرأ)، ولماذا يقرأ هذا الدير الحضاري، وهم لا يقرأون؟

تعود في طريقك إلى بيت (أبو جرجس) الذي يقابلك وهو يفتح لك باب الشقة: "أين كنت حتى الآن؟" فتجيبه رافعاً رأسك:

- كنت أدرس في الدير.

"لو استمريت في سكنك معنا، فسنُعَمِّدك مسيحياً مثلنا!" يقول هذا، وعيناه على راهبة جالسة تزورهم. ثم يوشوشك

في أذنك قائلاً باللهجة الشامية: (والحكي إلك يا جارة!) وبعد أن تخرج، تسأله:

- هل هذه الراهبة قريبتكم؟ فيجيبك مشمئزاً: "الحمد لله! ليست قريبتنا ولا بعيدتنا، وإنما هي زائرة ثقيلة الدم!" ويتأفف قائلاً: "يا سِم!" تستغرب قوله، فتسأله:

- كيف تقول عنها هكذا، وهي راهبة نموذج للطهارة والبراءة والتضحية والعطاء؟ فيزداد تأففه قائلاً: "لا تضحية ولا زفت! إنها تزور لتستكشف الأخبار، فتنقلها من بيت إلى بيت. إنها ثرثارة، منافقة، تفضح أسرار العائلات، وتنقلها كالأمراض المعدية!" يضحك وهو يتابع: "ولكنني، أُسكت، كحّلتها! إذ أعطيتها أخبارنا كما أشتهي أنا، لا كما يشتهيها العوازل!" يتوقف عن الحديث، ويروح يرقص ويغني أغنية لفريد الأطرش:

"يا ما قال لي، وقلت له،

وجالي، ورحت له،

ويا عوازل فلفلوا!

ويا، عاوازل، فلفلوا!"

الرجل سكران وهو يرقص أمامك!

كانت أيام تواصل وتسامح ديني جميلة. صرت اليوم إذا ذهبت إلى المرحاض، يسجلون اسمك، ويحتجزون هويتك، لحين إخراج الصبي بالسلامة! وصار التمييز العرقي والديني

والمذهبي والعشائري والطائفي والقبلي واللوني... وأما التباعد الطبقي يا حبيبي! فحدِّث ولا حرج!

كيف تحولت تلك الحواري والأزقّة الحالمة إلى مدينة ترفيهية متوترة، تخلط وتخربط كل شيء! الزمن يُغيِّر كل شيء. وكما تقول أغنية أم كلثوم:

"الزمن حيدوقك في البعد ناري.

الزمن هو اللي حيخلص لي تاري.

الزمن.. يا ما بيغير حاجات!"

وها قد خلّص الزمن ثأره منا، فتغيرتِ أنتِ نفسكِ يا ستّ الكل، وكبرنا وعجّزنا وانتهينا نحن مراهقي الإسكندرية!

فطير مِشَلْتِتْ!

كل دقيقة تمضي في انتظار **كنعان** كأنها دهرا! أنت لا تعرف لماذا ضعفت مقاومتك، وعجز صبرك عن احتمال انتهاء فحوصاتٍ أبلغك برهان بأنها قد نجحت، وأن الشمراخ الأخضر قادم يانعاً! فتعود لذكرياتك مع **محمد محمد**، حيث كان بائع الصحف في محطة الرمل ينادي بأعلى صوته:

* ناصر يفتتح مبنى الأهرام، أحدث تكنولوجيا صحفية في العالم.

* جريدة الأهرام تصدر أول عدد بكامل الألوان الطبيعية.

* هيكل يجري اجتماعاً إدارياً مع مدراء الأهرام بالهاتف، بينما هو منفرد داخل مكتبه.

تدعو **محمد محمد** لحضور فيلم الحرب والسلام عن رواية تولستوي، الذي يعرض لأول مرّة، في نفس الليلة في موسكو وفي سينما ريالتو بالإسكندرية، فتشدنا مشاهدة الفنان الكبير **محمود مرسي** والرسام العجوز **سيف وانلي** فنان بينالي اسكندرية بشعره الطويل، بصفتهما ابنا بلد، وهما يدخلان مرافقين لقائد الأسطول السوفياتي الزائر لميناء اسكندرية

ويتحدثون ويضحكون مع شخص يبدو أنه محافظ الإسكندرية المضيف.

ندخل بعدهم في العتمة، فيضيء طريقنا عامل الصالة بنور مصباحه اليدوي الضعيف، ليرينا مواقع أقدامنا، فتدفع له تعريفة، إكرامية.

" ادفع له قرشاً وليس تعريفة" يُنبهك صديقك قائلاً "والله لولا هذه القروش التي يدفعها الناس، لما دخلت أنا وأمثالي الجامعة! فوالدي الذي يعمل جابي كهرباء في المنصورة، براتب سبعة عشر ملطوشاً، يتقاضاها بعد هذا العمر الطويل من مصلحة الكهرباء، فلا تكاد تكفينا أكل عيش، ولكن الناس يعطونه على كل فاتورة قرشاً، وبعضهم ممن أنعم الله عليهم، يدفع له قرشين إضافيين. من هذه القروش يا مشهور، يجمع والدي مصروفي الجامعي، فتراني أخرج معك، وأحضر السينما، وأشرب كازوزة، لم يشربها أبي، إلا إذا أكرمه بها مرّة في السنة أحد الزبائن المُريِّشين. كل ذلك كي أشعر أنني أعيش مع أبناء جيلي، وأفهم الحياة كما يفهمونها، ولا أتعرض للعُقَد النفسية وأنا أعيش وسطهم بلا كازوزة مثلاً! "

بعد إجازة نصف السنة الدراسية، يعود **محمد محمد** من المنصورة محملاً بالفطير المشلتت، وحمامتين محشوتين بالأرز، وهو يقول:

"أمي نظلة أرسلتهما؛ واحدة لك، وواحدة لي. وهي تقول لك:

- هذه الهدايا بمناسبة سكننا في الشقة الجديدة، التي قدمتها لنا المساكن الشعبية. مثل هذه الشقق تعطى لعمال الشركات والمصانع الحكومية، على أن يدفع كل منهم ثمنها بالتقسيط! فتسأله مسروراً بالخبر:

- هل ستدفعون ثمنها دون فوائد بنكية؟ فيقول: "لا فوائد، ولا حتى دفعة على الحساب! (دي إيه دي!)" فتعود لتسأله:

- هذا للعمال. وماذا عن إسكان الفلاحين؟ فيقول رافعاً رأسه بثقة: " كل فلاح استلم قطعة أرض من مشروع الإصلاح الزراعي، يستطيع أن يأخذ قرضاً من جمعية التسليف الزراعي، ويبني له فوقها بيتاً. "

محمد يأكل وهو يضحك، ويحدثك عن ابن جيرانهم في المنصورة محمد عليان متولي، الذي كان زميله في التوجيهية، ولكنه رسب، ولم يحالفه الحظ لدخول الجامعة. وليلة سفر محمد محمد جاء جاره لوداعه، وبينما هو يشرب الشاي، قال لأبي: "تصور يا عمي إن ابنك في اسكندرية يشرب (سبيروسباتس)!"

ينظف محمد آخر حبة رز في الصحن وهو يقول: "والمغفل عليان يتخيل أن أبي يجهل هذة المقالب. ولكن أبي يعرف أن السبيروسباتس هو مشروب مصري بديل

للكولا". فقبِل أبي الدعابة، ومثّل الدور على الأهبل **عليان**، فانفجر فيّ غاضباً: صحيح يا ابني؟ تشرب سبيروسباتس من وراي؟ أنا أوفر القرش من هنا، واحرم اخوانك من هناك، عشان أدبّر لك قرشين للدراسة، تقوم تشرب بيهم سبيرو.. سبيرو إيه يا واد يا **عليان**؟ فأبتسم، وينفلت أبي من تمثيله بضحكة رأيتها تبرز أوداجه لأول مرّة، ويقول ساخراً من **عليان**: "بدل مسخرة الناس، كنت فلحت في امتحان التوجيهية يا **عليان يا ابن متولي!**" فيقوم ابن متولي مكفهر الوجه، ويخرج مخذولاً، دون أن يودعني أو حتى يقول: سلام عليكم!

نأكل الحمامتين فنشبع، ونتحلى بالفطير المشلتت، المحلى بالعسل. تتفهم الوضع، وتعرف البئر وغطاءه، فتدفع الإكراميات بالتي هي أحسن. فيزداد المبلغ، حتى يصل إلى قرشين أحياناً، ويرتفع سعر تذكرة السينما من خمسة عشر قرشاً، فيصل إلى خمسة وعشرين، فلا تعود تستمتع بالأفلام، بل صرت تفكر بالأسعار المرتفعة وغير المعقولة، فتضطران للذهاب إلى سينما أقل درجة في كامب شيزار، أو في الإبراهيمية، حيث التذكرة هناك في أغلى أحوالها، باثني عشر قرشاً.

تصطحب معك جارك الساكن في تسوية العمارة، **محمد يوسف الإسماعلاوي**، الطالب في كلية الهندسة، وتجلسان مع العائلات في صالة سينما أوديون، فتطفأ الأنوار، ويبتدىء

عرض فيلم فرنسي للممثلة الشهيرة، جان مورو. وعند بدء عروض أفلام كرتون (ميكي ماوس، وتوم أند جيري)، ودعايات الأفلام القادمة، تفاجأ بصوت جهوري صادز من أحد أفراد جمهور الصالة، يبدد الصمت المرافق للمناظر صارخاً: "أبوك يقعد على صفيحة الجاز، يعمل نفسه قمع!" فيضحك جمهور العائلات على تفاهة ذلك الصعلوك الظريف. ويرد عليه آخر بالصوت العالي: "أمك تلبس الكلوت باللبيسة! " فيضحك الجمهور. ويصيح ثالث، متجشئاً عبارة سافلة:

"أمك تقوم من النوم تلاقي (. . . .) مفَعّص! فيضحك الجمهور على تلك العبارة البذيئة!" ثم يصيح في العتمة مشاغب رابع قائلاً: "مفيش فيكم واحد (. . .) يشتمني؟" فيرد عليه واحد من الزاوية البعيدة صائحاً بشتيمة تهتك الستر: "(. .)امك (. .) امك (. .) امك!"(*)

وهنا يدخل موظف السينما الأمني، فيضيء بمصباحه الكهربائي هنا وهناك، ولا تعرف كيف تنتهي تعليقات الولدنة، وقلة الأدب، فيصمت الجمهور من ذكور وإناث، ويتابعون أحداث الفيلم الدرامية الرهيبة، التي تبدأ بيد تمتد إلى بيض عش عصافير، عليه نقاط سوداء تؤكد قرب فقس

(*) وضعنا نقاطاً بين قوسين مكان كلمات محرّمة، كان المرحوم قد نطقها، ولكن الرقابة لا تسمح بها للأسف. (المخابرات الخاصة).

البيض، لتخرج منها صغار العصافير، فإذ باليد تتمدد لتحتضن البيض داخلها، وتتحسس دفئه. تفكر اليد لحظة، ثم تقبض أطراف أصابعها الجانية، وبضغطة مفاجئة، تُكسِّره كله مرّة واحدة. هكذا(كراش!) ثم تفتح يدها، فإذا بها مغمسة بالدماء اللزجة المنسابة!

والفيلم يعرض قصة معلمة مدرسة أطفال قرية، في نهاية الثلاثينات من عمرها، تعاني كبتاً جنسياً بصفتها غير متزوجة، فتفيق وحيدة قلقة متوترة في الليل البهيم، وتخرج إلى مزارع القرية، وفي كل مرّة (تفشّ خُلقها) بتنفيذ جريمة خفية، فذات ليلة تسمم حوض ماء البئر الذي تشرب منه أبقار القرية، فتموت الأبقار الواردة إلى هناك بالجُملة. وفي ليلة أخرى تشعل النار في بيادر الفلاحين. وفي كل مرّة يعتقد الفلاحون أن الفاعل هو رجل غريب يعرفونه في الأربعينات من العمر، يعمل خشاباً في غابة القرية، وهو قوي الشكيمة وأرمل، وفي كل مرّة يهجم للمشاركة في إطفاء النيران المشتعلة، أو يقف معهم في أية مشكلة عامة تواجههم، ولكن أحدهم يقول: "المجرم يحب أن يعود إلى جريمته ليتلذذ بنتائجها أمام أهل المصيبة. ولذلك فقد يكون (الغريب) هو الفاعل!"

وذات ليلة تخرج المعلمة العانس إلى الغابة، فتلتقي (الغريب)، الذي يعمل بمهنة قطع الأشجار، فتلتقي الأيدي ثم الأذرع بالأحضان، ثم ينامان على الأرض، ويمارسان

الجنس بقسوة المحرومين، ويتدحرجان على العشب والأشواك، فلا تعود من غابته إلا عند مطلع الفجر، بينما رجال القرية يبحثون عنها خائفين أن يكون قد جرى لها مكروه، أو أن الغريب قد اعتدى عليها، وعندما يلاقونها عائدة من هناك، ويشاهدون ملابسها الممزقة، والدماء تنزف من جسمها الذي ارتاح، وتخدّر باللذة المسكرة. يسألونها: "هو أيضاً الذي..!" فتجيب مستهترة: "نعم هو الذي..!"

وبينما تعود النشوانة إلى بيتها لتنام قريرة العين، يتقدم رجال القرية مجتمعين في الغابة باتجاه الخشاب المستغفَل، ودون سؤال أو انتظار جواب، يهاجمونه بفؤوسهم وبلطاتهم، فيقطعونه إرباً إرباً! تلك الأفلام الفرنسية الفكرية الثقافية العظيمة، لم نعد نشاهدها اليوم، ولم يبق أمامنا سوى الأفلام الأمريكية (طاخ طيخ، طاخ طيخ!) التي عممت ثقافتها الإرهاب والرعب في العالم!

ورداً على دعوتك لمحمد يوسف الإسماعلاوي لحضور فيلم السينما، يدعوك بدوره لزيارتهم في شقتهم الأرضية، فتشكره مُتمنِّعاً، فيحتجّ بلطف: - أيوه يا عم، إنتو الناس اللي فوق، ما بتكلفوش نفسكو بزيارة الناس اللي تحت! فتجيبه مُحرجاً: "تعرف يا محمد يا يوسف أنني أتمنى زيارتكم، ولكن نظام سكني العائلي لا يسمح لي باستضافة زملائي في شقة الأسرة."

"يا عمي أنت تعال وزرني، ولا داعي لأن أزورك في

شقتك. يكفي أن نتقابل في الكلية، وأحياناً نذهب إلى السينما!"

لا ترفض له طلباً، بل تقوم بزيارته بعد أسبوع من تلك الحفلة السينمائية، فيستقبلك معه زميله **محمد ابراهيم**. نجلس فنتعارف ونتضاحك على (اللي يسوى، واللي ما يسواش) فيحكي لك نكتة يقول فيها: "صياد سمك، دوّر ملقاش طُعم صنارة، قام حط ورقة مكتوب عليها (طُعم) وشبكها برصاصة خيط الصنارة، ورماها في البحر، وبعد نصف ساعة رفع خيط الصنارة، طلع مصطاد ورقة مكتوب عليها (سمكة)!" نضحك على النكتة البريئة، وقبل أن يُحضر **محمد يوسف** الشاي من المطبخ، يرن جرس الباب، فيفتح زميله **محمد إبراهيم**، فتُطلُّ صبية نحيلة تحمل على ذراعها بعض الملابس.

يرحب **محمد** بها وهي داخلة. تطل علينا بعينيها الزرقاوين، فتسلم من بعيد، وتدخل إلى المطبخ، ثم تعود وقد جهزت الشاي بدل **محمد يوسف**، وتنحني وهي تقدمه لنا.. تراقبُ الصبيةَ البيضاء التي تلبس ثوباً بلدياً فلاحياً ملوناً! المرأة مستورة والحمد لله. تطمئن إلى الوضع.

"العاهرات هن صور مختلفة للشيطان". تقول لنفسك: "لو حكّموك فيهن لحرقتهن حرقاً، وأرحت الناس من شرورهن. أعوذ بالله، فكيف تبيع المرأة عرضها! وكيف تنام مع هذا وذاك! وكيف تلوث هذا وذاك، وتنقل الجراثيم

وأمراض الزهري والسفلس والسيلان والسل من هذا إلى ذاك، ثم تنقل كل ذلك إلى زوجها، هذا إذا كان لها زوج- لم تكن أيامها أمراض الإيدز وغيرها معروفة - وكيف تقبض ثمن لحمها المعلوك تحت عجلات الرجال التي لا ترحم؟ هؤلاء النساء يشبهن فئران المدينة، يتحركن في كل اتجاه، ويدخلن هنا وهناك، فينقلن الأمراض من هذا إلى ذاك!"

تجول بخاطرك كل هذه الترهات، وأنت تراقب هذه المرأة الغريبة، وتعرف أن الطالبَين **محمد يوسف** و**محمد إبراهيم**، غريبان عن الإسكندرية، وأنهما قادمان من الإسماعيلية، ليدرس الأول الهندسة، ويدرس الآخر الحقوق، وأن ليس لهما أقارب أو عائلات مرتبطة بهما في هذه الشقة، ولهذا يلعب الفأر في (عبِّك) فتسأل **محمد يوسف**: "من تكون هذه المرأة؟"

"إنها أم **فطومة** "يجيبك وهو يضحك" زوجة المكوجي (**أبو فطومة**) يا راجل!"

"ولكن الوقت ليل، فهل تعمل **أم فطومة** في الليل لاستلام وتسليم ملابس الكوي، وهي أم وزوجة وربّة بيت؟" فيحاول مداراة نفسه أمام التحقيق: "هي تزورنا في أي وقت، وبلا مواعيد. يعني. مش غريبة عننا!"

"المرأة حلوة " يضيف **محمد إبراهيم**: "قل لنا، هل أعجبتك؟"

"تقول إنها زوجة **أبو فطومة**! فحتى لو أعجبتني! لا شك

أنها جميلة الشكل، تنحني وهي تصب لنا الشاي مثل ظبية تشرب من رأس النبع. وكما تقول، فهي مارّة من هنا مرور الكرام!" فيضحك محمد يوسف قائلاً: " إذا كنت معجباً بها، ما رأيك ألفّها لك بورق (سولفان)؟ وإذا لم يعجبك السولفان، ألفها لك في حرير! (اتبسط يا عم!)"

"ماذا تقصد: تلفها لي؟"

"أقصد إذا رغبت بها، فهي جاهزة، وهذه غرفة النوم. تعال..!"

"أعوذ بالله! هل هذه المرأة من أولئك الـ..؟"

"ليست من أولئك الـ.." يبرِّر محمد إبراهيم مهمتها: "إنها امرأة محترمة، ولكنها تحبنا يا أخي. ولله في خلقه شؤون!"

"تحبكما، وتنام معكما، فكيف تنام معي، وهي لم تعرفني من قبل؟"

"يا أخي هذه امرأة غسالة، ولكنها غسالة فل أوتوماتيك. يعني مثل الفُل!"

"فُل أوتوماتيك، تجمع الغسيل من أهل الحارة، وتنام مع..! ما هذه المهنة؟"

يحاول محمد يوسف تليين تياستك، وتبسيط الموضوع بقوله: " تقدر تقول: مهنة غسيل وكوي! كُلُّه!"

لا تستطيع صبراً، بل تنتفخ أوداجك، وتتشجع مثل (ببّاي) الذي يأكل السبانخ، فتتضخم عضلاته، وتتعاظم

طاقاته، فينفجر في عمل عظيم! ولا تتمالك أعصابك، فتفكِّر أن تُخلِّص هذين الشابين البريئين من شر هذه المرأة الساقطة. تفكر كثيراً في عملية الإنقاذ، ثم تقرر من طرف واحد. . ودون استشارتهما، تجد نفسك تقول لها بالفم الملآن: "اخرجي من هنا بسرعة!"

يدهش الشابان، ويسقط في يد المرأة! ولكنها تنظر إليك صامتة باسمة كسيرة، ولا تجيب بشيء، ولا يتكلم الجاران، بل يظلان يحترمان ضيافتك.

يتبادل الجميع النظرات، ويشعرون بمدى وقاحة هذا الضيف، ومدى فداحة الخسارة! ولكن الضيف ضيف، ويجب أن يُحتَرم! وهما طبعاً لا ينسيان أن هذا الثقيل الظل هو غريب بلاد، وهو يزورهما لأول مرّة، فلا ينبسان بحرف واحد. تتفهم المرأة الموقف، فتخرج مدحورة، مكسورة الخاطر. ولكنها مع ذلك، تبتسم ابتسامة صفراء وهي خارجة.

تستغرب تصرف هذه المرأة، وتعتقد أنها بلا كرامة، وبلا دم، إذ تبتسم بعد كل هذه المعاملة القاسية، فتشربُ الشاي على عجل، وتستأذن قبل أن تبدأ السهرة.

لا يرفض الشابان استئذانك قبل بدء السهرة، بل يقومان فيودعانك عند باب الشقة، ولا يقول لك أحدهما على الأقل: "أعد الزيارة."

تشعر براحة ضمير، إذ خلّصت هذين البريئين من مخاطر التهلكة! وكأنك تقول لجدتك أنيسة: "هل شاهدت نباهة حفيدك؟ إنني أنفذ تعاليمك بدقة! (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه.)

في اليوم التالي تلتقي محمد يوسف تحت الأعمدة الرخامية العملاقة التي ترفع عالياً أُبهة مبنى كلية الهندسة، الذي يشبه قصر الفرعونة حتشبسوت في زمانها.

"صباح الخير يا محمد."

– وعليكم السلام يا مشهور.

"ها، طمِّني، كيف الأحوال؟" فيجيبك باقتضاب متجهم:

– بخير.

"أنا آسف لما حصل بالأمس، ولكن كان لا بد أن أتصرف، وأن أغير ولو بلساني." فيجيب ساخراً:

– بلسانك ليه يا مشهور؟ هو انت لسّه بلسانك؟

"ماذا حصل مع الولية أم فطومة؟ هل عادت بعدي؟"

– في الحقيقة، عادت فور خروجك! تتجاهل الصدمة، وتسأله:

"وهل..؟" فيجيبك مُحرَجاً وهو ينظر إلى عمود الرخام: – نعم. هل...!

"ماذا قالت عني؟ سألتك بالله أن تقول الحق!"

– ما دمت تسألني بالله، فهي قالت: يبدو أن الزبون

مخنث، وواقع في محنة، وزائركم في طلب.. وخاف مني أن آخذ نصيبه!

"أعوذ بالله من شر هذا الشر....! تجيب مندهشاً:

"هي التي قالت ذلك؟"

يبدو أن الأمور ليست بالبساطة التي تتصورها يا مشهور، ويبدو أن اللسان لا ينفع في مثل هذه المواقع!

فسيخ رشيدي!

هل هما القادمان من آخر ممر المستشفى؟ يبدو أن نظرك الضعيف لم يعد يميز **كنعان** من شعبان أو رمضان! "الصبر طيب يا صاحبي، وكلام الناس بيـ..... " خليك في كلام الناس القدامى أيها العجوز! خليك مع صديقك **محمد محمد** وأنتما تعودان إلى محطة الرمل، في حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً، بعد خروجكما من فيلم سينمائي، وبائع جريدة المساء يصيح بأعلى صوته:

* خطة لتنفيذ مشروع مدينة سياحية حول بحيرة **منخفض القطّارة**.

* **بحيرة القطّارة** ستصلها مياه المتوسط، فتولد كهرباءً تنير مصر.

* **مدينة القطّارة** المقترحة، ستنافس الإسكندرية في نشاطاتها السياحية.

تعودان متأخرَين، غبر آبهَين لتعليمات (**أبو جرجس**) الذي كان قد أكد لكما أنه ممنوع التأخر بعد العاشرة مساءً خارج البيت، ومن يتأخر، فلينم حيث.. "

تركبان الترام الأخير، الذي يتحرك قبل الثانية عشرة ليلاً، والذي بعده يضطر العائدون إلى بيوتهم أن يركبوا سيارة أجرة بالشيء الفلاني، وأنتما الاثنان لا تملكان قرشاً فوق بطاقة الاشتراك الطلابية. وفي الطريق يجذبكما صوت السائق محمد الميرغني المشهور في كل **خط فكتوريا** بغنائه الشجي وهو يقف سائقاً قاطرته، ويخبط برجله فتجلجل رنات الترام وكأنها تقول للمشاة: " وسّع يا جدع! " وفي هذه الليلة يُمتعنا معه بأغنية للفنان محمد قنديل: (بين شطين وميّة، عشقتكم عينيّ...

يا غاليين عليّ، ياهل اسكندرية، ياهلي اسكينديريا!)

يتجمع كثير من الركاب حول السائق المطرب، وبعضهم ينزل من الطابق الثاني للقاطرة، فقط ليشنف أذنيه بمغنى عزيز على القلب، والكل يردد وراءه ما يقول..!

وعند الوصول، ننزل في محطة كليوبترا حمامات. وقبل أن يتحرك الترام مواصلاً سيره، يفاجئنا شاب أشعث الشكل، قافزاً خلف القاطرة، يبدو أنه صعلوك سكران طينة، فيقوم بحركة قرعاء، وذلك بسحب حبل كهرباء الترام، الذي يلامس طرفه الأسلاك الكهربائية الجوية، فيتعطل الترام عن الحركة. ينزل معاون السائق، محاولاً معرفة سبب العطل، فتشير له باتجاه الولد الراكض وهو يضحك ويشتم ويتعثر في

ركضه، فيعيد المعاون وصل بَكَرَة الحبل بالسلك العلوي، وهو يرد على شتيمة الولد الشقي بشتيمة أوسخ، بينما نحن نستغرب شقاوة العيال هذه!

***

بعد ظهر كل يوم، تعود من الكلية، فتصل إلى مطعم محترم يدعى (حاتي الابراهيمية)، وهناك يستقبلك النادل محمد مراد، مرحباً وهو يعرض عليك طبق اليوم، مخالفاً أغنية ثلاثي أضواء المسرح الذين يقولون فيها: " ودا طبق اليوم. .آآآه. . شوكلاتة بالثوم!" فتأكل طبق اليوم وهو عبارة عن خضار ورز ولحم عجل بَتِلّو وبرتقالة أو موزة، وتدفع ثمنه ثمانية عشر قرشاً، بالإضافة إلى قرشين إكرامية، وتخرج لتصل إلى غرفتك فتنام قيلولتك. وقبل غروب الشمس تخرج من العمارة وتنزل لتتمشى قارئاً على رصيف الشاطىء، ومتفرجاً على خلق الله.

***

في شهر مايو يسخن الجو، ويبدأ دبيب الحر فوق الرمال، وتبدأ المظلات بالانغراس هنا وهناك، وتزداد كثافة المصطافين، ويزداد التعري من الملابس الساخنة، لإبراز مايوهات البكيني، وينشط لعب كرة المضرب، وتتوزع كؤوس

الشاي والكازوز بين العائلات، وبعض البنات يغطسن في الماء بأثوابهن أو بنطالاتهن الساترة، وعائلة مكونة من أم وبناتها الأربع وطفل صغير يأكلون الفسيخ الرشيدي المملح والجبن الدمياطي وينطحون البصل الطنطاوي مع خبز البحيرة الإسكندراني، فتشم رائحة الفسيخ والبصل واصلة إلى (نخاشيش) أنفك. اليوم لم يبق فسيخ رشيدي، ولا حتى مدينة رشيد نفسها، التي ابتلعها البحر الساخن، هي ودلتاها بفعل تلوث البيئة الذي قتل الأرض.

وفي الشاليهات المردودة أبوابها، والمغلقة بستائر قماش- حيث يمنع القانون إغلاقها، إلا وهي خالية تماماً- تسمع أحاديث ثنائية، وأحياناً تثيرك أصوات غير مستورة! ويمر من هنا بائع بسلته الكبيرة، وهو يصيح بأعلى صوته: " سميط وبيض وجبنة رومي.. بيض وسميط وجبنة قريش.." وفتاة تتخانق مع ثلاثة شبان بدعوى أنهم يعاكسونها، وشاب وسيم يشبه عبد الحليم حافظ يغازل صبية سمراء، ولكن يبدو عليها تمنُّع أم عين بيضاء الراغبة، وأولاد يخبطون أخطبوطاً على صخور الشاطىء كي... وقارب صيد يقترب من الشاطىء بصياديه اللابسين صديرات وطاقيات اسكندرانية.. وشاب يمشي متمايلاً وهو يمزح مع رفيقه ساخراً بصوت مائع أنثوي مغناج: "فك ديئتي، إلهي ما يحطك في ديئة!"

المصيبة أنك لا ترى واحداً من هؤلاء يقرأ كتاباً أو يتصفح جريدة، مخالفين ما يفعله مصطافو الغرب الذين

يقرأون في أوقات الفراغ، حتى ولو كانوا مستلقين على شاطىء العراة!

تنظر إلى الأمام، فترى درجاً يصعد من رصيف الشاطىء إلى شارع الكورنيش. تصعد مسرعاً، وتقطع الطريق السريع عائداً إلى البيت، فتلتقي (أبو جرجس)، فتسأله لماذا تجده دائماً مستلثماً في المطبخ، ولا يسترخي في غرفة الجلوس؟ فيقول لك إنه يفضل جلسة المطبخ على غرفة الجلوس الضيقة عند المدخل، والموزعة لكل الغرف، إذ تجد كل من يدخل أو يخرج، وكل من يريد المرور إلى المرحاض، يمر من غرفة الجلوس، فيقول لك: السلام عليكم، هذا إذا كان مسلماً مثل **محمد محمد**، وإذا كان مسيحياً مثل الدكتور رضا، الساكن في الزاوية هناك، فيقول لك: صباح الخير، أو مساء الخير.. وفي كل الأحوال تجد كلاً منهم يربك خصوصية الجالس هناك! يشرب رشَفة من كأسه ثم يتابع قوله: ولذلك تجدني أفضِّل الخلوة في المطبخ، وهنا أشرب كأسين من البراندي، فأُسَلطِن! وفعلاً تدخل أحياناً إلى المطبخ، فتجده قاعداً يغني، ويحكي حكايات من الشرق، فيرسلها إلى الغرب، ومن الشمال إلى.. " أنا جدع! " يقول لك وهو يؤشر بسبابته: " أنا كنت يا ابني وكيل سيارات (سي أم سي) الأمريكية. ولكنهم أولاد الكلـ... أمموها، وتولّت حكومة (الـ..) استيرادها، أو على الأقل، استيراد قطع الغيار الضرورية. ويا عالِم! فقد يكون الاستيراد متوقفاً

من أصله، إلا من رحمه ربه بسيارة، يجلبها معه شخصياً من بيت النار، من أمريكا نفسها." ثم يقف متمايلاً وهو يغني:

"ضيعتِ موستاقبال حياتي، في هواك!"

تنتبه إلى أنه يبكي هذه المرّة وهو يقول: "دخلت جامعة (فاروق الأول) سنة 1944، ولكنهم على حظّي غيروا اسمها، فتخرجت من (جامعة اسكندرية) سنة 1948، عام النكبة الفلسطينية. وتزوجت سنة 1950، فقامت الثورة على حظي سنة 52، وخلّفت نوسا سنة 56، فقامت حرب السويس على حظها، وجاءني جرجس سنة 62، فأمموا لي وكالة (سيمس) في نفس السنة على حظ جرجس، ولما صارت بنتي تيتي قمر بنت أربعة عشر، سنة 64، أمموا مزرعتي، بصفتي إقطاعي، يعني تستطيع أن تقول: كلها مناسبات نكسات في نكسات! فقعدت على الحصيرة!"

يواصل السكران بكاءه وهو يقول: "ولكني لم أترك باباً يا خويا يا مشهور، إلا وطرقته، ولا ولياً من أولياء الله الصالحين إلا وزرته، من المرسي أبو العباس لغاية السيد البدوي، طالباً الشفاعة ومد يد العون. أقول له: مدد يا سيدنا البدوي، مأدَااااااااااااااااادْ! ولكنهم قصّروا المَدَدْ أولاد الكَلْ. وتبخرت النعمة التي كنت أغرق فيها، والتي لم أُقدِّر قيمتها، إلا بعد أن طارت من يدي.. صحيح أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، وأنا الآن مريض، أفرح بالقرش، وكنت أشعل السيجارة للعاهرة-

وحياة شرفك- بجنيه إنجليزي، وليس مصري!" تضحك عليه وهو يحلف بشرفك.

"بص، وشوف حالي بقى ازاي!" يمسح دموعه بكفّيه، ثم يقول باسماً:

"أنا كنت حبِّيب نسوان آخر (ألاطة.) مرّة كنت ماشي وراء واحدة، باين عليها حلوة من وراء، فقلت لها متغزلاً:

- يا جمال النبي محمد! لم تلتفت المرأة. فاقتربت وراءها قائلاً:

- يا جمال عيسى! فلم تلتفت. فاقتربت منها أكثر وقلت:

- يا جمال موسى! فالتفتت إليّ بوجه فوجئت أنه بشع (ومبعجر كده)! فصرخت بالصوت: يا جمال عبد الناصر!"

لا تضحك على النكتة السخيفة. فيتابع السكران سرد سيرته الذاتية:

"انتظرت سنة، وسنتين، وثلاثاً، فقد يغير الله من حال إلى حال، ولكنه لم يغيرا" يدلق كأسه الحادية عشرة في رأسه ويقول:

"تردت الأحوال، وتمت مصادرة عزبتي في أبو قير. قالوا إن مساحتها مائة فدان. فأخذوا نصفها، وسلّموها للفلاحين اولاد الـ. . . ونحن الذين نعرف أن ندهن الهواء بُوهيَة، رحنا بلاش! شوية بهايم ما يعرفوش الطريق منين،

صاروا مُلاّك أراضي! قال والله ولبست الزّعطلون يا ولدي، وحتشخ منين! صار في بيوت الجِزَم تلفونات! قال له: يا ابوي! قال له: ايوِه! قال له: لو واحد تكلم باللّفلفون، وانقطع السلك، يجرى إيه يا ابوي؟

قال له: يا ولِه! دا الكلام يوقع مِ السلك!"

تضحك على نكاته السخيفة، واليوم في منتصف القرن الواحد والعشرين لا سلك ولا حتى تلفون، إذ يقوم المحمول على خاتم إصبعك بكل الاتصالات التي تريد..

ويتابع أبو جرجس قائلاً:

"كانت عندي فُلّة، تقول عروس البحر، وقاعدة هناك عالشط، تجنن يا وله يا مشهور. كانت دورين وعلِّية. الدور الأرضي قاعة جلوس وقاعة ضيوف، ومطبخ فرنسي واسع، والدور الثاني أربع غرف نوم، والعلِّية عبارة عن غرفة مكتب مُعتبر لمحسوبك، و(سناك بار)، ومطبخ صغير، والذي منّه.. ومحسوبك لا يعرف أن يقعد إلا في العلِّية. كنت مثل مسلمي الجنة (بتوعكم)، ساكن في عليين! من هناك تشوف البحر، و(تأدِّن) في مالطا! كنت أشرب صندوق بيرة وأنا قاعد في العليّة، والفلاحين والبهايم يحرثوا ويزرعوا ويقطفوا، وياكلوا نص الغلة!" يرفع يديه مبتهلاً وهو يقول: "بالسّم الهاري إن شاء الله! ولا من شاف ولا من درى.

كان اللبن والجبنة والزبدة والسمن البلدي مغرقنا يا مشهور يا حبيبي! ولاّ البيض والفراخ البلدي، والديوك

الرومي والبط والوز! كان عندي برجين حمام، كل يوم تفطر لك زوجين زغاليل مشويين بالسفّود، أو مقليين بالسمنة البلدي إنما إيه؟ يستاهلوا بقك. .أي وحياة النعمة دي!" يحلف وهو يرفع كأس البراندي التي في يده، فتضحك على نعمته!

يسحب المتهالك دخان سيجارته المتلفة، سحبة طويلة ليعبىء رئتيه بالنعمة القاتلة، ثم ينفث دخان قطار قديم قائم للتّو، ويتحشرج صوته وهو يغني، مشوهاً الفن الأصيل وهو يجوح:

(كل اللي حَبّ انطحن،

وانا اللي وحدي بكيت!) ثم يردف وهو يبكي:

"طحنونا اولاد الكَلـ. . .! اعتقلوا الفُلّة وحياتك، وأدخلوها التجنيد الإجباري!" ومع البكاء تجده يضحك ودموعه تسح على وجهه وهو يقول:

" قال أمموها قال، فصارت فُلّتي للأُمة! وماذا (ستفعل فيها) الأُمة؟ هي هي هيء! قرروا أن (يفعلوا فيها)، وذلك بتقديمها لتكون مقراً لفرع الاتحاد الاشتراكي في أبو قير! ولهفوا من أرضي خمسين فدان، ووزعوهم على الفلاحين اللي كانوا عندي خدامين! صار الخدم جيران، وزملاء في المهنة! طيب، ومن منهم سيشتغل عندي بعد هذا الحال؟ تصور يا وله يا مشهور: في واحد من البهايم اللي تقاسموا

الفدادين، فتّح فيّ وقال لي: "إنت فاكرني إيه؟ إنت فاكرني شوية؟ دا أنا المرحوم جدّي الله يرحمه، كان (مدير عااااااااااااام) أكبر مبولة في القاهرة!" واللي يحيرني أنه مَن مِن سفلة الاتحاد الاشتراكي سيقعد في العلّية، ويشرب كونياك نابليون! الإمبراطور نابليون وحياة شرفك! أنا يا مشهور متخصص بالكونياك! لكن مش الديزل الزبالة اللي بنشربوه ده، إنما مسيو نابليون نفسه، أفضل كونياك في العالم، والنبي نابليون بفخامته كان يأتيني مخفوراً داخل صناديق من فرنسا، دون جمارك، ودون فواتير! هدية مخصوص من (مادلون) وصديقته (إيزابيل). كانوا ياخذوا العنب من مزرعتي، والمراقب الحمار بتاعي، يجمع لهم عنب مزارع أصدقائي ومعارفي في المنطقة، (ونعملو) منها نبيذ فرنسي معتبر. هنا في أرض المزرعة، حفرنا لهم سراديب طينية واسعة تحت الأرض، مفتوحة على هواء البحر، تقول هواء البحر يمر فيها بمزاوح، درجة حرارتها مضبوطة بين الأحدى عشرة درجة، والثلاث عشرة مئوية، وصاروا يخزنوا فيها النبيذ. شيء معتبر يا ابني! كان نبيذ (مادلون) لونه أبيض، وطعمه مز، ونبيذ (إيزابيل) لونه أحمر مثل الأرجوان! والوردي اللذيذ، سميناه (إسكندرية روز).

كنا نبيع نبيذ ليوم النبيذ يا (ولَ)! تعرف الحقيقة يا مشهور؟ المسيحيون يصنعون النبيذ، ويتاجرون به، والمسلمون

يشربونه! هى هى هىء! يعني نوع من التعاون بين الأديان! يقول ذلك ويضحك كثيراً، فتظهر بقايا أسنانه السوداء التي ينخرها السوس. ولكنه مبسوط آخر انبساط! الرجل ليس مبسوطاً على الآخر، بل مفقوع على الآخر، ذلك لأنهم أخرجوه من عليين!

من هالشنب يا ريِّس!

عشية ثبوت الهزيمة المُرّة التي كبدته إياها مزاجية قيادته العسكرية، يعلن الرئيس جمال عبد الناصر تنحِّيه عن الحكم، وذلك في نشرة أخبار الثامنة مساءً. وخلال خمس دقائق من انتهاء خطاب التنحي رحت تسمع أصوات الجماهير تهدر في الشارع. العمارات تنطبق بعضها على بعض، والجماهير تهتف.

تنزل إلى الشارع، فتشاهد فيضان النيل الذي قرأت عنه في أيام الغلال الفرعونية القديمة! لا تعرف من أين جاء هؤلاء الناس. مئات الآلاف من الرجال والنساء المتظاهرين، القادمين من فكتوريا ومن جهة باكوس مكان ولادته(*)، مروراً بسيدي جابر، ومن كل الجهات، يسيرون جماعات متراصة، كالسيل الهادر، وما يزال السيل يتجمع، وكرات القطن تتضخم، والأعداد تتكاثر سيراً على الأقدام، وصولاً إلى منطقة كليوبترا والإبراهيمية.

(*) دققنا في مذكرات المرحوم، فسجلنا منها ما كتبه: ولد جمال عبد الناصر في 15 كانون الثاني/يناير 1918 في 18 شارع قنوات في حي باكوس الشعبي بالإسكندرية. (المخابرات الخاصة).

تسير معهم، وتهتف هتافاتهم:

"مين حرر القنال، غيرك إنت يا جمال!"

"السد العالي يا جمال... العمال يا جمال."

"التعليم يا جمال... الكرامة يا جمال."

"الفلاحين يا جمال... المصانع يا جمال."

". الزراعة يا جمال.. رغيف العيش يا جمال."

تلتقي الجماهير الهادرة في محطة الرمل ويتجمعون في المنشية. قرابة المليون رجل وامرأة، يهتفون برفض تنحي الرئيس عن الحكم! أبو جرجس يراقب ويتفرج على المظاهرات الهاتفة بالغضب:

"لا نريد إلا جمال. لا نريد إلا جمال!".

تستمر المظاهرات بهتافات من هذا النوع عدة أيام متوالية، وينام الناس في الشوارع. تجمُّع واحدٌ لرفض الهزيمة يمتد من ميدان المنشية إلى محطة الرمل. تجدهم يفترشون الأرض حول جامع المرسي أبو العباس، وعند صرح الجندي المجهول، ويقعدون في الساحات العامة، وأكثر من ذلك بكثير حصل في ميدان التحرير في القاهرة وباقي المدن، حتى خضع الرئيس لمشيئة شعبه، وعاد إلى تحمل مسؤولياته. وهنا يفاجئك أبو جرجس وهو يقف في مطبخه العتيد، ويقول لك ضاحكاً:

"سمعت إيه اللي حصل امبارح بعد نص الليل؟"

"ما الذي سيحصل أسوأ مما سمعناه وشاهدناه؟"

"اللي جرى يا سيدي، لا ينكتب، ولا ينقرا!" يقول ذلك وهو يضحك، فاتحاً فم سيد قشطة على الآخر: "اللي جرى إن نسوان ملاهي وكباريهات اسكندرية، خرجن بمظاهرة عارمة، رادحات بصوت واحد: (أحّة! أحّة! لا تتنحى!) واستجابةً لنداءات الولايا، قرر السيد الرئيس العودة ليحكم مصر أم الدنيا!"

يدخل **محمد محمد** وهو يسمع هذه الترّهات فيغتاظ، ويسحبك وهو يقول لك: "الرجل مجنون وسكران طينة ومفقوع طبعاً، لأن الحكومة أممت وكالة سياراته، فقعد على الحديدة، وهو يعتقد أن الأوان قد آن للانتقام، وشماتة الأعداء! لكن لأ، سنحارب مرة أخرى، وأخرى وأخرى، وسنلتحق بالمقاومة يا **مشهور**، ونهاية المحتلين معروفة!

في مقصف الكلية يقف شاب **سوداني**، يبدو أنه قيادي طلابي، وفاهم درسه، ويتحدث بهدوء في حشد الطلاب الذين يتجمعون، ليفهموا ماذا حصل، وماذا سيحصل. نحن في منتصف شهر حزيران1967، وامتحانات الطلبة قد أنهيت بسرعة، ولكن كليات الجامعة لا تغلق أبوابها عادةً:

"لو كان بداخل كل منا جمال عبد الناصر، لكانت الأمة بألف خير." يقول الشاب الكبير نسبياً مقارنة بعمر الطلاب "صحيح أن الرجل تسرّع في حربه الأخيرة، وفي العجلة الندامة! وقد تكون خدعته مراكز القوى التي تدير السفينة بعكس ما يشتهي القائد. وهذه الجهود العظيمة في الوحدة مع

سورية وحرب اليمن وحرب تحرير فلسطين، لو استبدلها بتوحيد مصر والسودان- وقد استلمها من ملك مصر والسودان موحدة- لكان حقق دولة عظمى مثل إيران، أو الهند أو تركيا. ومن دولة وادي النيل، يستطيع أن ينطلق لتحقيق الوحدة العربية، ويتم ذلك بالتعليم، وبالتفهم، وبالتدريج. لو ابتدأت جامعة الدول العربية بتوحيد الاقتصاد والعملة العربية، وفتحت الأبواب للعمالة وللتجارة البينية داخل الاسواق العربية، دون حدود، ومن ثم مجلس نواب عربي موحد، يقرر مساراً موحداً للعرب، وهذا لا يتعارض مع بقاء الحكام، كل في موقعه. كل رئيس أو ملك عربي، يظل كما هو، في سدة الحكم، دون انقلابات أو مذابح على كراسي الحكم. على أن تتم انتخابات ديمقراطية فعلية للنواب ورئيس الوزراء الحاكم، وتتحدد أعداد وألوان الوزراء حسب أوزان أحزابهم، أو قوة اتحاداتهم في الانتخابات النيابية، ومجالس البلديات والاتحادات المهنية والطلابية. ولا داعي لاعتماد عبارة (من هالشنب يا ريس!) لتقود معركة."

يصغي الحضور إلى الرجل بكل انتباه، بينما يضيف السوداني قائلاً:

"لو اعتُمِدت هذه التجربة الثورية الفتية، للتخفيف من التعقيد والترهل الإداري العام، وعدم ملاحقة المفكرين، حتى ولو كانوا حزبيين معارضين، وتم التخطيط لتوفير الأمن الغذائي العربي.. السودان وحده أيها الإخوة يطعم بخيراته

ويروي بمياهه كل شعوب الوطن العربي، فالحروب القادمة هي حروب مياه. وأما عن معارك التحرير، فالحقوق العربية لا تتحقق بأفضل من أسلوب المقاومة الشعبية الفيتنامية. وليست بقوة العسكر، نظراً للتقنية المتقدمة التي يستخدمها الأعداء المحيطون بنا من بقاع لا حصر لها في العالم، ولا قدرة لنا على مجابهتها عسكرياً!

لم يكمل السوداني حديثه، فلقد جاء ثلاثة رجال أمن، وساقوه إلى جهة غير معلومة.

ولدى استفسارنا في اليوم التالي، قالوا إنهم سفروه، وأُخرِج ولم يعد!

***

تسرب لك تيتي أسرار العائلة كلها، وهي لا تعرف أن الأسرار يجب أن لا تُفضح خارج الأسرة. فهذه المرّة تزورك وهي تُصَرِّح لك بمعلومة جديدة، عبارة عن فضيحة مخجلة: "أريد أن أقول لك سراً!"

وأنت لا تمانع سماع الأسرار:- قولي! فتقول:

" أبي ينام مع أمي كل ليلة ثلاثاء!" تخجل من الخبر، ولكنك تسمع!

- يا ملعونة! وكيف عرفت ذلك؟

"عندما كنا صغيرتين أنا وأختي **نوسا**، كان أبي يؤجر ثلاث غرف للطلاب، والغرفة الرابعة ننام كلنا فيها."

- وهل كان والدك يملك هذه الشقة، في الوقت الذي يملك فيه فلة شاطىء أبو قير؟

" كان قد اشتراها وفرشها بنفسه، كي تكون خلوة له، يقعد فيها مع أصحابه وصاحباته. هذا ما سمعته من أمي ذات يوم، وهي غاضبة منه، إذ قالت له: كان قدراً ومكتوباً عليّ أن أتورط معك في هذه الشقة المتعوسة! ولولا ورطتي، لما قبلت الزواج من رجل (دون) مثلك! فقلت لأمي: ما هي ورطتك يا أمي؟ فزجرتني قائلة: أنت تخرسي! فخرست. ولكنني بعد ذلك، فهمت كل شيء. "ولكن كشف تيتي للمستور، يدفعك للفضول، فتسألها:

- وكيف تعرفين أنهما ينامان كل ثلاثاء، وليس كل خميس مثلاً، حسب أغنية شادية (تعرف إني كل خميس...)؟ فتبتسم خجلى وهي تقول: "بصفتي البنت الكبرى، كنت أتجسس عليهما، فأفهم ما يدور تحت الأغطية. " تدير عنقها بخجل وتضغط بأسنانها على شفتها السفلى الممتلئة ثم تقول: "ذات ليلة صحوت على أصوات غريبة! انتبهت، فسمعته يلهث ويتأوه بصوت مرتفع. فكّرت في البداية أنهما يتخانقان في السرير، ولكن أمي كانت تطلب المزيد! صحوت من نومي، ولكنني بقيت أتنصت عليهما، متصنعة النوم! لم أفهم تفاصيل ما يدور ليلتها، ولكنني في اليوم التالي ذكرت ذلك لصديقتي نهى، فقالت: دعينا نسأل ابنة خالتي الكبيرة سوسو، فهي في التوجيهية، وتعرف كل

شيء.. سألناها، فضحكت، وشرحت لنا كل شيء. وذكرت لنا نكتة رذيلة قائلة: سألتُ أمي ذات ليلة: كيف أتيتُم بي إلى الدنيا؟ فقالت أمي: اشترينا بطيخة، وقطعناها، فوجدناك داخلها، فأخرجناك، وأرضعتك، وربيتك حتى كبرت، وها أنت كما ترين! فسألتُ أمي بسخرية ضاحكة: لماذا كل هذا التعب؟ ألم يكن (الـ...) معروفاً لديكم في تلك الأيام؟ فخجلت أمي، وطردتني من جوارها، حاملة مكنسة المطبخ لتضربني بها!" تضحك تيتي وتتابع قولها: "ومنذ ذلك الوقت، صرت لا أنام كل ليلة ثلاثاء، بل أبقى متصنعة النوم، ولكن كلي انتباه لأية حركة تصدر منهما. وفي حوالي منتصف الليل، تبدأ الهمسات والتأوهات، وال (خُذ، وهات) يا حبيبي، فتصحو كل شعيرات جلدي، وتمط عنقها تتنصت، كي تسمع ما يدور هناك! كنت أعتبر أمي مثالاً للبراءة والخجل، ولكنني صدمت بكونها بهذه الروح المُحبة لل...! وهذا جعلني أنضج جنسياً قبل زميلاتي الأخريات. صرت أبحث عن معلومات جنسية، وأحاول قراءة مجلات الطب في البداية، ثم أتناقش مع الطالبات الأكبر مني في المدرسة، ثم أسأل نساء كبيرات في السن. ولدى استفساراتي ذات مرّة، حاولَت واحدة منهن إغرائي لمشاهدة عملية مكشوفة من هذا النوع، فخفت عندما عرفت أنها ابنة سوق، وتريد أن تورطني معها، فرفضت، وعدت إلى بيتنا راكضة!"

يجول بخاطرك كل هذا، فتقول لنفسك هازلاً:

- لو اتبع **برهان وألبينا** طريقة البطيخة في إنتاج ولدهما **الأخضر كنعان**، لكانت طريقتهما ألطف من خروجه من أنبوب اختبار لا يرحم!

بنات بحري!

كانت اللجنة الثقافية لطلبة الكلية قد دعت الشاعر **أحمد فؤاد نجم** والفنان **الشيخ إمام** إلى حفل غنائي في مسرح الكلية، الذي يسمى في النهار "مدرج رقم واحد"، ولكن الحفل تم منعه قبل لحظات من بدئه. ويومها قالوا إن المنع جاء لدواعٍ أمنية. ورداً على المنع، نقلت الناشطة **سهير المحلاوي** قول الشاعر **أحمد فؤاد نجم**:

"ما هذه الحكومة والأمن الذي يخاف من رجل أعمى، يسير متكئاً على من يسنده على قارعة الطريق؟ ألِلى هذه الدرجة تخاف الحكومة المدججة بالـ.. من هؤلاء البسطاء الذين لا يجدون قوت يومهم؟ ألِلى هذه الدرجة حكومتنا ضعيفة، يقلبها ويطيح بها رجل مصاب بفقر الدم، ويقعد على الرصيف، ليشم نفَسه؟"

وعناداً من اللجنة الثقافية، رتبت **سهير المحلاوي**، **وفائزة رشيد**، **وعبد المسيح عطا الله**، **ونهى**.. لا أعرف نهى ماذا، فأنا نسيت! رتبوا الحفل الغنائي ليكون في مقهى مصر، المقابل لمحطة القطارات. وذهبنا إلى هناك، أنا **ومحمد محمد** مع الشلّة طبعاً، فتجمع في المقهى الذي كانت معظم

كراسيه على الرصيف، خلق كثير لم يتسع المكان لهم، حيث وقف الشاعر **أحمد** فؤاد نجم يلقي قصيدة اسكندرانية جميلة:

إسكندرية المحروسة.. الصيادين وسمك مرسى
منين ما تمشي، تصادف ناس..
شيلاّه يا مرسي، يابو العباس،
ناس من الصعايدة، وناس بحري..
والقلب مفتوح عالبحري،
دايب في سحر بنات بحري.. والحب تحت الشمّوسة.
الله عليكي يا اسكندرية..
من البحر رايحة.. من البحر جاية.
في اسكندرية يابو اسكندر.. بدع الضواحي والبندر،
فيها الحواري بالمساكين.. وفيها جنة راس التين.
الظُّهر سمكة بلطية. والعصر ناعمة ولعبية،
والليل عريسك يا عروسة.
وهكذا وهكذا... الدنيا غابة ومنتزه!

ولدى انتهاء القصيدة الرائعة هاج الجمهور وماج، وهم يصفرون ويهللون وصاح أحدهم قائلاً: يا **أحمد** يا عظمة! فتشجع الجمع الغفير وصاحوا معاً قائلين:

بص، شوف، **النجم** بيعمل إيه!
بص، شوف، **النجم** بيعمل إيه!

وقبل انتهاء القصيدة الإسكندرانية المدهشة، كانوا قد أتوا بالرجل "البصير"، الذي كانت فيه ملامح من عميد الأدب

العربي، يسير متكئاً بيده الرهيفة على كتف أحد شباب اللجنة، يرافقه عازف ناي نحيل الجسم بملابس بلدي، وضارب طبل بحجم البغل، وولد بريء يبدو أنه عازف كمنجة، فأجلسوا الشيخ إمام على كرسي خيزران، مثل كرسي أم كلثوم، وبعد أن هدأت الدوشة، وقف الفنان مع رفاقه، وغنى أغنية جيفارا، التي صدح فيها، بينما الجمهور يصفق بنغم جماعي، ويكرر من بعده على شكل كورس جماهيري:

"جيفارا مات. جيفارا مات!

آخر خبر في الراديوهات!

وفي الكنايس والشوارع والبارات! جيفارا مات،

وامتد حبل الدردشة والتعليقات...!

مات المناضل المثال! يا ميت خسارة عالرجال!

مات البطل فوق مدفعه جوّه الغابات!

لا طبالين يفرقعوا، ولا إعلانات!

جيفارا مات موتة رجال!

يا محفلطين يا ملمعين يا أنتيكات!"

ولم يكمل فنان الشعب أغنيته، إذ تقدمت ثلة من حرس الشرف. آسف! أقصد من رجال الأمن، واقتادوا الرجل، هو ورجال فرقته وشاعرهم معهم إلى جهة غير معلومة! وافرنقع الجمع بشعور متصادم.

وفي اليوم التالي تتوقف عند عدد من الطلاب والطالبات الذين هم نواة مظاهرات 68، المتجمعين حول الطالبة

الناشطة **سهير المحلاوي**، فيسألها هذا، ويعلّق ذاك، وهي تجيب: "لقد أودعوا المعتقل." ويسأل آخر: "لماذا اعتقلوا؟" فتسمع الإجابة: "الأمور لا تسير ببراءة!" ويصيح ثالث:

" يبدو أن شيئاً ما يُطبخ خلف الكواليس؟" وينفعل عاشر صائحاً: "نحن لا نعرف ما هو الجرم الذي جنوه!"

لم تتوقف هذه اللجنة المكونة من عشرة طلاب وطالبات عن النشاط الاجتماعي الوطني، ففي بداية الفصل الدراسي الأول بعد النكسة، وقفت الطالبة فائزة رشيد أمام المتجمهرين من الطالبات والطلاب أمام باب المدرج واحد، وخلعت قلادة ذهبية بسيطة كانت بصدرها، وقالت: "لا حُلي لنا بعد اليوم، إلا بعد عودة كرامتنا منصورة."

وقال الجميع بصوت واحد: "حنحارب.. حنحارب. .حنحارب!"

وأكملت فائزة رشيد خطابها بمطالبة جميع البنات المحبات لوطنهن بخلع خواتمهن وأساورهن وقلائدهن الذهبية، وضبطها وتسجيلها بدقة وبشهود عدول من اللجنة الطلابية الوطنية، والتبرع بثمنها إلى الجرحى والمصابين في معارك يونيو67. وطالبت **سهير المحلاوي** بخروج اللجنة إلى الأسواق والمحلات والمساجد والكنائس وكل مكان واعد، لجمع التبرعات بمعرفة اللجنة، وتدقيق الرقابة عليها،

وتقديمها إلى رجال المقاومة المصرية، الذين يديرون حرب الاستنزاف.

تلاحظ أن بنات الكلية أصلب عوداً من الرجال في الحشد والتعبئة المدنية، إبان هذه النكسة، حيث يتقدمن فئات الطلاب لدعم حرب الاستنزاف، والتحفيز والشحن لمعركة أخرى قادمة لا محالة. فتراهن يقفن بالمئات على رأس مظاهرات 68، التي كانت صرخاتها داخل حرم الكلية وفي الشوارع: "حنحارب. حنحارب. حنحارب. حنحارب!"

يتجمع ثلاثة طلاب فلسطينيين وطالب شرق أردني في مقصف كلية الهندسة، ويقررون العودة معاً إلى الأغوار الأردنية الفلسطينية، للالتحاق بالمقاومة. وبعد سنة من غيابهم، تسمع أنهم قد قادوا المقاومة الفدائية بالتكاتف مع الجيش الأردني الباسل، فاكتسحوا العدو، وانتصروا في معركة الكرامة.

تبحث مع **محمد محمد** مسألة التطوع في المقاومة، فيقول لك: "لا يكون التطوع في المعركة اعتباطياً، فكل شيء بأوان، وأوان المعركة بعد تخرجنا. اليوم دراسة، وغداً حرب!" وبالفعل، ويا حسرة أمه، فلقد استشهد البطل **محمد محمد** في معركة التحرير الذي لم يكتمل!

العرب مصريون!

قضيت أيها الأهبل خمس سنوات جامعية، لم تدخل فيها باراً أو ملهى! وبعد كل هذا العمر الجامعي تسأل أبو جرجس:

- كيف يكون الملهى من الداخل؟ وماذا يعملون هناك؟

فيقول لك القصير المربوع مثل برميل الفسيخ الخشبي المستورد، وهو يضع يديه في جيبي قميص بيجامته القطنية البيضاء المخططة طولياً بالأزرق، والتي لا يغيرها داخل البيت، قد يكون ليشعرك بأنه طويل القامة:

"لا أعتقد أنك في هذا السن، ولا تزال مغفلاً، ولم تدخل ملهى أو باراً! اذهب يا اخويا إلى الملهى، واقعد هناك، فستشاهد كل ما فيه. انتهت القصة!"

تخجل من نفسك لهذه الجهالة، فتجيبه متضائلاً: - ولكنني لا أشرب المسكرات يا (أبو جرجس)، فماذا سأقول له إذا جاء النادل يسألني؟ فيضحك المرحوم وهو يقول ساخراً: "ماذا أقول له، لو جاء يسألني؟ والله يا أخي افتكرتك نجاة الصغيرة! قل له: أريد كازوزة. وهو يحضر لك كازوزة! تشربها بالصحة، وتتفرج بالسعادة، وتروّح بالسلامة! انتهت القصة!"

وأبو جرجس مزاجيٌّ، وكثير الشرب، ففي إحدى الليالي سمعنا أنا ومحمد صوتاً مشاغباً يصدر من المطبخ، فدخلنا عليه، فإذ على طاولته زجاجة فارغة مكتوب عليها كونياك، وهو جالس يغني لها:

"جيب القزازة،
واقعد لاعبني،
دا المزّة طازة،
والحال عاجبني!
ما تجيب القزازة يا ابن الكَلْب.!"

كان المرحوم فكاهياً مضحكاً، ومُهرِّجاً بصوته المرتفع، ليغطي على قصر قامته المربوعة!

نجلس معه في المطبخ، فنشعر أن الرجل قد سكر وهو يستمع إلى نشرة أخبار صوت العرب، الذي أعلن ساعتها انتحار المشير بطريقة غامضة! يشاهدنا فيضحك كثيراً، ثم يفقعنا نكتة:

"عندما وصلت جنازة المشير إلى المقابر" يقطعها بضحكة مدوية - لا يقطع الجنازة، بل يقطع النكتة السخيفة بضحكة سيد قشطة المعهودة - ثم يعيد قائلاً: "عندما وصلت جنازة المشير إلى المقابر، قام الموتى من قبورهم، تحية واحتفاءً بالزعيم، وهتفوا كلهم مهللين مرحبين:

لا نريد إلا جمال!
لا نريد إلا جمال!"

نفاجأ بهذه النكتة الحاقدة، فلا نضحك، بل نشعر بإهانة وتقزز! وينفلت الرجل من عقاله، يُفوِّر بوجهة نظره المعهودة!

تقعد متفرجاً، فأنت في عمر المتلقي وليس المُنَظِّر، ولست في موقف الموافقة ولا المعارضة، وكذلك فأنت تسكن في بيت الرجل، ولا تستطيع أن تعارضه علناً. وكما أن الحاكم العربي دكتاتور، فالمواطن العربي دكتاتور أيضاً، وأبو جرجس دكتاتور، وكما يقولون عندنا في الكلية (الدكتور دكتاتور!) ولكن **محمد محمد** لا يأبه لكل هذا وذاك، بل يتفرغ المحترم لمناقشته ومعارضته بقوة قائلاً له:

- لو كان عبد الناصر يعيش لنفسه، لتصرف بشكل مغاير في نهاية الخمسينيات، عندما دفعت له الإدارة الامريكية ثلاثة ملايين دولار ليصرفها سرًا لحماية أمنه، فوضع المبلغ بين يدي مجلس الشعب كما هو، واقترح عليهم بناء برج القاهرة، كرمز للكرامة الوطنية. ترتفع نبرة صوته وهو يهاجم صاحب البيت:

- إن إنجازاً واحداً من إنجازات الرجل مثل تأميم قناة السويس، يحقق المركز الاستراتيجي لمصر، ويحقق مليارات الدولارات سنوياً لمصلحة الخزينة، ومليارات الجنيهات إيرادات العمالة والتجارة المصرية المرتبطة بالقناة. فيخبط أبو جرجس الزجاجة الفارغة على الطاولة قائلاً:

"قرار تأميم القناة كان نوع من الحركات القرعاء اللي احنا عارفينها!"

- ولكن كيف نحرر قناتنا من مخالب الاستعمار المتحكم بقلب مصر؟ يسأله محمد. فيجيب الرجل مؤكداً:

"مجلس الأمن، والشرعية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة، هي الطريق الوحيد."

- الآن فهمت معنى مقولة الممثل توفيق الدقن: (ألو يا أمم!) وأنه يقصد الأمم المتحدة؟! لقد احتُلّت فلسطين منذ سنة 1948، ولم تنفع قرارات الأمم المتحدة بشيء، لا بل إن قرارات الأمم المتحدة هي التي أنشأت الكيان الصهيوني واعترفت به كدولة، وكلما توسع الاحتلال، يتوسع دعم الأمم المتحدة للمحتلين! أنت بصراحة يا (أبو جرجس) تدافع عن العصر البائد!

"أنا لا أدافع عن عصر الخديوي سعيد ولا عن الخديوي اسماعيل"، يضحك أبو جرجس بينما يداه محشورتان داخل منامته البيضاء المخططة، وهو يقول ساخراً:

"ولا أقصد التحامل على الخديوي جمال عبد الناصر أبداً، وإنما أقول: كلهم خديوي. والفرق هو أن ذاك خديوي مدني، وهذا خديوي عسكري، ولكن الخديوي المدني أقل ضرراً من العسكري! يقول لك عبد الناصر: العروبة وما أدراك ما العروبة! واحنا مالنا ومال العروبة؟ نحن فراعنة ولسنا عرباً!"

- يا (أبو جرجس) إذا كانت أمنا هاجر التي سعت بين الصفا والمروة، ولا نزال نسعى مثلها في الحج، هي

مصرية، وإسماعيل ابن المصرية هو أبو العرب، معنى ذلك أن العرب كلهم أولاد المصرية هم بالضرورة مصريون، وبعبارة أصح فلتَقُل: إن المصريين كلهم عرب. قلها كما تشاء!

يفاجأ أبو جرجس بهذه المعلومة، فيصمت مغلوباً على أمره، بينما يشدك محمد قائلاً:

- يبدو أن الرجل لم يؤجر غرفتيه فقط، بل يؤجرعقله للشيطان. يدخل بك إلى غرفتنا وهو يقول:

- الرجل يهذي. فإذا بنى عبد الناصر مساكن شعبية للفلاحين، قالوا: اعتُدي على الأراضي الزراعية، وإذا بنى المصانع، قالوا: لقد دمر البيئة. وها هو الغرب يدمر الكون كله بدخان ومخلفات كيماويات مصانعه المخيفة، ولا يستطيع أن يعترضه أحد! القطن والصوف المصري يا مشهور كان يذهب إلى بريطانيا شبه مجاني، مقابل حماية بريطانيا لأمن مصر، وكأننا لا نستطيع حماية وطننا، علماً بأن حاميها حراميها! والحماية ليست سوى لعدد محدود من الإقطاعيين، الذين ينشطون لخدمة المستعمر في نهب ثروات الوطن.

واليوم تقوم مصانعنا العملاقة بتصنيع منتجاتنا المصرية وتصديرها. صار ديننا في جامعة الأزهر بتوجيهات عبد الناصر- الذي أطلقوا عليه النار في المنشية - دين علم وعمل وآداب وفنون، يتعلم فيها طلاب العالم من أندونيسيا وماليزيا والفلبين أصول الدين وكافة العلوم الحديثة، وولّد

السد العالي الكهرباء، فأوصلناها إلى كل مصانع وقرى مصر، التي كانت تسهر على سراج علاء الدين، فصار المصري اليوم يقول للمصري: (عليك نور!) ولم يعد في الريف ظلام للحرامية وقطاع الطرق! وأما عن الفساد والمحسوبية التي تتمدد في الخفاء، فكل دولة فيها حرامية، وعبد الناصر وحده لن يستطيع تعقيم البلد!

يقول **محمد** هذا، ثم يسحب جريدة الأهرام من بين كتبه، ويعود إلى المطبخ، فتلحقه إلى هناك لتمنع حدوث معركة شخصية، فتراه يقول لـ(**أبو جرجس**): "إقرأ ما تنشره وسائل الإعلام عن تأثير عبد الناصر الذي لا يعجبك." ويقرأ هو، عندما لا يقرأ ذاك:

* بسبب حرب الاستنزاف، عمال ميناء نيويورك يرفضون تفريغ الباخرة المصرية كليوباترا، بتأثير من اللوبي الصهيوني.

* رداً على المقاطعة، عبد الناصر يطالب العمال العرب بعدم تفريغ أي باخرة أمريكية في موانيء العرب.

* عمال الموانيء العرب يستجيبون للرئيس، فيضطر(الجيش الأمريكي) الى القيام فوراً بتفريغ شحنة الباخرة كليوباترا في ميناء نيويورك!

- هذا هوالقائد الذي يهز الدنيا بخطابه! يصيح **محمد** غاضباً: وليست مظاهرات الموتى التي تحلم بها وحدك!

"تعال يا **محمد**." تسحبه من المطبخ: "الرجل سكران، وأنت دمك يفور في دفاعك المستميت هذا!"

"هذه مصالح يا صديقي،" يجيبك بنبرة الواثق بنفسه: " أنا ابن عامل كهرباء، أدافع عن مصالحي العمالية، و(لأبو جرجس) مصالحه في عودة الإقطاع والمستعمر، ووكالاته التجارية، كي تعود مبيعاتهم تمتص عروق الشعب المصري، فنستدين بمليارات الدولارات مشروبات الكولا ولحوم البورغر، وننسى عصير المانجا الشهي وقصب السكر اللذيذ، ولحم البتلو الزهري! يريدون أن يغرقونا في مأكولاتهم ومشروباتهم المدمرة للصحة ولميزانية الدولة!"

ها قد جاءكم اليوم أيها الإسكندرانيون جيل كنعان الأخضر، الطيب المسالم، والذي لا يشرب الكولا ولا يأكل البورغر ولا حتى البتلو الزهري أيضاً! فلو نجحت تجربة هذا الجيل، فسوف يتهاوى الاستعمار في العالم كله، ويتوقف نهب الثروات من أساسه! فكرة التخضير هذه باهرة! أنا منذهل من فكرة الحيوان الأخضر هذه!

***

في اليوم التالي لمعركة المصالح، تأتيك تيتي منتهزة فرصة عدم وجود أحد في البيت، وأنت الوحيد المواظب على رسوماتك الهندسية. حتى محمد سارح، أو مداوم في مطعم الدمنهوري. تقطع عليك خلوتك، فتجدك سلبياً غير مبالٍ بالحب، ولا بالولدنة! ولكنك أيها اللئيم تشتهي

حضورها، فتتهيأ لاستقبالها. تقترب منك، فتلتقي معها بالأحضان، وتتنشق أنفاسها الأنثوية الشبقة اللاهبة، فتخرج من عالم الدنيا، إلى عالم الخدر. تمتص رحيق أزهارها، فلا تستطيع وصف تلك اللذة التي تسري في جسدك، لا بالشهد، ولا بكل ما أنعم الله علىَ الإنسان من متع الدنيا!
ها هي تيتي ملاك تزورك في أحلام صحوك، وتمتزج معك، فتذيب في أحضانك جسدها الطري، بنشوته الغامرة، وتمتص منك ما يخرجك من كل أطوارك. وتعرِّي كل مفاتنها وكنوزها لك وهي تحتضنك، فتتخيل جدتك أنيسة تقعد أمامك مكررة مقولتها (درب البنات...) تبتعد قليلاً، فتشدك تيتي بأظافرها وهي تصرخ فيك قائلة:

"اقترب يا جبان، اقترب يا نذل!"

تعرف أنك لست جباناً، ولا نذلاً، بل رجل مبادىء!

يبدو أن جدتك أنيسة استطاعت أن تنزع منك دسم اللذة الجنسية، فطلعت رجلاً مضغوطاً بالجنس، مع وقف التنفيذ!

ولكن تيتي لا تترك لك فرصة التفكير، فتنسيك جدتك وكل أهلك. فيتحول جسداكما إلى شكلين من أشكال الطاقة، وتختفيان عن الوجود..

عيش وملح!

خروجك من الإسكندرية لا يختلف عن خروج آدم من الجنة، بعده حدثت لآدم لوثة دماغية، أو فوضى حواس، أو غموض في الرؤيا، أو عُقد نفسية. وهذا ما حصل معك، فلم تعد تستطيع لملمة شؤونك.

أول أهدافك بعد النكسة هو عودتك إلى أهلك في فلسطين، التي صارت كلها محتلة، ولكن العودة إليها صارت ممنوعة بقوة السلاح!

كان" شعب الله المختار" يسمح للفلسطينيين بالخروج من الجنة، ولكن العودة إليها ممنوعة! فصار همُّك المؤقت هو إيجاد فرصة عمل تعتاش منها، بينما دخل **محمد محمد** التجنيد، وحرب الاستنزاف الناصرية، وانخرط مع رفاقه في الاستعداد لاختراق خط بارليف.

توفي جمال عبد الناصر بطريقة غامضة، فهجم الشامتون بموته، يبحثون عن مكتنزاته، فلم يجدوا في ثلاجة بيته سوى كيلو واحد من لحم البتلو..

لم يكن جيل **كنعان الأخضر** الذي يعارض استهلاك البتلو وغير البتلو قد هلّ، ولو عممت فكرة كنعان آنذاك، فلن تجد

أرملتُه (السيدة تحية كاظم)، كيلو لحم البتلو في ثلاجة بيتها المكلوم..

فتشوا في كل البنوك المصرية والعربية والدولية، فلم يجدوا له حساباً في بنك. كانت حساباته في جيوب الغلابى والمستضعفين المصريين. وهؤلاء الغلابى بأدوارهم اللانهائية وهبوا كل حساباته وحسناته إلى الآخرة..(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ!) بكاهُ كل المستضعفين في الوطن العربي، وأمر نيكسون بوقف تدريبات الأسطول السادس في البحر المتوسط، قائلاً إنه لا حاجة للتدريبات بعد وفاة ناصر.

عمل لك أخوك **غالب** تأشيرة دخول إلى دبي، فدخلتها، وعملت مهندساً في بلديتها، ومن هناك اتفقت مع أحد المواطنين على فتح مكتب هندسي مشترك للاستشارات الإنشائية، وبدأتما العمل؛ هو في الإدارة والعلاقات العامة، وأنت في التخطيط والتنفيذ الفني. والكريم قال: خُذ.

ونظراً للعيش والملح والفطير المشلتت، ولكونك قد صرت صاحب عمل، تقرر إشراك المهندس **محمد محمد** في مشاريعك المدنية، فبعد انقشاع غبار حرب 1973 الذي حجب الرؤيا - وليست الرؤية- أمام الأنظار، تلاحظ أن أخباره قد انقطعت عنك، فتحاول الاتصال به، فتفاجأ باستشهاده في معركة العبور! تذهل للخبر، فتقطع علاقتك بالإسكندرية والمنصورة ومن فيهما!

رحت تستقطب مئات المهنيين المصريين الأكفاء في مشاريعك الإنشائية، وتعطيهم فرص العمل، وتتعاطف معهم. ويبدو أن الحلاوة الطحينية قد أثمرت فيك، وبقيت تحت أسنانك!

وبعد عشر سنوات من القطيعة، لا تيأس من التفكير برد الجميل إليهم، فيخطر في بالك الاتصال ببيت (أبو جرجس). كنت قد نسيت رقم هاتفهم، فتطلب من استعلامات اسكندرية رقم هاتف مرقس جرجس متري، الساكن في كليوبترا الحمامات، وتتصل بالرقم، فيطلع لك صوت أم جرجس، التي تفاجأ بهاتفك. وبعد السلام والتحية والأشواق، وتعريفها على أحوالك، تسألها عن حالها وأحوالها وما هي أخبار (أبو جرجس) وجرجس وتيتي ونوسا؟

"حالنا لا يسر صديقاً". تبكي على الهاتف وهي تقول لك: "أبو جرجس توفي قبل خمس سنوات! وتحملت أنا المسؤولية بعد وفاته، فأجّرنا الغرف الثلاث، كي نعيش من إيراداتها، وتيتي قضت خمس سنوات في فرنسا. كانت تعمل هناك، وعادت منذ سنة. ونوسا تعمل مُدرِّسة موسيقى. وجرجس يدرس في كلية الهندسة. والحالة على ما (قُسُمْ)!"

تُصدم بخبر الرجل فتعزيها بوفاته، ولو متأخراً:

- عليه رحمة الله، البقية في حياتك. من الذي عندك في هذه اللحظة، كي أتحدث معه؟ فتقول: "عندي تيتي، تفضل، تكلم معها."

تتحدث مع تيتي، فتثير شجون ذكرياتك وهي تقول لك:

"كيف خطرنا على بالك يا مشهور، بعد هذا العمر الطويل؟" فتجيبها ملهوفاً لسماع صوتها:

- أنت لم تغيبي من بالي يا تيتي، كي تخطري عليه مرّة أخرى. تحدثها عن أعمالك في دبي. ولا تسألها عن زواجها، فلو تزوجت لذكرت ذلك لك، أو لتحدثت عن زوجها وأولادها، ولكن يبدو أنها ما تزال.. فتسألها:

- هل تعملين يا تيتي؟ أو دعيني أسألك: كيف تقضين وقتك هذه الأيام؟ فتجيبك محبطة:

"أعمل سكرتيرة في مكتب فرنسي."

أنت لم تستطع تجاوز كونك متزوجاً في الحديث معها، ولكنك تسألها عن تخصص جرجس في الهندسة، محور حديثك الهاتفي، فتجيب بتلهف الباحثة له عن فرصة عمل:

"تخصص جرجس مثلك في الهندسة المدنية، وسيتخرج هذا الصيف. وهو مؤدب وخلوق وطيب، ويستحق منك كل رعاية! أنا أعرف شخصيتك يا مشهور، أقصد يا باشمهندس مشهور."

يبدو أن أمها الواقفة إلى جوارها قد زجرتها على مناداتك باسمك دون عبارة "باشمهندس"، فتصحح وتواصل حديثها " سيكون جرجس لك خير معين إذا دبرت له عقد عمل معك في الإمارات."

- هذا عظيم! ما رأيك أن تبحثي معه ومع والدتك،

مدى رغبته في الهجرة إلى دبي، كي يشتغل معي في مشاريع الهندسة المدنية؟ فتفرح مندفعة بقولها: " صرت مقاولاً قد الدنيا يا باشمهندس! ربنا يخليك."

- شخصيتي تغيرت يا تيتي فلقد صرت رجلاً مهنياً"، تقول لها ضاحكاً: - لكنني كما عهدتني، ما زلت ساذجاً في أمور الحب!

وبالفعل ترتب له تأشيرة عمل، فتستقبله بالأحضان في مطار دبي.

- والله وكبرت يا جرجس الحبيب، وصرت مهندساً، وسيد المهندسين!

"البركة فيك يا باشمهندس مشهور". يجيبك بمنتهى الأدب.

- أرجو أن تناديني بمهنتي؛ مهندس مشهور، دون هذه (البشبشة)، فأنا لست باشا، وعبد الناصر رحمه الله أنهى عصر الباشاوات!

"ولكن الباشاوية الآن رجعت ألعن مما كانت على زمن الملك فاروق!" يجيب جرجس ضاحكاً، "فبعد أن كانت مقصورة على الباشاوات، صار شرطي الأمن باشا، والسباك باشا، وبائع عصير القصب باشا؟ صارت الباشاوية على قفى من يشيل! على كل حال، أنت تأمر يا مهندس مشهور."

تأخذه إلى بيتك، وفوراً تدبّر له سكناً ملحقاً ببيت هادىء بعيد، عبارة عن غرفة مع صالة وملحقاتها، منعزلة عن

الجيران، حيث يفتح بابها من الخارج. وتدخله ملاك عملك، وتدربه، وتراقبه، وتعطيه فرصة الرسم والعمل والمتابعة.

وبالفعل، يصير جرجس مهندساً مناسباً في المكان المناسب، ويستطيع أن يكون مساعدك، وذراعك اليمنى في العمل، فينتقل إلى سكن أفضل، لاستقبال عروسه الجميلة.

وبعد عدة سنوات، لا يخفي عليك المحترم أنه قد استعاد بالشراء الخمسين فداناً التي باعها أبوه، وأنه قد رفع دعوى قضائية، يطالب فيها باستعادة الخمسين فداناً التي أممتها الدولة وسلمتها للفلاحين، فحصل عليها، وذكر لك أنه في المراحل القضائية الأخيرة من استعادة الفلة المصادرة في (أبو قير). تفاجأ بأنه قد استعاد كل ما فقده أبوه.

وبعدما خلّفت له زوجه ولدين وابنتين، تركك وعاد إلى حيث أتى، ذاكراً لك أنه سيستعيد وكالة السيارات الأمريكية، التي كانت قد أُممت، وصودرت من والده.

(طاسة، طرن طاسة)!

ها هو كنعان قادم مع والده من دهليز المستشفى.. يهجم عليك الأخضر بالأحضان مُقبِّلاً وجهك وهو فرح بنجاحاته، ويبشرك برهان بنجاح الفحوصات، فنحتضن كنعان بيننا، ونصرخ مبتهجين بالنتيجة التي توقعها برهان.

ومما يزيد دهشتك، مشاهدة فتاة خضراء بملابسها الشفافة مثل كنعان تحتضن قطة جميلة، خضراء الفراء والعينين، يبدو أنها خارجة من مختبراتهم الوراثية، تقف إلى جوار امرأة جادّة أوروبية المظهر. ينتبه برهان، فيقول:

- أُعرِّفك على السيدة الألمانية (إلزا)، وعلى ابنتها الجميلة (مونيكا)، القادمتين ضمن مجموعة الخضر المُخضَعين لإجراء فحوصات طبية في مستشفى شنغهاي هذا، مشابهة لما جرى مع كنعان.

تلاحظ احتفاء كنعان بصديقته مونيكا، ذات الشعر العشبي الأخضر، المنسدل كذيل حصان أخضر على ظهرها شبه العاري. ويُسِرُّ لك برهان أن مجموعة كبيرة من الشباب والصبايا الخضر قد أُحضروا معاً، بغرض فحصهم في هذا المستشفى الدولي، ومن ثم التفسُّح في ربوع الإسكندرية

الجميلة، وكلهم ينزلون الآن في فندق (**جوانج تشو**) حيث ننزل، وبذلك يكون له أصدقاء ورفاق في الإسكندرية، يقضي وقته معهم في المرح والثقافة.

نخرج معاً من المستشفى، وأنت تفكر بترتيب احتفال بنتائجه الصحية المبهجة، فيستأذنك **كنعان** بدعوة صديقته **مونيكا** وأمها لحضور الحفل، فترحب بذلك. وأنت تعرف أن الأوروبيين مسحورون بمعالم الشرق، فتقول لنفسك: "إنها فرصة لزيارة **مدينة كليوبترا السياحية التي ابتلعها البحر**، فينزل السياح يبحثون عنها في القاع". تلاحظ أن الوقت مساء فتقول: " ما رأيكم أن نقوم صباح الغد بزيارة سياحية مدهشة؟ " فيفرحون موافقين.

في هذا المساء الفندقي السعيد، الذي تتوهج فيه جدران العمارات الناطحة للسحاب بنورها الوضاء، الذي اختزنته ألواحها المقواة من الشمس طوال النهار، ثم باحت به للمدينة طوال الليل، فحولت ليل الإسكندرية إلى نهار، ولم تُبقِ للعتمة مكاناً تسكنه، فترحل مدحورة إلى حواري وأزقة المناطق الفقيرة، التي ما تزال بيوتها التقليدية مُعمّاة بلا نور، ولا عيون، حتى في عز النهار، تكبس زر المحمول على رقم 2، فيجيبك مدير المطعم بأن عشاء اليوم هو مأكولات بحرية. تبلغ **برهان** بذلك، ثم تصحبه هو والألمانية إلزا معك إلى العشاء، بينما يبقى الصغيران **كنعان** وصديقته **مونيكا** يلهوان ويلعبان معاً، في غرفة الألمانيتين.

هذا المطعم يغطي طابقاً كاملاً من الفندق، تستطيع أن تقول إنها مدينة من المأكولات البحرية، وليست مثل **سمكة (أبو جرجس) المياسة اليتيمة**. هنا تشاهد كل ما تشتهيه الأنفس، وأمام هذه المرأة الألمانية الشهية، لا نفس لك لتأكل، فالإنسان حتى ولو كبر، فإن الجنس الآخر يبقى محركه الثالث نحو الإبداع والنشاط والتفكير السليم.

يأخذكم المضيف إلى البحريات المعروضة، فيقول لكم: "هذا كافيار جيد للـ...، وهذا سالمون مصدر الأوميجا 3 المانعة للتأكسد، وهذا. وهذا. أمامكم ألف صنف وصنف من المأكولات البحرية، هذا مدخّن، وهذا مشوي، وهذا مقلي، وهذا مطبوخ، وهذا مسلوق، وهذا فسيخ متنوع في أصنافه وبهاراته وزيوته، وهذا يؤكل نيئاً دون طبخ، فاختاروا ما تشاؤون." يتناولان طبقيهما.. وأنت ليس لك نفس للأكل. نفسك مسدودة، بعكس شهيتك التي كانت مفتوحة على الآخر أمام السمكة المياسة المقلية في مطبخ أم جرجس.

تفكر بكونك مقطوعاً من شجرة، لا زوجة معك تؤنس وحدتك! تشعر وأنت في هذا العمر وكأنك في حكم الممنوع من الصرف والتصرف، فلا تستطيع الزواج. والمحزن في الأمر أنك على شفا حفرة.. وكما قال الممثل عبد الوارث عسر(ما بيلحق الواحد يعرف كل حاجة، إلا وهوّ متخرّج!)..

برهان وإلزا يأكلان بنهم، وأنت تتفاعل في مخيلتك كل هذه التجارب، والحياة كلها ليست سوى مجموعة تجارب، فتوصلك إلى قناعة تامة بأن الوقت قد انتهى. وأن راعي الزمن يقول لك كما يقول لك راعي الهاتف المحمول: "بقيت لك دقيقة واحدة لإنهاء هذه المكالمة." وأنت أيها العجوز المنتهية صلاحيته، بقيت لك محطة واحدة. فلتوصلك إلى محطتك الأخيرة في عكا!

وفي المطعم تصدر قرارك إلى برهان هكذا مرّة واحدة: "برهان أنا سأعود إلى عكا! وهناك أستطيع أن أعيش في كنف عائلة أختك سمر، وأقضي وقتاً ممتعاً في ربوع الوطن مع أسباطي الذين هم الآن رجال فاعلون، وتجّار ومهنيون مهولون في عكا."

المطَمئِن في الأمر أن امتدادي الآن في فلسطين قد أثمر ما يزيد على أربعة وعشرين قيراطاً ذهباً. أقصد أربعة وعشرين ولداً وبنتاً إذا حسبت أحفاد ابنتي سمر، وهناك أستطيع أن أسافر معهم في كل عطلة إلى حيفا أو يافا أو القدس أو غزة، ومن على جبال الجليل الأعلى ورأس الناقورة وهدار الكرمل، سنراقب غروب الشمس، وغطسها في البحر. سأعود ألعب مع أطفالي، تماماً كما كان جدي وجدتي يلاعباننا أيام طفولتنا القديمة، وسأحزّرهم حزّورة جدتي أنيسة التي كانت تسألنا وهي تلاعبنا:

(طاسة طَرَن طاسة!

في البحر غطّاسة،
من جوّة لولو،
ومن برّة نحاسة!
.. شو هي؟)
فيقول لي أحدهم كما كنت أقول لها:
(الشمس!) فنضحك جميعاً!

تعرف يا **برهان**، لقد سئمت تكاليف الحياة، أريد أن أرتاح وأريح." ينظر إليك **برهان وإلزا** التي لا تفهم لغتك العربية، وهو بين فرِح وحزين، ولكنه لا يُعَقِّب على مشاعرك وأنت تحدثه عن **واجب العودة، وليس حق العودة إليها!**

في صباح اليوم الثالث، نخرج مبكرين لنتمشى في الساحات التي اشتراها **المجمع الصناعي الصيني** وهدمها ثم أعاد بناءها بطريقته الخاصة، حيث جُرِّفت **صفية زغلول**، ومُسِح **سعد زغلول** عن الأرض، وأزيل ما يتفرع منهما، وهدمت معظم المباني، ففُتح بحر محطة الرمل على المدرج الروماني الشهير، الذي تم الاتفاق على أن يكون (عالبيعة)، ليبقى شاهداً على العصر.

نحن الثلاثة نسير معاً، والأخضران **كنعان ومونيكا** يسيران خلفنا، وذراع كل منهما تطوق عنق الآخر. تحكي لبرهان الذي يترجم لإلزا قصة **كليوبترا** مع **القيصر أنطونيو** الذي كان يحتل بلادها ويمارس العشق معها في ربوع الإسكندرية.

نصل إلى المدرج الروماني الذي يستعصي على تجريفات العولمة، فنتجول في المدينة الصينية للمعارض التجارية والملاهي والسينمات التابعة. وفي هذه المنطقة، أنشأوا دوز مسارح، ودارة للأوبرا، مجاورة لمسرح سيد درويش الذي بقي حياً، تؤكد تاريخه العريق صور يوسف وهبي عميد المسرح العربي في مسرحياته الرائعة مع أمينة رزق، وحتى حركات صفاء أبو السعود الصبيانية الاستعراضية الغنائية، وغيرها.

وفي قاعة يوسف وهبي الثقافية، تعرض لك شاشة كمبيوترية واسعة على كل الحائط، مسرحياته القديمة الجميلة، وهو يقف محاوراً (أمينة رزق)، بصوته الخشن المصقول:

- يا للهول! انت خدعتني يا أمينة! فتجيبه مصعوقة، ويدها على صدرها:

- أنا! يا خيبتي! لا والله العظيم! دا حتى...!

وفي الداخل، يجلس بعض المتفرجين على صفوف مقاعد زرقاء متراصة، ليشاهدوا العروض المجانية المتواصلة. مع فواصل إعلانية.

وفي الساحات المكشوفة نشاهد ملاهي ألعاب ضخمة للكبار والصغار، شبيهة بألعاب ديزني، ولكن بطريقة صينية متطورة، تحيط بساحاتها الواسعة عمارات أبراج بلورية حديثة، مخصصة لرجال الأعمال، تتوجها ناطحة السحاب

ذات البرجين الصينيين التوأمين (تيانجن) اللذين يشبهان صاروخين لانهائيين يخترقان السماء.

نتجول فنشاهد محلات تجارية، ومكاتب إدارية، ومقاهي وملاهي وقاعات ترفيهية، وأسواقاً مالية، وشركات عابرة للقارات.. وينتشر معرض صيني صناعي تجاري كبير على مساحة واسعة شرق شارع سعد زغلول سابقاً.. وأثناء مرورنا بالساحات المزدحمة، نشاهد عرض مجسمات لمشاريع صينية عالمية، بهدف تسويق حضارتهم.

يشدنا مشهد شاب يختطف حقيبة يد امرأة عجوز في الساحة العامة.. كانت العجوز تسير متأبطة ذراع رجل آلي، وكأنها تتوكأ عليه.

كان الرجل الآلي يسير إلى جوارها، وهو يحدثها أحاديث يبدو أنها نُكت مضحكة، ذلك لأن العجوز تقهقه بصوت غير مسموع، رافعة رأسها إلى السماء، ومادةً ذراعها الأخرى الحاملة لحقيبتها بعيداً، بينما هي تضحك. والرجل الآلي منهمك في إسعاد المرأة المئوية العمر، التي يؤكد مظهرها على كونها ثرية. وفجأة يقفز الحرامي، فيختطف حقيبة العجوز المحنّطة على شكل متحرك، وينطلق هارباً في الساحة، فيترك الرجل الآلي ذراع رفيقته العجوز، وينطلق خلف الحرامي بسرعة البرق.. وبعد مطاردات بين السيارات الهيدروجينية، وتحت المركبات الجوية المنطلقة صامتة فوق

العمارات وبينها بسرعة، والقفز فوق الجدران، والانطلاق عبر الحواجز، يلتقط الآليُّ الحرامي..

نقف مندهشين ونحن نرى الحرامي يُعاد منكمشاً مع الآلي إلى العجوز، مثلما ينكمش أرنب بين مخالب نسر جامح، بينما الآلي يغرس أظافره المخلبية في أعصاب معصم الحرامي، والمعصم تشر دماً، والحرامي يصيح متألماً بصوت جهوري يوقف حركة سير كل من في الساحة المنظورة. يتقدم شرطي، فيضع الحديد في معصمي الحرامي، ويعتقله ثم يرافقهم باتجاه ما، قد يكون إلى مركز الأمن، فيختفون عن الأنظار!

تستمر المسيرة، فتقول لبرهان: "كنا أيام زمان، هنا في محطة الرمل نصل بالترام، قادمين من منطقة كليوبترا. فنتفرج على معروضات شارع صفية زغلول، ابتداءً من كتب دار المعارف، وحتى نصل إلى البن البرازيلي، فنجلس، ونطلب قهوة تركي، كنت أفضلها شقراء، فيطحن لنا القهوجي العجوز الأسمر - عبده الصعيدي - حبيبات القهوة البرازيلية، يأخذها من محمَصته الأسطوانية الواسعة، وكأن فيها طناً من حبيبات القهوة، وهي تدور أمامنا، تفوح منها رائحتها الدخانية الضبابية، التي تعبق الأنوف برائحتها المُشهِّية، فيقول لي صديقي الشهيد **محمد**:

"هذا الذي يستمتع بشم الرائحة، نسميه (شَمّام)."

فأجيبه متفلسفاً: - الآن فهمت أصل عبارة (عالريحة) فالكيِّيف يشرب الرائحة!

كلام فارغ كثير يملأ وقتنا ونحن جالسون نراقب هذه الجميلة الداخلة، وهذا العجوز المتصابي المتكىء على الحاجز، والذي تفضح صبغة شعره الأسود تلك الطبقة البيضاء النامية تحت الرماد، وذاك الخنفس المخنث، وذاك الشاب المغرور، الذي يراقب بعيني صقر فتاتين تجلسان بكل براءة واحتشام!

وقبل أن يطحنها الرجل الصعيدي، يسألنا:

"بالهال أم بدون هال؟" فنطلبها معاً دون هال. فيقول الصعيدي الخبير بالقهوة: "يبدو أنكما ذوّاقان للقهوة. فالهال يُضيِّع طعم القهوة، وذوّاق القهوة لا يقبل مزجها بالهال!" يتناول (كنكة) نحاسية صفراء محمرّة، بحجم فنجان القهوة، فنتفرج عليه وهو يعبئها بالماء، ثم يضعها على النار، وهو يسألنا: سكر زيادة، أم عالريحة، أم دون سكر؟ فأجيبه بكل احترام وتقدير لدقته:

- سكر وسط.. فيقول لك **محمد**: تحية كاريوكا تقول: "خير الأمور الوسط!" فيضحك العجوز، ويقدمها لنا قائلاً: قهوة مخصوص للأفندية!

نرتاح لطريقته المحببة في التودد للزبائن، ونشعر بانجذاب للتردد على هذا البن البرازيلي. نشرب ورائحة القهوة تشرح صدرينا، فيسألني **محمد** مستغرباً:

"لماذا البن البرازيلي هو السائد عندنا، وليس البن العدني؟"

فأجيبه متحسراً على الهوان العربي:

- لأن مساحات أراضي بلاد سد مأرب لا تكفي إلا لزراعة القات، الذي يسلطنهم، وينسيهم التفكير بالدنيا كلها!

نخرج من البن البرازيلي، فنتسكع قليلاً في **شارع صفية زغلول**، ونتفرج على آخر معروضات الأحذية والملابس من خلف زجاج المحلات التجارية، مجرد فرجة، ذلك لأن أحداً منا لا يملك ثمن حذاء يشتريه. ثم مالها الأحذية التي نلبسها؟ صحيح أنها (نُصٍّ نُصّ)، ولكنها ما تزال تسير على الأرض!

يستمع **برهان** إلى حكاياتك وهو صامت، وكأنه يسجل هذه الوثائق كنوع من التأريخ الشفهي. تستغل فرصة من يسمع ويسجل فتقول:

- لم يكن لدينا تلفازات في تلك الأيام. فالسينما هي الحل، للتعرف إلى ما يدور في العالم من أفكار وفنون، والتمتع بمعطياته. ولذلك كنا نتجه أنا و**محمد محمد** للتعرف إلى أفلام سينما الأسبوع الجديدة، فنصل إلى صالة سينما (بلازا)، ثم سينما (مترو)، وبعدها سينما أمير، ولا ننسى أن نعرج إلى سينما(ريفولي)، وسينما (ريالتو) التي كانت كلها في هذه الساحات التي.. والفيلسوف **محمد محمد** يقول لي نكتة سخيفة:

"في واحد راح سينما ريالتو نزلت!"

نضحك على أي شيء. نضحك والسلام. كانت أيام شباب، نضحك فيها على أي شيء يا **برهان**، ولكنني اليوم (وجهي لا يفرح حتى للرغيف الساخن.) ذلك لأن حموضة جسمي العجوز تمنعني من تناول الخبز!

نروح نتسكع في الشوارع ونحن نغني أغاني مجانين، ليس لها طعم ولا أساس من المنطق، وبصوت عال معاً، مشاغبين على ألحان فنان الشعب سيد درويش، فنقول بدل "بلادي بلادي بلادي":

(بلازا بلازا بلازا..
فيكِ فيلم في منتهى اللزازة!
بلازا يا أحلى السيمات..
فيك غايتي والمراد،
وعلى مترو التفات،
فاسلمي لي يا بلازا!)

وفي الطريق إلى سينما مترو، يقول لي **محمد محمد**:

- رغم الانتصار يا **مشهور**، فلقد أهلكتنا حرب اليمن. إن تدفق النفط في الجزيرة العربية، جعل الغرب يدعم قوى تحمي تدفق النفط الرخيص باتجاهه. وهذا بالمقابل، ألهب غيرة قوى حركات التحرر العربي، التي قامت في الخليج لمقاومة نهب ثروات الأمة العربية النفطية. وهذا ما جعل عبد الناصر يدعم قوى التحرر هناك. ولكنك كما ترى، فالخطر

يداهمنا، ونحن ننتقل من اليمن إلى سيناء، باتجاه فلسطين، بجيش منتصر، ولكنه منهك القوى، على الأقل بسبب كثرة التنقل من بلاد إلى بلاد.

ودون تخطيط استيراتيجي مسبق، يبدو أننا نُجَرُّ جراً إلى حرب قادمة، ليس وقتها! وها نحن نطلب سحب القوات الدولية من مضائق تيران. وذلك معناه الحرب مع الكيان الصهيوني. بعد الستة وخمسين، تأتي السبعة وستون، عشر سنوات من النجاحات السريعة، هل نكملها بالنجاح الأكبر، الانتصار على إسرائيل؟ يا خوفي من المغامرة الأخيرة! يدي على قلبي يا **مشهور!** وهذا المشير..!

تصور يا **برهان**، فخلال معارك الفوكلاند بين الأرجنتين وبريطانيا عام 1982، تذكرت كلمات الشهيد **محمد محمد**، وتخيّلت وأنا **في دبي** وقتها، لو كانت **معركة قناة السويس** قد تمت في أيام تاتشر، لأكلت بريطانيا مصرَ بأسنانها. بريطانيا التي لم تسمح لإسبانيا ولا للمغاربة بشبر واحد من جبل طارق، والتي لم تسمح للأرجنتين بجزر الفوكلاند، كيف ستسمح لقلب العروبة - مصر- بالسيطرة على قناة السويس الاستراتيجية؟ ننتبه إلى أننا قد تخلينا بحوارنا عن ضيفتنا إلزا، فتعتذر منها، ويترجم ذلك **برهان**، فلا تُظهر المرأة ضيقاً، بل تبتسم قائلة:

"إنني مستمتعة بمشاهدة هذه المعالم السكندرية الجميلة."

البحر يلتهم مكتبة الإسكندرية!

نقترب من قلعة قايتباي، المتضائلة كالنقطة إلى جوار برج منارة الإسكندرية، الناطحة السحاب، وعلى أعتاب بوابة مدينة كليوبترا المتلألئة تحت الماء، يتقدم إلينا **كنعان** قائلاً :- ما رأيك يا أبي أن تذهبوا أنتم إلى برج المنارة، ونذهب أنا ومونيكا مع رفاقنا الخضر- الذين يتجمعون هناك- إلى مدينة كليوبترا الغارقة؟

تنتظر سماع رأي **برهان**، الذي رغم الرقابة المشددة، والعناية الفائقة لولده الأخضر، فإنه لم يعارض طلبه، فيُسِرُّ لك: "يبدو أن كل أعضاء فريق الخضر الزائر من المدينة الخضراء في هيسن، قد رتبوا مع أستاذتهم المرافقة رحلة جماعية إلى مدينة آخر الفراعنة الغارقة. ومن الطبيعي أن يتعارفوا، وأن يتنزهوا معاً، فيستمتعون بحياتهم المرفهة."

نصل إلى بوابة شاطىء كليوبترا المفتتح حديثاً في الميناء الشرقي، فندفع رسوم الدخول، وتذهب أنت و**برهان** مع إلزا، لمشاهدة معالم أعلى ناطحة سحاب في العالم، والمتوجة بمنارة الإسكندرية، التي أعيد بناؤها حديثاً، لتظهر حجارة بنائها وكأنها من نفس الصخور القديمة، مع أنها

ألياف صينية اصطناعية قوية جداً، وخفيفة جداً، كي تقدر على حملها عمارة معلقة في السماء.

"شيَّد بطليموس الثاني سنة 297 قبل الميلاد برجاً هائلاً للمنارة، في هذا المكان" يقول الدليل للسياح المتجمعين حوله "وكان طوله البالغ مائةً وعشرين متراً يجعله إحدى عجائب الدنيا السبع. والآن أعيد بناء البرج ليكون فنار الإسكندرية في قمته، ولكن بارتفاع قياسي. " يضحك الدليل وهو يقول: "وكما تشاهدون، فلقد رممت الشركة الصينية آثار مدينة كليوبترا، لتكون المدينة الغارقة الوحيدة في العالم، ثم اشترت امتياز وضعها تحت إدارتها. "

نصعد الدرج الدائري الأثري الطابع، الذي يُسوِّر الفنار إلى الطابق الثاني سيراً على الأقدام، كي نشعر بعبق التاريخ. فيقول الدليل: " وكما تشاهدون، فإن الصعود والنزول السياحي بين الطابقين الأول والثاني من الفنار يتم عن طريق سلم حلزوني خارجي، تماماً كما كان في الماضي، وأما الآن، فلقد صممت الشركة الصينية البرج بطريقة حداثية مطورة، بعد أن صاروا خبراء في بناء الأبراج الأعلى في العالم.

نستقل المصعد مع مجموعة السياح إلى المطعم الدوّار المتربع على قمة الفنار في الطابق الخمسين بعد المائة، فنشاهد قصر المنتزه والمعمورة وأبو قير من الشرق، وحتى العلمين وبحيرة منخفض القطارة السياحية من الغرب. . كل

الدنيا من حولك تتلألأ، وتستحم على الشاطىء الأزرق، الذي يشعرك وكأنك في مركبة فضائية تنطلق في عنان السماء. وفي القمة، يستقر الفانوس، مصدر النور في المنارة، فنشاهد مرآة ضخمة، عاكسة للأشعة، تتيح للسفن البعيدة الاهتداء بها.

نجلس في المطعم الدوار، في قمة برج المنارة لنتناول بعض الشطائر والمشروبات الساخنة، فنشاهد المياه تغمر شارع الكورنيش، والبحر يتقدم لِيَلْتَهم مكتبة الإسكندرية، التي أعادوا بناءها في نهاية القرن العشرين، فتقول إلزا متحسرة على ضياع هذا الكوكب من بين أيدينا: " إنهم يعدمون الأرض وما عليها، مثل من يدخن بشراهة، ليعدم رئتيه اللتين تعطيانه أكسجين الحياة! إنهم لا يستحقون هذا الكوكب المذهل في غرائبيته وتكامله وحنانه وعطفه على كائناته الحية! إنهم يتجاهلون هذه الأم، التي لولاها لما كانت لهم حياة. " تأكل شطيرتها وهي تقول بتأثر بالغ، يُرى من عينيها وحاجبيها المتوترات: "إنني حزينة لكون غابات العالم ومياهه العذبة تشهد تناقصاً مخيفاً. جبال ثلوج القطبين تغرق في مياه المحيطات. النباتات تنقرض بسبب الإفراط في التوسع العمراني، والأكثر دماراً هو استخدامها كوقود حيوي. " ويؤيدها برهان قائلاً: - وهنا تأتي الهندسة الوراثية، لتحل مشكلة الكون، وذلك بإنتاج الحيوان الأخضر الذي لا يعتدي على البيئة.

"أخشى على أولادنا الخضر" ترتجف إلزا وهي تقول: "الذين أنتجناهم من أكبادنا، أن يدمرهم جشع رأس المال، فالهندسة الوراثية التجارية، المناهضة لكم في السوق، تهدد بمخاطر، قد تكون أبشع من شريعة الغاب." وبعد ترجمة برهان ما تقوله السيدة، تقول مؤيداً لها: "لو تم إصلاح جينات الخارطة الوراثية للناس التقليديين، دون تغيير جذري لمواصفات الطبيعة البشرية، لكان ذلك أفضل!" فتقول إلزا: "ولهذا نحن بحاجة إلى تحرك جماعي للَجْم جنون الشركات، ووقف جنون استخراج (الوقود الحيوي) من النباتات الذي سيقضي على آخر مصادر المياه العذبة، ويتلف المخزون النباتي، وينشر الجوع في كل مكان تستزرع فيه محاصيل، ليست مخصصة للأفواه الجائعة."

كليوبترا تتلألأ تحت البحر

نعود إلى باب المدينة السياحية، فنجلس ننتظر الأخضرَين في استراحة المدينة.. ها هما ينفصلان عن مجموعتهما الخضراء، المديرة لرؤوس السياح، ويركضان باتجاهنا في الوقت المحدد. قبلات وسلامات قبل أن يجلسا معنا. وبينما مونيكا أم شلال أخضر منسدل على جسدها المتناسق القسمات تدرك عدم فهمك للّغة الألمانية، فهي تكتفي بالشرح لوالدتها ولوالد كنعان بلغتها، بينما يضحك الأخضر وهو يحكي لك بصبيانية مضحكة، عندما سألته:

- ها! كيف كانت رحلتكم الخضراء؟

"كانوا يتفرجون علينا باندهاش، وطلبوا منا أن نركب غواصة سياحية لنتجول مع السياح البيض في حواري وأزقة المدينة الهابطة في قاع البحر، فقررت مجموعتنا الخضراء أن نشق طريقنا غائصين في البحر مثل الأسماك، وعندها جن جنون المراقبين وهم يشاهدوننا نسير بحرية تامة تحت سطح الماء، وننزل بجرأة إلى قاع البحر، دون أسطوانات أكسجين، أو حتى زعانف اصطناعية. وصَفّر رجال الإنقاذ الآليون، واستنفرت نساء الأمن الآليات، ودهش السياح من

الأجيال القديمة، عندما شاهدونا ونحن خارج غواصتهم، وهم لا يعرفون أننا لا نتنفس الهواء. كنا نسير منبهرين بما نشاهد في مملكة كليوبترا، إذ ننطلق على الطرق الحجرية المرصوفة، فنشاهد مركباً ملكياً مدهشاً مصنوعاً من الذهب، وأشرعته المنسوجة من الفضة، وضربات مجاذيفه المصنوعة من ذيل الحوت، تخفق على أصوات عزف موسيقى نايات وقيثارات ساحرة، وداخل المركب تتلألأ الملكة كليوبترا في خدرها المنسوجة خيوطه من الذهب، وهي تشبه الملكة بلقيس في موكبها النفيس، وعلى كل جانب من المركب يُجذِّف عشرة غلمان، كأنهم لؤلؤ منثور، لا تعرف إن كانوا من إنس البر، أم من مردة الجان. وأما وصيفاتها وجواريها من العذارى، فهن مثل عرائس الماء، وملائكة الرحمة، يتحركن هنا وهناك، ويأمرن الغلمان ليوجهوا المركب بمجاذيفهم، ذات اليمين أو ذات اليسار، وحبال المركب المجدولة من البردي تدهش الجميع."

تضحك **مونيكا** حييّة، فتتجلى جمالية جسدها الأخضر النضر وهي تواصل حديثها بالألمانية، وتستغرب أنت ما تسمع من كلام **كنعان** الخيالي. ويقول لك **برهان** فرِحاً بهما: "إنهم يشكلون ثورة خضراء تغير مفاهيم الحياة على سطح الكرة الأرضية."

ويضيف **كنعان**، وكأنه يمثل مشهداً مسرحياً: " وعندما وصل مركب كليوبترا إلى مدخل قصرها الذي أضيئت جوانبه

مع الشوارع بمشاعل باهرة الأنوار، مرفوعة على أعمدة مرتفعة، وما أن رسا حتى اقترب منه أنطونيو الذي كان بانتظارها، وأمسك بيدها، فأنزلها من قاربها الملكي، وقد ولّه الحب فؤادها، ودخل بها إلى بهو قصرها المضاء بثريات من لؤلؤ يلمع نوراً، جلب لؤلؤَها البحارون الفراعنة القادمون من بلاد شعوب المايا. ترافق كليوبترا قيصرها في موكبه الملكي العظيم، وحولهم رجال الحاشية والوزراء، ووصيفاتها وغلمانها، ورجال الأمن والجواري، كل في بؤرة موقعه، وهو سعيد برقتها الطفولية، وحلاوة نغمة حديثها الذي يسعد أعظم رجل. يجلس **كنعان** على حافة مقعدك ويحتضنك وهو يتابع حديثه: "استمتعنا يا جدِّي بمشاهدة الحي الملكي، الذي يتوِّجه قصر كليوبترا، وما يحيط به من المباني العالية، والذي لا يبتعد كثيراً من الشاطئ.

وفيما يخص مكتبة الإسكندرية، فلقد شاهدنا موظفي الميناء وهم يحتجزون كتب السفن التي ترسو في المدينة، فتنسخ المخطوطات، ثم تعاد الأصلية إلى أصحابها داخل السفينة.

وبينما نحن نسير فوق شوارعها الحجرية، ضرب المدينة زلزال مدمر، فانهارت الجزيرة كلها، وتهاوت الأعمدة الرخامية، وانهارت السقوف، ورست في مكان منخفض تحت البحر، فأُغرقت شواطئها القديمة."

ينتهي كنعان من سرد حكايته العجائبية، فتسأله معجباً بفنه السردي:

- قل لي يا محترم، كيف شاهدتم كل هذا، وأنتم لم تغيبوا عنا أكثر من ساعتين ونصف الساعة؟ فيضحك كنعان فرحاً بحيلته التي كادت أن تنطلي عليك:

"أبداً والله يا جدي! لقد شاهدنا كل ذلك ضمن فنون عروض الصوت والضوء الحديثة، المجهزة بإتقان، لإشعار السياح وكأنهم يعيشون الأحداث التاريخية الغابرة، وربط المكان مع الزمان."

تدهش وتقدِّر الفن المبذول لإعادة صياغة التاريخ في هذه المدينة العجيبة، مما يغريك أنت وبرهان وإلزا بزيارتها في اليوم التالي، ولكن عبر مركبة غواصة، ركبناها مع السياح القادمين مثلنا، فنزلت بنا إلى أعماق بحر المدينة، حيث ندهش بتلك المشاهد الكمبيوترية المكبرة على واجهات الآثار المرممة، والمعاد بناؤها من جديد، وكأنها تتم الآن أمامنا بالبعد الرابع، وبالحجم الطبيعي!

تتخيل وجودكما داخل المدينة الغارقة، وكأنكما شخصيتان من ألف ليلة وليلة تتجولان بين قبائل سكان قيعان البحار، فتخطر في مخيلتك فكرة تنقلها إلى برهان: "ما دام الخضر قد نجحوا في التجول في هذه المدينة البحرية دون استخدام الغواصة، ودون تلويث البيئة بخضرتهم النافعة، فباستطاعة الإنسان الأخضر لو عُمِّم وسيطر على الأرض، أن

يتوسع في بناء مدنه داخل البحر، ويعيش هناك متنقلاً بين البحر واليابسة، فبذلك تخفف مدن البحر من أعباء اليابسة، دون تلوث بيئي."

- وجهة نظرك مدهشة يا أبي، ولا أعتقد أنها قد وضعت على برنامج مشروعنا الإنساني الكبير. سأحتفظ لنفسي بتسجيل سبقك البيئي هذا، وسأسجله تحت اسم نظرية مشهور للإسكان البحري.

وبينما نحن نعود إلى فندقنا، تشاهد عالماً من الشابات والشباب الخضر ينزلون من سفينة سياحية عملاقة على شاطىء الإسكندرية، وهم يتراكضون بمرح، ومع كل منهم حيوان أخضر. كان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف شخص أخضر، فرحت تفكر بأن أشياء كثيرة تتغير في الإسكندرية الساحرة. المدينة التي قاومت كل تحديات التاريخ، وبقيت عائشة تتألق!

كل الجيوش والعربات والأساطيل مرت من هنا، قبل وبعد أن يمر بها الإسكندر المؤسس. كل ذلك التاريخ العجيب ذوّبته شواطىء البحر وبخّرته، وبقيت الإسكندرية عربية شامخة مغرورة تتيه بجمالها، وتودع هذا وتستقبل ذاك، وتبقى مياه البحر تتماوج، وتصطدم بطحالب صخور الشاطىء، ثم تعود منسابة من هناك، رقراقة نظيفة ساحرة، وكأن لم يمسسها سوء!

الصندوق!

تدبر أمورك في دبي، وتنهي أعمالك هناك، وتعود إلى عكّاك القديمة، فيستقبلك أسباطك وأطفالهم، أحفاد سمر، يتحلقون حولك وهم فرحون بجدهم. تدخل المدينة مترهبناً في قداسة حاشيتها، كرجل عاقٍّ، أكل الدهر عليه وبال، يدخل محراب دير، فيسلم ذاته إلى الله، ويتوب على يديه من كل شروره وآثامه..

تُقبِّل بوابة عكا الخشبية العملاقة المقواة بالمعادن العتيقة، وتمشي معهم في حواريها وأزقتها، فتخرج من جمود شخصيتك وتخشبها، وتروح تلعب وتركض مع أطفالك في تلك الحواري والأزقة، التي كان ظاهر العَمر يحرس هيبتها بالحديد والنار، ويرفع رأسها بأكاليل الغار. تسير فرحاً بهم، وتقعد معهم هناك قبالة الشاطىء، لتحكي لهم تاريخ جدك الذي اختفى وراء الضباب. تراقب بقايا قوارب الصيد، التي ما زالت تتجمع وتتفرق فوق موج البحر، تنظر بدورها إليك، وكأنها تغامزك وتلامزك.. تقترب من تلك الحورية البحرية، فتهرب منك، تبتعد عنها، فتلحق بك. تغوص في البحر سابحاً وراءها، فتهاجمك لدرجة تكاد أن تغرقك. تدفعك

الأسماك والحيتان وكل هوام البحر لإخراجك من المكان، مقهورة من إصرارك على معاودة البحث، بينما الدلافين الضاحكة تلاعبك، وسمك السردين الصغير يسري من حولك مثل غيوم سوداء تعتم قاع البحر، وأنت تبحث عن جدك المفقود، فلربما بقي هنا تحت قارب، يصلح أو يدقدق، أو يتحدث مع السمك المتقافز هنا وهناك، ولكنك نسيت أنهم اصطادوه! لا ، لا ، لم يصطادوه، فلو اصطادوه، لظهر معك بين السمك المفرود على سطح السفينة. تبحث عنه، فلا تجد إلا أصدافاً بحرية. تقعد مع أطفالك، تزخرفون بها صندوق عرس جدتك أنيسة، الذي اشتراه لها جدك من الشام. أحضر لها من هناك أجمل صندوق عرس، كي تضع فيه أثوابها العكاوية المطرزة، وسراويلها السرِّية، وقلاداتها وصررها وحناءها، وطُبَب صوفها التي تصنع منها جرابات وجرازي العائلة. تقعد مع أطفالك لترمموا ترصيع الصندوق القديم بالصدف العكاوي. ولكن أين هو جدُّك كي تعطيه الصندوق؟ ضاع جدُّك. كان جدُّك هنا! قد يكونون فرموه وعلّبوه مع سمك التونة الأبيض. فلا أحد هنا يراقب مواصفات سمك التونة الذي تحول إلى اللون الأحمر. تبحث عن جدِّك كي تعطيه الصندوق. فيتداخل الصندوق مع أصوات موجات البحر. أصوات كورس ومغنٍّ **أبو لمعة والخواجة خريستو،** وهم يغنون معه: سرقوا الصندوق يا ابو لمعة! فيقول أبو لمعة: لكن مفتاحه معايا.

- الصندوق!
- الصندوق!
- الصندوق، حلقات مسلسلة.
- سَلسَلة!

(بقلوب مؤمنة بقضاء الله، ويعتصرها الأسى، ننعى وفاة المرحوم المهندس مشهور شاهر الشهري عن عمر ناهز المائة وسنتين، قضاها في الأعمال التي دوّناها أعلاه، وبعد الصلاة عليه في مسجد ظاهر العمر، تم دفنه في مقبرة عكا الجديدة، بحضور أبنائه وأحفاده وأحفاد أحفاده، وأهالي عكا الكرام، بتاريخ 25-9-2051 بعد أن أتم روايته.)

(شبكة المخابرات الخاصة)

عن الرواية

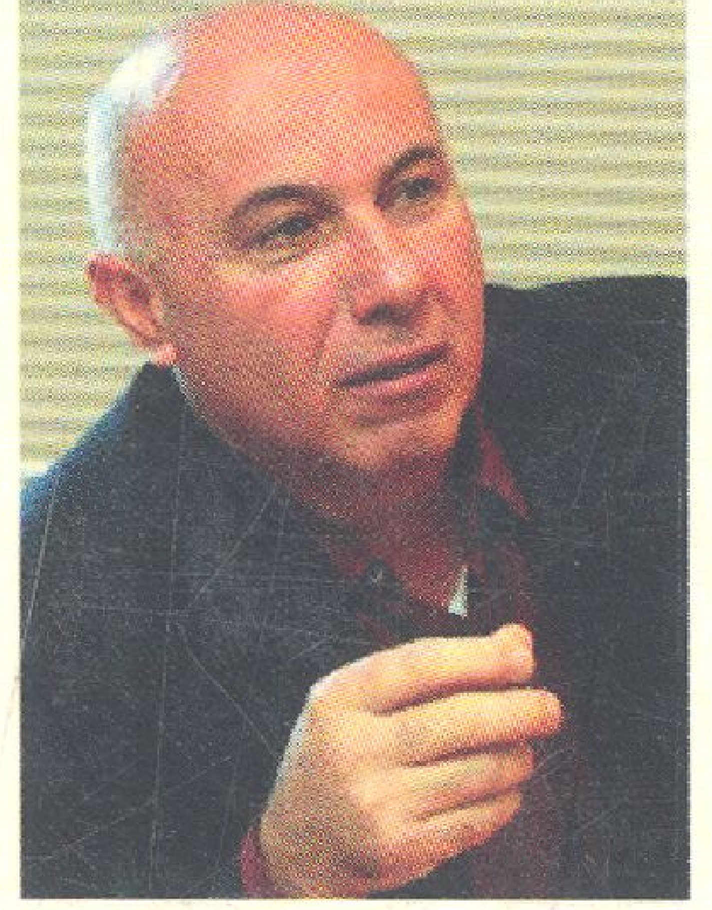
تأخذك تيتي من نفسك، ولا تترك لك فرصة لالتقاط أنفاسك! أول مرة تتذوق فيها طعم أنثى، وتتشمم رائحة أنفاسها الساخنة الشهية. . وأية أنثى هي تيتي! إنها شعلة منقولة مباشرة من الجحيم، ومطلّة عليك من جنات النعيم. . تغرقك في ثناياها، وتحرقك بجسدها الملتهب!

يقولون إن الحورية تخرج أحياناً من البحر، وتدخل بيتاً، وتتماهى في جسد فتاة ساحرة الجمال، فتعشق حبيباً، وتنشيه بحبها، ثم تأخذه معها إلى البحر، حيث تعيش معه هناك في سعادة دائمة! لست متأكداً من تماهي الشخصيتين، تيتي والحورية معاً!

عندما يسيطر الإنسان الأخضر على الكون، وتصير حيوانات العالم كلها خضراء، فلا تُخرج أية فضلات! سيتحول عرق الناس والحيوانات الخضر إلى نتح وندى نقي، وستختفي المراحيض من البيوت، وستتوقف المجاري عن الانسياب، وتعود للأنهار بكارتها النقية، فتنساب رقراقة خالية من أي سوء. ولن يتلوث الهواء بالغازات المدمِّرة للكون، وستعود حرارة الكرة الأرضية إلى التوازن!

هدفنا هو تغيير عقل الإنسان، وإخراج فكرة الصراع منه. فلا يعود يضمر الشر لأخيه الإنسان، وسيتوقف اعتداء الوحوش والكائنات الحية بعضها على بعض، وستتوقف الدول عن غزو الدول الأخرى وقتل مواطنيها ونهب ثرواتها! سيسود السلام العالم كله.. وإذ لم تفلح الأديان ولا الأمم "غير المتحدة" في تعميم المحبة بين الناس، نقوم نحن بالمهمة. نحن نسعى لخلق جنة على الأرض.

المحتويات



عن الرواية:

تأخذك تيتي من نفسك، ولا تترك لك فرصة لالتقاط أنفاسك! أول مرة تتذوق فيها طعم أنثى، وتتشمم رائحة أنفاسها الساخنة الشهية..وأية أنثى هي تيتي! إنها شعلة منقولة مباشرة من الجحيم، ومطلّة عليك من جنات النعيم.. تغرقك في ثناياها، وتحرقك بجسدها الملتهب!

يقولون إن الحورية تخرج أحياناً من البحر، وتدخل بيتاً، وتتماهى في جسد فتاة ساحرة الجمال، فتعشق حبيباً، وتنشيه بحبها، ثم تأخذه معها إلى البحر، حيث تعيش معه هناك في سعادة دائمة! لست متأكداً من تماهي الشخصيتين، تيتي والحورية معاً!

عندما يسيطر الإنسان الأخضر على الكون، وتصير حيوانات العالم كلها خضراء، فلا تُخرج أية فضلات! سيتحول عرق الناس والحيوانات الخضر إلى نتح وندى نقي، وستختفي المراحيض من البيوت، وستتوقف المجاري عن الانسياب، وتعود للأنهار بكارتها النقية، فتنساب رقراقة خالية من أي سوء. ولن يتلوث الهواء بالغازات المدمِّرة للكون، وستعود حرارة الكرة الأرضية إلى التوازن!

هدفنا هو تغيير عقل الإنسان، وإخراج فكرة الصراع منه. فلا يعود يضمر الشر لأخيه الإنسان، وسيتوقف اعتداء الوحوش والكائنات الحية على بعضها البعض، وستتوقف الدول عن غزو الدول الأخرى وقتل مواطنيها ونهب ثرواتها! سيسود السلام العالم كله.. وإذ لم تفلح الأديان ولا الأمم «غير المتحدة» في تعميم المحبة بين الناس، نقوم نحن بالمهمة. نحن نسعى لخلق جنة على الأرض.

صبحي فحماوي، عضو رابطة الكتاب الأردنيين، وعضو اتحاد الكتّاب العرب، وعضو اتحاد كتّاب مصر، وعضو نادي القصة المصري.

له خمس روايات:

- **عذبة، دار الفارابي، بيروت 2005.**
- **الحب في زمن العولمة، دار الفارابي - بيروت، 2008.(ترجمتها ناريمان ال الإسبانية، بإشراف أ.د. سليمان العطار).**
- **حرمتان ومحرم، روايات الهلال- القاهرة،2007.**
- **قصة عشق كنعانية، دار الفارابي، 2009.**

له أربع مجموعات قصصية:

- **موسم الحصاد، دار الكرمل - عمان 1987.**
- **رجل غير قابل للتعقيد، المكتبة الوطنية - عمان 1997.**
- **صبايا في العشرينات، مدبولي الصغير - القاهرة 2006.**
- **الرجل المومياء، دار الفارابي - بيروت 2006. (مثل الفنان السوري ياسر ال بعض قصصها في لوحات «مرايا»).**

